

# الزيتون







# الفكر

رئيس التحرير: د. غانم حمدون

المواد المنشورة تعبر عن آراء أصحابها

273

تشرين الثاني - كانون الأول ١٩٩٦



## محتويات العدد

### ليتسع الحوار ويتعمق - ملف العدد

د. حسن الجنابي	■ المعارضة والدور المطلوب ليارها	5
د. صادق البهلاوي	■ تيار اليسار الديمقراطي	10
محمد صالح ناميدي	■ القضية الكردية هي السبب الرئيسي لمشاكل العراق	20
د. صالح ياسر	■ نحو ترقية الخطاب وتدقيق الإشكاليات	27
د. مؤيد عبد العنار	■ التحالفات السياسية وإشكالية الديمقراطية	35
موسى الدجيلي	■ مناقشة آراء الرفيق عادل حبه في الموضوعات وملاحظات حولها	40
	■ إيضاح لجنة تنسيق التيار الديمقراطي في بريطانيا	57

د. حسان عاكف حمودي	■ واقع النظام الملكي ومؤسساته الدستورية	59
فخري كريم	■ جورج حاوي لا يتذكر	70
أحمد سلمان	■ لماذا أخفيت مخطوطات تمران	86
د. محمد ع. ل. مطلب	■ ضرورة الكف عن التهديد بالأسلحة الذرية	100
إبراهيم محمود	■ تأملات إسلامية حول المرأة - عرض	103
كمال محمود	■ صوت لحقوق الكرديات - عرض	107

## أدب وفن

- |                    |                                      |     |
|--------------------|--------------------------------------|-----|
| د. نوري الدين فارس | ■ الدراما معرفة منهجية ووعي خلاق     | 112 |
| د. علي إبراهيم     | ■ بدايات القصة والرواية في العراق    | 129 |
| سماء جروس          | ■ حوار مع شاكرا الأنباري             | 136 |
| يحيى علوان         | ■ همس مقتضب                          | 142 |
| سلام إبراهيم       | ■ شاعر عاش ومات في الظل              | 146 |
| مهدي محمد علي      | ■ تكوين / شعر                        | 161 |
| حامد بيكس          | ■ هذه بغداد تلعنك / شعر              | 162 |
| كاظم ثامر الشاهري  | ■ الافتتاح / قصة                     | 165 |
| هلال كاظم          | ■ أحب المبدعين .. ولست منهم / مناقشة | 169 |

● لوحنا الغلاف للمبدع مظفر النواب

أغلق التحرير أواخر تشرين الأول ١٩٩٦ .

## ليتسع الحوار ويتعمق / ملف ٦٦

## المعارضة والدور المطلوب ليسارها

د. حسن الجنابي

بودي، كمستقل، أن اطرح بعض الملاحظات عن مازق التششت في المعارضة العراقية، اسهاماً في المناقشة الجارية بين أعضاء واصدقاء شجع حول الموضوعات التي طرحتها قيادته للنقاش تحضيراً لمؤتمره السادس.

يمثل الوضع العراقي حالة فريدة من الانهيار يصعب معها تبرير جدوى العمل السياسي المعارض العاجز حتى الآن عن تحقيق التغيير المطلوب. قبدلاً من أن تحفز حالة انحدار القيم وتدني الاداء السياسي للحكم ووحشيته المعارضة كي تقيم بديلها الأرقى، انتشغل المعارضون بتأسيس تجمعات واحزاب وحركات زاد عددها على المئة دون أي مبرر منطقي. وإذا كان بالإمكان تفسير ذلك بردة الفعل على انعدام حريات الانتماء والتنظيم التي سادت العراق خلال العقود الثلاثة الأخيرة فيفترض أن تلجأ الحركات الجديدة، بعد مدد قصيرة، إلى معالجات واقعية ومراجعة شاملة لبرامجها وادائها السياسي عليها الكارثة الوطنية والشعور بالمسؤولية ازاءها، بعيداً عن الرغبات والعواطف الشخصية مهما كانت نبيلة وصادقة، معالجات تقود بالضرورة باتجاه الانفتاح والاتحاد والتنسيق لا الانعزال والانغلاق والجلوس انتظاراً للفرج.

إن عدم تحقق ذلك لهو دليل أكيد على أزمة بنوية بالفكر السياسي المعارض، تفقد معها المعارضة شرعيتها المستمدة من مقاومتها لنظام حكم همجي مفروض بقوة القمع. وهنا قد يشكك البعض، وهم على حق، بوجود فكر سياسي عراقي معارض إذا ما كانت

الممارسة السياسية للمعارضة القائمة هي المقياس، وهي ممارسة تتميز بعشوائية واضحة وتشتت للجهد الوطني يتحول، مع الوقت، إلى عائق جدي لأية محاولة لاقتناع الرأي العام العراقي والعربي والدولي بإمكانية تحقيق بديلها وأفضليته على نظام الحكم القائم.

إن نظرة بسيطة على برامج الحركات والأحزاب المعارضة تكفي للاستنتاج بأنها برامج متقاربة من بعضها وذات أهداف رئيسية واحدة، على الأقل في هذه المرحلة، مع اختلافات ثانوية هي التي أدت، كما يبدو، إلى بدعة تقسيم المعارضة إلى «تيارات» فاصبح الكل بما لديهم فرحين. لقد ابتدئ البعض، ثم صدق جملة من المفاهيم (حكاية التيارات مثلاً) وأخذ يصنف الآخرين ضمنها، واحتكر لنفسه تمثيل ما يشاء.

على العموم، تسعى التيارات المعارضة في العديد من بلدان العالم، كما حدث في أوروبا الشرقية في نهاية الثمانينات وبداية التسعينات، لتشكيل حركة واحدة (تيار واحد ان شئت) إلى أن يتسنى لها تغيير أنظمة الحكم، فيحدث أذاك الاستقطاب الطبيعي فيها وتنقسم، اثره، إلى تيارات وأحزاب تتنافس على كسب التأييد الشعبي. لاشان للمعارضة العراقية، كما يظهر، بما يحدث في الأماكن الأخرى من العالم، وكان ذلك يدخل في باب «الخصوصية» و«الوضع الملموس»، خصوصية تجعل «التيار الاسلامي»، على سبيل المثال، يضم عشرات الأحزاب الدينية وهي بدورها تمنع أو تحجب اعترافها بتيار آخر (اجتماع دمشق الأخير)، خصوصية تميز مقتلة الأخوة اكراد العراق، بأيدي بعضهم، عما فعله على حسن المجيد، انها خصوصية الباب المغلق!.

لاشك أن طبيعة المعارضة في أي بلد تعكس بوجه ما طبيعة السلطة القائمة، لأنها نتاج البيئة ذاتها، ولا يصلح هنا تخيل معارضة عراقية منسجمة تمارس عملها دون مشكلات وتحديات كبرى، غير أن الوضع العراقي يفترض وجود تمايزات واضحة وفاصلة بين طبيعتي المعارضة والحكم، خاصة بعد كوارث الحرب وتدمير الوطن. فنحن هنا ازاء جلااد مستبد وضحية عزلاء. وينبغي للضحية ان لا تكون شبيهة بجلاادها مطلقاً:

لقد وزع صدام «مكرماته» على العراقيين بالتساوي، فنالت بذلك كل مدينة عراقية وكل طائفة أو قومية نصيبها من القهر والتعسف، لكن ذلك لم يكف لتوحيد ضحايا المحنة الواحدة، لا بل ولدت الفرائز السفلى عند البعض، اثر ذلك، جدراناً هائلة تتميز خلفها اليوم العديد من التنظيمات والجمعيات الطائفية والعرقية، ومن المؤسف بعد أن تمكنت المعارضة في وقت سابق من وضع خطوات مهمة على طريق تحقيق الهدف الوطني،



سواء في بيروت أو فيينا أو صلاح الدين، ما لبثت أن تراجعت إلى وضع لا تحسد عليه بالرغم من الضعف البارز في معسكر الحكم.

### نواة شاعلة ليسار جديد

من هذه الزاوية «المتشائلة» يمكن النظر إلى مؤتمر الشيعيين المقبل، فالحزب الشيعي واحد من أعرق الحركات السياسية في بلادنا، وقد لعب دوراً مؤثراً في صياغة الفكر السياسي العراقي المعاصر. فإذا ما عجز عن المساهمة في استنهاض الروح الايجابية والمقاومة للشعب فذلك يعد خسارة فادحة للجميع.

هنا وبكل تواضع، ينبغي القول بعبثية البحث في برامج الحزب عن جمل وعبارات محدّدة، فهذه ومهما كانت صياغاتها محكمة وجميلة، عاجزة عن دفع الهدف الوطني إلى الامام شبراً واحداً إن لم يرافقها عمل محكم ودؤوب يسهم في قراءة متأنية لنخب الشارع العراقي، ويدرك الحاجات الحقيقية للشعب، والامكانات المتاحة لتحقيقها. ولكي يمكن انجاز ذلك، لا بد من الاحتكام إلى آليات داخلية مرنة تشيع روح الاجتهاد والابداع وتجاوز الصيغ القديمة في التفكير والعمل، وتتطلب قدراً معقولاً من البراغماتية السياسية المتحررة من قيود الايديولوجيا.

من المفاهيم المثيرة للنقاش في «الموضوعات» وعموماً في نشاط الحزب الشيعي العراقي، موضوع «التيار الديمقراطي» وكون الحزب جهة اساسية فيه. بدءاً، إن المفهوم نفسه غير دقيق لتوصيف القوى التي تدعي الانتماء اليه أو تصنّف ضمنه، والأخذ به يلغي ضمناً الصفة الديمقراطية للتيارات الأخرى، اضافة إلى كون التسمية لا تدل على المضمون الفكري والاقتصادي للأحزاب المصنفة ضمن التيار وبالذات الحزب الشيعي العراقي. فإذا ما كان لا بد للحزب من الانتماء إلى «تيار» كشر لا بد مذهب، أو تمثيل تيار، فافضل تسمية له وأقربها إلى واقع الحال هي «التيار اليساري» أو «العلماني» مع أفضلية للتسمية الأولى. ولعل لترسيخ هذا المفهوم في الخطاب السياسي العراقي المتداول بعض الفائدة من قبيل أنه يكرس دوراً مهماً في المعارضة لليسار، وهو دور مميز بدون شك، اضافة إلى أن التعاطي معه من قبل التيارات الأخرى (التيار الاسلامي على سبيل المثال) يفضي بالنتيجة، كأمر واقع، إلى توسيع هامش التسامح بين «التيارات» والقبول بالتمايز والتعامل على هذا الأساس بالرغم من الفروقات الفكرية والبرنامجية بينها. يمكن كذلك بسهولة التعرف على ملامح اليسار العراقي وتاريخه وبرامجه، ولربما تؤدي

تطورات لاحقة الى تأسيس حركة يسارية أو تحالف موحد للييسار العراقي خاصة بعد غياب المرجعية التقليدية في موسكو. وإذا ما استطاع الحزب الشيوعي ان يشكل النواة الفاعلة لهذا التيار فسيجد انه وضع نفسه بشكل كامل على سكة التجديد الشامل لما فيه مصلحة المجتمع العراقي سواء في المساعدة بالتسريع باسقاط الحكم الحالي أو ازالة آثار الظاهرة الصدامية في مرحلة ما بعد صدام.

إن أي نظام مقبل للعراق سيرث تركة ثقيلة وبالخصوص على الصعيدين الاجتماعي والاقتصادي، وهذا يتطلب بدوره جهداً هائلاً وقرارات ذات نتائج اجتماعية معقدة للغاية وذلك للتغلب على آثار الحروب والقمع وتضميد جراح الشعب الى جانب تسديد فاتورة الالتزامات والقيود المالية والسياسية والاخلاقية للسياسة الصدامية. ونظراً لانعدام أية امكانية فعلية للييسار العراقي لاستلام السلطة بعد صدام فإن وجود يسار قوي يعد ضرورياً لتخفيف معاناة الفئات الفقيرة والمهمشة من ضحايا الحرب والقمع والتهجير، وغيرها من فئات المجتمع ذات الدخل المحدودة، عن طريق انتزاع مكاسب اجتماعية تؤمن الحد الأدنى للعيش الكريم للطبقات المسحوقة، وهذه لا يمكن تأمينها الا ببرنامج يساري فعال.

### العشائرية والنكوص للخلف

من المظاهر الجديدة في برنامج الحزب الحديث عن «العشائر» العراقية ودورها «الاجابي» في مقاومة النظام الحالي. ليس جديداً القول بأن النظام الصدامي، في محاولة للمحافظة على حكمه، حرص على احياء قيم زائلة، وأخرى في طريقها للزوال تتنافى مع نزعة المجتمع في التقدم، وتمثل ذلك ببعث قوانين العشائر وتغليب النزعات القروية المتخلفة واعطائها صيغاً قانونية على حساب قيم المدينة الحديثة القائمة على اساس التعايش المشترك والتسامح والخضوع لقوانين مدنية تنظم علاقات الناس مع بعضهم دون الركون الى روابط الدم والحسب والنسب وماشاكل. وقد افرزت تلك السياسة التي رعتها الدولة مظاهر مرضية وجدت تعبيراتها ببروز حركات عشائرية تدعي العمل للمعارض وتبحث عن شرعية سياسية. ان هذه الظاهرة يجب ان لا تكون موضع ترحيب في حقل العمل السياسي لعدة أسباب منها، كونها افرازاً لنهج سياسي متخلف أخذ من قيم القرى والبدواة أسوأها في محاولة يائسة للبقاء في السلطة، وثانيها ان محاربة التخلف لا تتم بسلامح التخلف نفسه بل ببديل أرقى يتطلب، بدءاً، الشعور بالانتماء الى

وطن وتاريخ وحضارة أكبر من العشيرة ورابطة القرابة. بهذا التوجه فقط يمكن انعاش الأمل ببناء عراق جديد لا تتكرر فيه التجارب المرة الماضية.

### حول مياه الرافدين

كمهتم بشؤون المياه، لا يسعني إلا تأييد جوهر الموقف المعبر عنه في «الموضوعات» في شجب وأدانة السياسة المائية التركية التي تنم عن نوايا عدوانية ومطامع بالحقوق الوطنية العراقية، تسعى من خلالها تركيا للعب دور القوة الإقليمية التي تتحكم بالجريان الطبيعي للمياه وتطمع بالسيطرة الغذائية على المنطقة. وسيكون من المجدي أن يبنى المؤتمر بياناً، كان يسمى بيان الفرات أو بيان الرافدين، يتضمن كل أو بعض النقاط التالية والتي تلخص الثوابت الوطنية بهذا الميدان يتم السعي، بعد ذلك، لتعميمها على الفعاليات والحركات السياسية العراقية لغرض تبنيها كوثيقة للالتزام الوطني:

١- الالتزام بحقوق العراق المائية في نهري دجلة والفرات باعتبارها جزءاً من السيادة الوطنية العراقية غير القابلة للمساومة والاحتفاظ بحق الدفاع عنها عند التعرض للعدوان.

٢- اعتبار دجلة والفرات نهري دوليين منفصلين ولا يحق، تحت أي ظرف، لأي طرف القيام بأعمال مضرّة بحقوق الأطراف المتشاطئة الأخرى.

٣- تحريم بيع مياه النهرين إلى أطراف أخرى خارج جغرافية الحوضين المائيين.

٤- الدعوة للالتزام بالمصالح المشتركة للأطراف المتشاطئة في حوضي دجلة والفرات والحق في استقلال المياه بما يضمن استمرار جريانها الطبيعي وعدم الأضرار بالأنظمة البيئية والمرتبطة تاريخياً بالنهرين.

٥- الالتزام باللجوء للمفاوضات المتعددة الأطراف لحل المشكلات الناشئة حول المياه والسعي لوضع صيغة معاهدة عادلة ودائمة لتقسيم مياه الرافدين بما يؤمن مصالح شعوب البلدان المتشاطئة التي تقرها المعاهدات والقوانين الدولية المعتمدة عالمياً.

ملاحظة أخيرة: فيما يخص الوضع العربي والدولي، فانا عاجز تماماً عن إدراك أية فائدة لمناقشتها من قبل حزب عراقي معارض مقموع وسري أمامه مهمات وطنية هائلة يسعى إلى تحقيقها، واعتبر المساحة التي خصصت لهما والوقت الذي ستقتضيه مناقشتها، اهداراً للجهود والمال يحتاجهما الحزب في ميادين أخرى.

١٩٩٦/٨/٣٠

## تيار اليسار الديمقراطي

### د. صادق البلادي

«إننا إذ نعمل من أجل وحدة نشاط المعارضة ضد الدكتاتورية.. نسعى من أجل تعزيز دور التيار الديمقراطي الذي يناضل لتحقيق الديمقراطية ببعديها السياسي والاجتماعي، في مجمل عمل المعارضة، تمهيداً للدور الذي ينبغي أن ينهض به في عراق الغد الديمقراطي»  
من موضوعات المؤتمر السادس

إن جاز لمن ولد بعد ١٤/٧/١٩٥٨، ولم تكن ولادته صدفة في بيت تضرر بعد ثورة ١٤ تموز، أو تنكر اهله لماضيهم اليساري نتيجة احباط او تقية حذر الحزب الذي ذبح الشيوعيين والديمقراطيين اليساريين في شباط الاسود ٦٢، وعاد للحكم بانقلاب القصر في ١٧ تموز ٦٨، إن جاز لمن كان دون العاشرة يوم ١٧ تموز ٦٨، أن يصدق الان الزعم بأن مسألة وجود التيار الديمقراطي في العراق مسألة فيها نظر وهي بانتظار صدور فتوى من بعض فصائل المعارضة، فلا عتب عليه فهو لم يشهد ولم يسمع بنضالات الشيوعيين والديمقراطيين من أجل تحرير العراق من الاستعمار وسيطرة الاقطاع والرجعية، في سبيل الديمقراطية والتقدم الاجتماعي وفي سبيل التحرر العربي، وحقوق الشعب الكردي والأقليات القومية والدينية. فالسنوات التي اعقبت ثورة ١٤ تموز، رغم كل التضحيات والنضالات قد اتسمت بالهزائم والاحباطات، وسنوات

العقدين الاخيرين كانت سنوات تضال ضد نظام دموي ارهب الناس واخافهم من الاتصال بصوت معارض، حتى حقق الصورة التي رسمها ابو نواس لهارون الرشيد في اخافته الناس، والتي بالتاكيد لم يبلغها الرشيد: «تخافه النُفُف التي لم تخلق». غير ان محاولة بعض قوى المعارضة انكار وجود هذا التيار والتشكيك فيه فامر لا يجمعه جامع مع ضرورة حشد كل قوى المعارضة للاطاحة بنظام صدام، الشرط الاساسي لاقامة نظام ديمقراطي برلماني يأخذ بمبدأ التداول السلمي للسلطة. ان محاولة كهذه تدخل في باب التنافس بين القوى السياسية لضمان الموقع الأفضل في سلطة الغد وان جرت محاولة سريلتها برداء عقائدي. يجب التاكيد على ان التنافس والصراع بين تيارات المعارضة العراقية هو صراع مألوف بين احزاب وتيارات سياسية طامعة او زاعمة بالسلطة وليس صراعاً بين عقائد، ليس بين الكفر والايمان. فالاحزاب غير المتخذة الدين شعاراً تضم ايضاً متدينين من مختلف الاديان والمذاهب. ولا ينبغي نسيان ان ليس جميع العاملين باسم المصلحة العامة يعملون فقط لوجه الله والوطن، ولا ينبغي ان يغيب عنا ما عبر عنه شيخ الأزهر عندما سئل فيما اذا كان سياسياً فاجاب: «انا رجل دين، رجل علم وحقه وفكر اهتم بالسياسة لان العلم والسياسة صنوان لا يفصلان. ولا اشتغل بها لان اساليبيها تحتاج الى طراز من الرجال يختلفون عن رجال العلم قليلاً، ففي السياسة دهاء ومكر ونفاق وخديعة ومصالح، اما العلم فحقائق لا تقبل المناورة والخداع والكنب». وعن دسائس السياسة هذه عبّر الامام كاشف الغطاء بقوله: «ان للسياسة اسراراً غامضة، وأبارة عميقة». كما ورد في رسالته «المثل العليا في الاسلام لا في بحدود» في رفضه حضور مؤتمر بمحمود لمحاربة الشيوعية، الذي دعا لعقده الامريكان عام ١٩٥٤، وأوضح الامام كاشف الغطاء موقفه من الشيوعية كنظام سياسي، لا كعقيدة فكرية، بقوله «ليست لدينا من نظام الدول الشيوعية واهدافها وأسلوبها في العمل، امارات وعلائم تدل أنها تريد حربنا من الخارج، كما لا نريد حربها». ولا يظنن وأهم أن الحزب الشيوعي خلا ويخلو من هذا الطراز من رجال السياسة. فحتى في زمن الرقيق فهد، زمن الارهاب الرجعي وجدت وعناصر من غير المسموح لهم بالاشتغال بالسياسة وطلاب النزعم والمراكز وعشاق حب الظهور» طريقها للدخول الى صفوف الحزب الشيوعي «مما ساعد على بروز الانحرافات داخل الحزب الشيوعي بشكل خطر» كما أشار الرفيق فهد في كراسه «حزب شيوعي لا اشتراكية ديمقراطية». فما بالك في اوقات صارت اقل خطورة نسبياً. وثمة رجال اعمال

ومقاولون وشخصيات بنوا مكانتهم الاجتماعية والمالية على الرصيد الذي تجمع لهم أيام كانوا مناضلين في صفوف الحزب الشيوعي العراقي او محسوبين عليه..

لقد تكون التيار الديمقراطي في العراق في خضم النضال من أجل الاستقلال التام من التبعية للاستعمار البريطاني، النضال في سبيل التحرر الوطني. كان النضال يومذاك بالاساس يجري في سبيل الحريات والحقوق الديمقراطية، في سبيل حرية الصحافة والاجتماع والتنظيم الحزبي والنقابي، في سبيل حرية التظاهر والانتخابات النيابية الحرة، وفي سبيل حق التعليم المتساوي والمجاني، هذا الحق الذي بتحقيقه تمكنت اعداد غفيرة من غير ابناء الذوات والاغنياء من اكمال تحصيلهم العالي ايضاً. وكان الشيوعيون العراقيون في مركز هذا التيار، وكان وصف التيار الديمقراطي او اليساري، الديمقراطيون او اليساريين هو الوصف الغالب، لدرجة أن تهمة الشيوعية كانت تطلق يومئذ على كل معارض للاستعمار والرجعية، على كل مطالب بالديمقراطية، على كل ديمقراطي يساري، حتى وان لم يكن شيوعياً.

وكان الحزب الشيوعي عبر كل العهود في موقف المعارض عدا بضعة اشهر زمن عبد الكريم قاسم، و ٥ سنوات من عمر الجبهة مع الحزب الحاكم، تلك الجبهة التي ظلت جبهة فوقانية امتنت فيها الوجوه القيادية لأول مرة في حياتها من الملاحقة والمطاردة دون ان تتوقف ملاحقة الكوادر والقواعد لحظة واحدة طيلة سنوات عمر «الجبهة» كما كان يسميها الشهيد الدكتور صباح الدرة يوم كان يمثل الحزب الشيوعي في لجنة جبهة بغداد.

لقد برزت تسمية التيار الديمقراطي بشكل خاص منذ الثلاثينات في النضال ضد الفاشية وقوى الرجعية من أجل الاستقلال الوطني ونظام ديمقراطي، وكان الكثير من القوميين ميالين للنازية، واغلبهم لا ايماناً بها بل في الاغلب من المبدأ البدائي الساذج: عدو عدوي صديقي. وغالبية الناس ما كانت تؤمن بإمكانية تحقيق ديمقراطية تحقق المساواة بين الناس. فذهنية التراتب بين الناس وطبيعة وجود فئات فوق بعض، كما في أي مجتمع اقطاعي، هي السائدة يومذاك. فرجال السياسة هم من بين ابناء البيوتات والعوائل الثرية والاقطاعية، من علية القوم، ومن كبار العسكريين في جيش الملك فيصل الاول، أما الدعوة الى المساواة بين الناس سياسياً فهي بدعة طلع بها الشيوعيون والمتأثرون بالباشفة من ابناء العوائل ومن غير ابناء العوائل. كانت القوى السياسية تتصارع فيما بينها بعد ثورة العشرين لجني ثمارها، وانشغل الحكام «باخماسد

الانتفاضات التي كانت تحدث بين وقت وآخر في المناطق الكردية وفي ألوية الفرات وغيرها، ومعظم تلك الانتفاضات كانت قتنا تثيرها الاغراض الحزبية فيما بين الطبقات الحاكمة، واغراض استعمارية لارغام العراق على اعطاء بعض الامتيازات، كما قال فهد عن أحداث تلك الحقبة. وما كانت تعرف طريقاً للتغيير سوى طريق المؤامرات والانقلابات او المساومات بين رجال السياسة دون الاستناد على الشعب، والذي ليس بالنسبة لهم سوى رعا. كانوا يعولون في صراعاتهم على الجيش. ونحو هذا النهج اتجهت القوى القومية. فان يونس السبعائي، وهو رجل قانون وليس عسكرياً، كان ينظر للجيش باعتباره القوة المنظمة الوحيدة في البلاد وليست العشائر ولا الاحزاب التي لا تتمتع بأية سلطة حقيقية، وهذا الموقف هو الذي انعكس في التحالف مع العقلاء والذي ساد في حركة رشيد عالي عام ٤١، وقبل سنوات من ذلك في انقلاب بكر صدقي ٣٦. ومن المعروف ان السبعائي قد اعدم بتهمة «تشجيع الجيش على التدخل في السياسة». وبينما سارت مختلف القوى في طريق الانقلابات والمؤامرات، انتهج الشيوعيون، الذين ارادوا أن يكون حزبهم منظمة شبه عسكرية، انتهجوا طريق الدعوة الديمقراطية: عبر العمل لتأليف حزب شعبي له اهداف وطنية ديمقراطية واضحة، ويضم اكبر عدد من الجماهير الشعبية، و«السعي لتأليف جبهة وطنية موحدة، والعمل على تحقيق تمتع الشعب بحقوقه الدستورية.. وكل ما من شأنه تدعيم الحريات العامة وخلق وعي ديمقراطي صحيح بين أفراد الأمة، والسعي لتوسيع تلك الحريات والحقوق بصورة تتناسب وتطور البلاد ومقتضيات الحاجة والزمن كمساواة المرأة بالرجل في الحقوق السياسية والمدنية وكجعل الانتخابات على درجة واحدة وتحديد سن الانتخاب للناخب والمنتخب بثمانية عشر عاماً». كما جاء في برنامج حزب الوحدة الوطنية الديمقراطي، الذي كان الحزب الشيوعي وراء تقديم طلب اجازته نهاية عام ٤١ / اوائل عام ٤٢. وطبعاً فان الحكومة الملكية الدستورية لم تجز هذا الحزب بل قامت باعتقال بعض مقدمي طلب التأسيس. وظل هذا سبيل الحزب الشيوعي لانتصار الثورة وادان على الدوام طريق الاغتيالات والانقلابات. وهو فهم عقائدي وايمان بان الجماهير الشعبية هي صانعة التاريخ وليس النخب السياسية. وبالرغم من تقييد الديمقراطية داخل الحزب متذرعاً بواقع الإرهاب داخل البلاد، لقد تزايد الداعون للديمقراطية ومع ذلك ظل هناك تمايز بين التيار الديمقراطي اليساري والقوى الأخرى، وكانت وحدة عمل التيار اليساري دائماً أساس وحدة وتحالف القوى الوطنية الأخرى. ان هذا التيار

الديمقراطي اليساري كان على الدوام يجمع بين النضال في سبيل الديمقراطية السياسية والاجتماعية.

واليوم وبنتيجة السياسة الفاشية البدوية اتسعت صفوف المطالبين بانهاء الديكتاتورية وغدت المهمة الرئيسية اسقاطها واقامة نظام دستوري ديمقراطي تعددي يحقق تداول السلطة سلمياً. وصار البعض لا يقرون بتسمية التيار الديمقراطي بل يرون فيه تجاوزاً على قوى اخرى اخذت تتبنى الديمقراطية السياسية نهجاً في تداول السلطة وتحقيق التغييرات سلمياً، تلك القوى صارت تعلن عن قبولها بالاحتكام الى صناديق الاقتراع، وصار البعض لا يريد تجمعاً لقوى التيار الديمقراطي بل تجمعاً من أجل الديمقراطية. حقاً ان اتساع صفوف المطالبين بتبني الديمقراطية اساساً كنهج للحكم دون اشتراط ربط ذلك بالديمقراطية الاجتماعية يجعل مصطلح التيار الديمقراطي غير واضح وبه غمط للقوى الاخرى التي تتبنى الديمقراطية منهجاً في التعامل السياسي، لكن موقعها ضمن التيارات السياسية الاخرى. فمن أجل ازالة الالتباس والوضوح يكون اعتماد مصطلح اليسار الديمقراطي ادق تعبيراً عن هذه الحالة الجديدة، ويتجاوب مع التغيرات الحاصلة في العديد من البلدان حيث تأسست فعلاً تنظيمات او جهات بهذا الاسم وتسعى الى اعادة تأسيس يسار جديد وتنسيق نشاطاته عربياً وعالمياً. واقترح لذلك ان تتغير في «الموضوعات» عبارة «تعزيز دور التيار الديمقراطي» الى «دور تيار اليسار الديمقراطي». وانطلاقاً من واقع ان ليس بقدره أي تيار بما فيه اليسار الديمقراطي تحقيق التبدلات الضرورية في العراق، وليس فقط من عدم قدرة أي تيار بمفرده بل ومن ضرر انفراد أي تيار على مستقبل العراق وحياة اهليه، يكون من مهمات اليسار الديمقراطي العمل على تجميع كل القوى الداعية للديمقراطية بحيث تصبح كفة راجحة يمكنها ان تعبر رأياً عاماً قوياً يتصدى لكل محاولة، وهي محتملة جداً لضرب الديمقراطية والتنكر للتعددية والتداول السلمي للسلطة. ان تقوية اليسار الديمقراطي لا تتعارض مع العمل من أجل تجميع كل القوى الراغبة في تحقيق الديمقراطية والتعددية بل هو يشترطها ويفرضها. ان مجريات المؤتمرات والاجتماعات التي عقدتها قوى المعارضة همشت دور قوى اليسار بعد ان لم يعد سلماً تستخدمه قوى المعارضة الاخرى سبيلاً للحصول على معونات الدول الاشتراكية، المادية والمعنوية. فلابد ان يكون ذلك التهميش دافعاً لقوى وشخصيات تيار اليسار الديمقراطي للتجمع والتلاقي لرص صفوف اليسار الديمقراطي من أجل الاسراع بالاطاحة بالاطاعون الذي يفتك بالبلاد وبالعباد.



إن الرصيد الكبير الذي حققه اليسار الديمقراطي قبل ثورة ١٤ تموز تكون بالأساس في النضال ضد الاستعمار والرجعية ومن أجل الحقوق والحريات الديمقراطية لصالح الجماهير الشعبية، وبالاكتفاء على الجماهير الشعبية، عبر التنظيمات الديمقراطية والجماهيرية، التي حققت له النفوذ الكبير في الشارع فجعل كل القوى السياسية الأخرى تحسب له حساباً وتسعى للتحالف معه، واستمر هذا التأثير الكبير حتى تظاهرة أيار ٥٩ الكبيرة، ولكن هذا الرصيد أخذ يضعف بعد تموز ٥٩، بعد الجدل الذاتي، الذي كان بمثابة إهانة كبيرة ولطمة للجماهير التي سارت وراء شعار لم يكن خطأ، شعار اشراك الحزب الشيوعي في الحكم. فمنذ ذلك الوقت بدت حسابات المساومة السياسية على مصلحة الجماهير هي الغالبة، فحصل الانفصام بين الوطنية والديمقراطية. لكن بدء ضعف هذا الرصيد الجماهيري عوض عنه يومذاك تنامي الرصيد الأممي للحزب لعلاقاته بالاتحاد السوفييتي والمعسكر الاشتراكي وكانت الحكومات العراقية المتعاقبة بدءاً من قاسم حتى حكومة انقلاب ١٧ تموز ٦٨، وكل التيارات السياسية المعارضة وخاصة أحزاب الحركة القومية الكردية بحاجة إلى المعسكر الاشتراكي ودعمه في سياسات التساوم في الصراع الدولي والاقليمي، سياسة فن الممكن. فعوض ازدياد الرصيد الأممي للحزب الشيوعي إلى حد ما عن بدء انحسار الرصيد الشعبي. وبعد مؤتمر بيروت في آذار ٩١ وإنهيار المعسكر الاشتراكي ضاع هذا الرصيد أيضاً، وانعكس في تعامل القوى الأخرى مع اليسار الديمقراطي.

إن قوة اليسار الديمقراطي أساساً هي قوة الرصيد الشعبي الذي امتلکه تاريخياً ويمتلكه موضوعياً لدفاعه عن مصالح الجماهير، وقدرته على تعبئة الجماهير وكسبها في وقت لا يملك لا سلطة ولا مالاً. فينبغي أن يعتمد على وحدة عمل كل عناصره وتجمعاته، وليس له من سبيل آخر. فالدولار يسيل في قنوات آخر، الدولار الذي قال فيه الشاعر:

تلوى به عصب البلاد وتشتري  
نعم الرجال وتحجز الأفكار

### النظام الداخلي

كشف انهيار أول تجربة لبناء الاشتراكية والتي لم تدم سوى حوالي ٧٠ عاماً. من جديد كيف أن انبل المثل والتعاليم قد تردت إلى نقيضها عبر المؤسسات التي تتكون من أجل تنفيذها، والأشخاص الموكلين لخدمتها، إذ يتحولون بغياب أو اضعاف الرقابة من

اجير وسادن الى متصرف وسيد. وعبر المعري عن مثل هذا الحال بقوله:

مل المقام فكم أعاشر أمة      أمرت بغير صلاحها أمرؤها  
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها      فعدوا مصالحها وهم أجراؤها

وجاء الجواهري بعده يؤكد بقوله لام عوف:

من عهد آدم والأقوام مزجية،      خوف الشرور، الضحايا والقرابيننا  
أكلما إبتدع الإنسان أكلة      الخير صيرها شرثايبنا؟

وهكذا يمكن أن تصبح خير المثل والمذاهب وسائل لخدمة الرؤساء والزعماء، لخدمة البيروقراطية عموماً. ولذلك فالضروري ليس فقط التأكد من نبل وصدق الاهداف المعلنة، وخصوص نوايا العاملين من أجلها، بل التحقق من سلامة أدوات التنفيذ، ووضع آلية تمنع أو تعرقل نشوء مثل هذا السلوك، لأن نتيجته إبتعاد الناس عن المؤسسة، فتصبح عاجز نخل هاوية لا تستطيع الصمود أمام هتافات الناس: «نحن الشعب» كما حصل في ألمانيا الديمقراطية، أو أمام خرخشة ضيآت المفاتيح كما في براغ.

والنظام الداخلي هو إحدى الأدوات الهامة التي يمكن أن تسهم في الحد من سرعة الوقوع في تحول الهيئات الحزبية الى سلطات فوق الأعضاء وفوق الحزب، أداة تسهم في الحد من نشوء وتضخم نفوذ البيروقراطية الحزبية، التي شخصها لينين كواحد من عوامل ظهور الانتهازية في الحركة الثورية. صحيح أن النظام الداخلي وحده دون الرقابة القاعدية لا يعصم من التجاوزات إلا أنه يشكل أداة فعالة للرقابة ضد الخروقات. ولقد أقر المؤتمر الخامس نظاماً داخلياً هو مقارنة بما سبقه من أنظمة داخلية أكثرها ديمقراطية وانفتاحاً. وحرية النشر المتاحة في الصحافة الحزبية منذ التحضير للمؤتمر الخامس تبين الى أي حد يمكن الاستفادة من وجود نظام داخلي جيد، إن اقرار النظام الداخلي في المؤتمر الخامس تم في إطار الانتقال الى الديمقراطية والتجديد، وهي سيرة طويلة ومعقدة، لا يمكن تحقيقها دفعة واحدة، وهو ليس المبتغى والمنتهى في هذه السيرة، فلم يتخلص من كل نواقص وسلبات التقاليد التنظيمية السابقة. وعلى المؤتمر السادس أن يدقق في هذا النظام الداخلي وعلى ضوء التجربة منذ المؤتمر الخامس.

على العكس من كثير من الأحزاب المعاملة لم يتخل الحزب الشيوعي العراقي بعد عن «المركزية الديمقراطية» بينما تخلى عن شعار «ديكتاتورية البروليتاريا» وهي بالنسبة الى فهد «الشيء الأساسي في اللينينية» و«جوهر محتويات الثورة البروليتارية». فلماذا

الاصرار على تبني هذا المبدأ، رغم أن كل تجاربه التطبيقية كشفت أن التمسك به يقود الى البيروقراطية المركزية.

وفيما يخص تشكيل المؤتمر الوطني للحزب فإن المادة ١٤ تجعل أعضاء المؤتمر الذين يشكلون أعلى هيئة في الحزب ينقسمون الى ثلاثة أنواع:

الاول: أعضاء تزكية: أعضاء اللجنة المركزية ولجنة الرقابة للحزب الشيوعي العراقي والحزب الكردستاني — العراق، من غير العاملين في المنظمات الحزبية وهيئات الاختصاص.

الثاني: أعضاء بالتعيين: المختصين والشخصيات الحزبية بنسبة لا تتجاوز ١٠٪ من أعضاء المؤتمر.

الثالث: الأعضاء المنتخبون في كونفرنسات المحافظات.

وكلهم لهم نفس الحقوق في المؤتمر. وهذه التشكيلة غير ديمقراطية وتعطي اللجنة المركزية إمكانية التأثير في تركيب المؤتمر. فأعضاء اللجنة المركزية أعضاء في الحزب ينبغي أن يكونوا خاضعين للانتخاب كغيرهم. ومن لا يفوز بالانتخاب عليه الحضور للمحاسبة عن أعمال اللجنة السابقة. ويمكن دعوة شخصيات ومختصين لاغناء أعمال المؤتمر، ولكن ليس لهم حق التصويت والترشيح، بل فقط حق المناقشة في مواضيع اختصاصهم. وإذا كانت الظروف القومية والظروف الاستثنائية بفضل منطقة «الملاذ الآمن» قد قادت الى تكوين الحزب الشيوعي الكردستاني — العراق بدل منظمة الاقليم، فهذا لايعني تحوله الى حزب مكافئ للحزب الشيوعي العراقي، بل «تبنى العلاقة بينهما على أساس برنامج الحزب الشيوعي العراقي ونظامه الداخلي».

إن عضوية المؤتمر يجب أن تكون كلها بالانتخابات في المنظمات، ورفاق اللجنة المركزية يكونون عاملين في المنظمات التي يقيمون في أماكن عملها.

إن خيرة البرامج واللائحة لا تكفي وحدها لترسيخ الديمقراطية فإمكانية التجاوز عليها، بل الميل للتجاوز، يبقى قائماً. ولذلك يتطلب تشديد الرقابة القاعدية ورفع درجة حساسيتها، الأمر الذي يثبت من جديد أنها سيرورة تحتاج للنضال. فبالرغم من أن المادة ١٢ الفقرة ٢ من النظام الداخلي حددت مجال عمل حشك، لا أقول حشك، بأن: «الحزب الشيوعي الكردستاني — العراق يضم جميع أعضاء ومنظمات الحزب العاملين في نطاق اقليم كردستان» وصل الأمر الى القبول بأن تكون له شخصية معنوية في عموم العراق وخارج البلاد، وأن تشكل له تنظيمات شكلية ليس لها غير الاسم، بعضوية نفر معدود

من الأكراد، من بين مجموعة عددها كلها صغير من العراقيين، وكل هذا دون أن تكون هيئة حزبية لها الحق في تغيير النظام الداخلي، اللهم إلا عودة للتقاليد التنظيمية التي اتسمت بخرق الشرعية وتسلسل البيروقراطية المركزية. ولا أظن أن مبعث ذلك ضرورات يقتضيها الوضع الحالي في إقليم كردستان العراق بقدر ما هو تعبير عن النزعة الارادية والذاتية والمبالغة في تقييم الوضع في كردستان العراق وإعتباره قد تجاوز الغدالية، الأمر الذي خلق صعوبات وعراقيل غير قليلة بين حشع وحشك لدرجة يجري فيها التوصل بعد نقاش الى استنتاج: «ضرورة استمرار العلاقة بين حشع وحشك».

### اسم الحزب

قبل المؤتمر الخامس جرت مناقشات وطُرحت مقترحات حول تسمية الحزب، لكن المؤتمر لم يأخذ بها. إن تغيير اسم الحزب لا يعني وحده الشيء الكثير حالياً، فهو لا يغير نهضة الحزب واهدافه، ثم أن تغيير اسمه الآن هو بالنسبة لكثير من الذين قضوا زهرة شبابهم وحياتهم في النضال تحت راية هذا الاسم المجيد يعني التخلي عن قطعة عزيزة من أنفسهم. فليس من السهل القبول به. غير أن الشيوعيين الذين كانوا دوماً على استعداد للتضحية بأرواحهم وللإستشهاد في سبيل مثلهم لن يصعب عليهم القبول بهذا إن رأوا فيه فائدة للحركة.

عندما صاغ ماركس وإنجلس بيانه أواخر ١٩٤٧/ ١٨٤٨ كان حزبهما يدعى عصبة الشيوعيين المنبثقة من عصبة العادلين. ولكن بعد فشل الثورة الديمقراطية الأوربية ١٨٤٨ وضرب الحزب الشيوعي ومحاكمته أعيد تأسيس الحركة العمالية باسم جمعية العمال الدولية (الاممية الاولى ١٨٦٤-١٨٧٦). وبعد حلها بدأت تتشكل الأحزاب على نطاق قطري واتخذت إسم «حزب العمال الديمقراطي الاجتماعي» (الترجمة العربية التي شاعت حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي) في ألمانيا أو في روسيا وغيرهما، أو الحزب الاشتراكي. وحزب العمال الاشتراكي الديمقراطي في روسيا قام بثورة أكتوبر الاشتراكية بهذا الاسم. ولم يتبدل الاسم الى الحزب الشيوعي الا بعد إنتصار الثورة، وتأسست الاممية الثالثة باسم الكومنترن (الاممية الشيوعية) تمييزاً لها عن الاممية الاشتراكية. وبعد الحرب العالمية الثانية تخلص أكثر الأحزاب الشيوعية في أوروبا الشرقية عن اسم الحزب الشيوعي، واتخذت أسماء أخرى كحزب العمال الاشتراكي في

بولونيا أو في المجر أو الحزب الاشتراكي الموحد في ألمانيا الشرقية، وبعد انهيار الاشتراكية تبدلت أسماء كثير من الأحزاب الماركسية - اللينينية. وحتى في فترة وجود المعسكر الاشتراكي لم تكن كل الأحزاب الماركسية - اللينينية تتسمى باسم الحزب الشيوعي. والحزب الشيوعي العراقي اتخذ أول تأسيسه إسم «لجنة مكافحة الاستعمار والاستثمار»، وبدل إسمه في صيف ٢٥ إلى الحزب الشيوعي العراقي، وقد يكون صحيحاً في فترة بدت وكان الانتقال إلى الشيوعية لم يعد بعيد المنال.

لقد شخص فهد ضرورة تأليف حزب شعبي له أهداف وطنية ديمقراطية واضحة، يضم أكبر عدد من الجماهير الشعبية، وكان يسعى حتى في تلك الفترة حين يعاقب القانون على «جريمة» الانتماء للحزب الشيوعي» إلى العمل في إطار حزب علني لا يحمل إسم الحزب الشيوعي. وكانت الأسماء التي اقترحها تعبر عن الهدف المرحلي أو القاعدة التي يستند إليها. ففي أوائل ١٩٤٢ كان فهد وراء تقديم طلب تأسيس «حزب الوحدة الوطنية الديمقراطي» فاعتقلت الحكومة الملكية إثنين من مقدمي الطلب بدل إجازته. وفي تموز ١٩٤٣ دعا إلى تأليف «حزب الشعب الديمقراطي» وفي أواخر عام ١٩٤٥ قدم طلب تأسيس «حزب التحرر الوطني». وزمن قاسم بعد إجازة حزب داود الصايغ باسم «الحزب الشيوعي» طلب الحزب إجازته باسم «اتحاد الشعب».

واليوم بعد أن أصبح هدف بناء الشيوعية هدفاً لمستقبل بعيد، والهدف الأله هو الاطاحة بدكتاتورية صدام واقامة مجتمع ديمقراطي تعددي يضمن توفير العدالة الاجتماعية، بتأمين حقوق الجماهير الشعبية قد يكون إسم «حزب الشعب الديمقراطي» الاسم الأكثر تعبيراً عن أهداف المرحلة التي يناضل الشيوعيون من أجلها الآن، من أجل خير الجماهير الشعبية وبعتماد الديمقراطية منهجاً، ولا تتنكر لهدف الشيوعية النبيل: إقامة مجتمع خال من الاستغلال، يحق للشعب سعادته بتوفير أقصى درجات العدالة الاجتماعية، تحقيق مجتمع الكفاية والعدل. وبالتخلي عن الاسم يتخلص تدريجياً مما ينسب للشيوعية من سيئات الصقت بها نتيجة التشويهات التي خلت بها.

١٩٩٦/١٠/١٤

## القضية الكردية هي السبب الرئيسي لمشاكل العراق

محمد صالح ناميدي\*

قبل الدخول في مناقشة الآراء التي سطرها الأستاذ صباح الجزائري (انظر العدد ٢٧١- ث ج) حول الفيدرالية والقضية القومية الكردية، أود أن أركز على بعض الجوانب المهمة والحقائق الموضوعية، التي وضعت العراق في اليأس المستمر ومنذ للتأسيس في سنة ١٩٢١. كما أن تشخيص الأمراض الحقيقية، التي يعاني منها العراق والتي أدت وتؤدي إلى استلام السلطة من قبل الزمر العسكرية والبوليسية والقمع الدكتاتوري، أمر ضروري بغية البحث عن الحلول الضامنة الجريئة والكفيلة لاستراحة هذا الشعب المنكوب والمغلوب على أمره، وفسح المجال أمامه للدخول في عملية البناء والتنمية واللاحق بتطورات العصر.

منذ أن أصبح العراق دولة مستقلة وذات سيادة قبل ٧٥ سنة، فإن الأوضاع السياسية لم تستقر في العراق لحظة واحدة، فقد بلغ مجموع سنوات الحرب في العراق أكثر من ٥٠ سنة وبشكل مستمر وإن حصة الأكراد من هذه الحروب أكثر من ٤٠ سنة. كما أن القضية الكردية أصبحت السبب الرئيسي في دخول العراق حرباً مدمرة مع إيران لمدة ٨ سنوات (١٩٨٠/٩/٢١ - ١٩٨٨/٨/٨) راح ضحيتها أكثر من نصف مليون مواطن بين قتل وجريح وأسير ومعوق حرب، ناهيك عن تدمير الاقتصاد العراقي وابتلاع أكثر من ٢٠٠ مليار دولار.. وسبب ذلك هو أن نظام صدام لم يكن مستعداً

\* محام وكاتب كردي.

للاستجابة للمعطاليب الكردية وفق منطوق بيان ١١/ آذار/ ١٩٧٠.. مما اضطر الى الدخول في صفقة خيانية مع نظام الشاه والاتفاق معه في الجزائر سنة ١٩٧٥ تنازل بموجبها عن جزء من ارض وسيادة العراق (عمق ٥ كيلومترات من حاج عمران شمالاً إلى خط تالوك في شط العرب جنوباً) لقاء قيام نظام الشاه بقتل التمرد الكردي بقيادة ملا مصطفى البارزاني... وبعد تسلم قيادة الخميني الحكم، الغي صدام الاتفاق ونصومه، فكان سبباً لنشوب الحرب الإيرانية - العراقية... وعندما شعر صدام بأن الميزانية أصبحت خاوية وأن موارد النفط لا تكفي لتغطية فوائد الديون المستحقة المترتبة نتيجة الحرب مع إيران، وليس بإمكانه تنفيذ مشروعه الميكافيلي الحقيق أمام الشعب العراقي، فقفز إلى الكويت محاولاً السيطرة على آبار النفط هناك والاستئثار بحصتها النفطية وفق استحقاقات منظمة (أوبك) وتعويض الأضرار الفادحة نتيجة الحرب مع إيران، وبنتيجة ذلك أبعد أكثر من ٥٠ ألف جندي عراقي عدا الأضرار والتعويضات الاقتصادية والحصار المقروض عليه منذ أكثر من ست سنوات والفرص التي خسرها العراق في مجال التنمية والاستثمار ومن جميع النواحي...

إذاً فإن السبب الرئيسي لمشاكل ومعضلات العراق السياسية والاقتصادية والاجتماعية هي القضية الكردية، لأنها مفتاح البلاوي والمآسي للشعب العراقي. وهذه القضية من الأسباب غير المباشرة الهامة في تدهور النظام العسكرتاري ومن ثم الدكتاتوري في العراق ومنذ التأسيس، لأن الدولة العراقية كانت كياناً مصطنعاً ومولوداً جاء إلى الحياة بعملية قيصرية وجبرية بعيداً عن إرادة الشعب العراقي، وتأسست على أساس تعدد القوميات الإلجباري لا الطوعي... والكيانات المصطنعة تلقى تحديات داخلية كبيرة ومعرضة للانقسام والتفتت في وقت من الأوقات، بسبب عدم وجود الضمير المشترك أو معطيات الوطنية الحققة للحفاظ على سيادة الوطن، وخاصة أن العراق يشكو من عدة جوانب في هذا المضمار... فهناك الشيعة والسنة والأكراد والعرب والتركمان والأشوريون والجميع في تناقضات وتناحرات وصراع على السلطة... وقد شعر القادة العراقيون بهذا الواقع المر منذ اليوم الأول من تأسيس الدولة العراقية... كما أن الحركات الكردية المسلحة التي انفجرت منذ البداية (حركة شيخ محمود ١٩١٩/ ١٩٢٥) وحركة اليزيديين في جبل سنجار سنة ١٩٢٧ وحركة بارزان الأولى بقيادة شيخ أحمد (١٩٣٢) ومشاكل التياريين في الموصل ونتائج ثورة العشرين، كلها قد حفزت القادة والسياسيين الجدد لتشكيل سلطة مركزية قوية في بغداد بغية الحفاظ على الكيان

المتاراجع، وخاصة أن معظمهم كانوا ضباطاً في الدولة العثمانية المنهارة أمثال نوري السعيد وتوفيق السويدي وجعفر العسكري والآخرين ياسين وطه الهاشمي وحكمت سليمان وغيرهم والمتشرّبين بالتقاليد العسكرية العثمانية والنزعات الكولونيالية ذات الأهداف التوسعية بالقوة والقمع، والمتأثرين بنهج رواد الطورانية (الدولة القومية) والعنصرية من أمثال قادة الاتحاد والترقي أو ما يسمى بالاتحاديين وأعضاء جمعية تركيا الفتاة والأتراك الشبان المغفورين وعلى رأسهم مؤسس تركيا الجديدة كمال أتاتورك، وخاصة بعد أن أحرز نجاحات كبيرة بتوحيد القادة الأتراك وتأسيس الجمهورية وضرب الحركات الكردية بيد من حديد حركة شيخ سعيد بيران / حركة شيخ رضا الدرسي، فأنشئ كيان قومي على حساب الشعوب المضطهدة مثل العرب والأكرد واللاس والشركس... فعند اليوم الأول من استلام أولئك القادة الشوفيين زمام الأمور في العراق، طلبوا من حلفائهم الإنكليز تأسيس جيش عراقي حديث بغية الحفاظ على الكيان المصطنع وفعلاً تم تأسيس الجيش وفق التقليد الإنكليزي، المطعم بالفكر الشوفي الطوراني، الذي يعتبر بأن «العسكري فوق الجميع» مما جعل اللجنة الأولى للسلطة في العراق بنية مركزية أولاً، وعسكرتارية ثانياً وبعيدة عن التقاليد الديمقراطية ثالثاً. ومن جانب آخر فقد تم سن دستور فصلت بموجبه السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية ووضعوا آليات الدولة وهياكلها الإدارية وفق النمط الإنكليزي الديمقراطي.. والهدف من ذلك ربط الطبقة الإقطاعية ورؤساء العشائر بالدولة بغية إعادة إطار عام لعملية الاندماج بين قطاعات الشعب والمذاهب الدينية والقوميات المتعددة... ولم يكن لهذه السلطات أو الهيئات أي اعتبار سياسي أو نفوذ سلطوي على الدولة. وما قول الشاعر العراقي «علم ودستور ومجلس أمة / كلها عن المعنى الصحيح محرف» إلا دليل على هذا الواقع. ولم يكن وضع إيران تركيا (...) أفضل من وضع العراق.. حيث أن الدافع الموضوعي والتحديات الجدية لكياناتها نتيجة تعدد القوميات فيها قد فرض عليها تأسيس سلطات مركزية يكون الجيش والقوة العمود الفقري فيها.. ونلاحظ بأن دول أخرى تأسست مثل الأردن والسعودية والكويت، إلا أنها لم تكن تعاني من تعدد القوميات والمذاهب ولم يفكر قادتها بتشكيل جيوش حديثة إلا بعد الحرب العربية الإسرائيلية ١٩٤٨، حيث كانت تملك قوات رمزية مثل الشرطة والدرك الحدودي.

ونتيجة للواقع المفروض فقد لعب الجيش العراقي منذ تأسيسه دوراً خطيراً في السياسة العراقية ودخل معارك وحروباً لا نهاية لها وأثناء المعارك والحروب التي



خاضها لكي يتمكن القارئ من الدخول في الاستنتاجات والاستقرارات حول المآسي والويلات التي عانى منها الشعب العراقي وبدد فرص الحياة الكريمة والتنمية الاقتصادية والاجتماعية:

- ١- ١٩٢١ - ١٩٢٥ ثورة شيخ محمد ٤ سنوات
- ٢- ١٩٢٧ حركة اليزيديين في جبل سنجار ١ سنة
- ٣- ١٩٢٨ الحركة التيارية ١ سنة
- ٤- ١٩٣٢ حركة بارزان الاولى بقيادة الشيخ احمد البارزاني ٢ سنة
- ٥- ١٩٣٧ انقلاب بكر صدقي
- ٦- ١٩٤١ حركة مايس (رشيد عالي كيلاني)
- ٧- ١٩٤٣ الحركة البارزانية الثانية بقيادة ملا مصطفى ٢ سنوات
- ٨- ١٩٤٨ مشاركة الجيش العراقي في حرب فلسطين ٢ سنة
- ٩- ١٩٥٨ ثورة ١٤ / تموز / ٥٨ وإعلان الجمهورية
- ١٠- ١٩٥٩ حركة الشواف في الموصل
- ١١- ١٩٥٩ الحرب الاهلية في كركوك
- ١٢- ١٩٦١ الحركة الكردية الكبرى في ١١ / ٩ / ١٩٦١ ١٥ سنة
- ١٣- ١٩٦٣ انقلاب ١٤ رمضان وحرب الاموار
- ١٤- ١٩٦٤ انقلاب ١٨ تشرين ١٩٦٤
- ١٥- ١٩٦٧ مشاركة الجيش العراقي في الحرب العربية - الإسرائيلية
- ١٦- ١٩٦٨ انقلاب ١٧ / ٧ / ١٩٦٨
- ١٧- ١٩٧٣ مشاركة الجيش العراقي في حرب تشرين ١٩٧٣
- ١٨- ١٩٧٥ عودة الاقمتال في كردستان ١٦ سنة
- ١٩- ١٩٧٦ - ١٩٩١ اندلاع الحرب الكردية مرة ثانية بمشاركة جميع القضايل الكردية
- ٢٠- ١٩٧٩ انقلاب صدام حسين على احمد حسن بكر
- ٢١- ١٩٨٠ - ١٩٨٨ الحرب العراقية الإيرانية ٨ سنوات
- ٢٢- ١٩٩٠ - ١٩٩١ احتلال الكويت ٦ سنوات
- ٢٣- ١٩٩١ حرب العراق مع أمريكا وحلفائها
- ٢٤- ١٩٩١ الانتفاضة وقمعها

## الفيدرالية والقضية الكردية:

مادامت حلول القضية في الوقت الحاضر تنحصر في إطار دولة العراق وسيادته لوجود الظروف الذاتية والموضوعية والإقليمية، يجب البحث عن معيار يتم بموجبه إخماد النيران ووقف المذبحة المستمرة، وخلق أرضية صلبة لعدم تكرار الكوارث والقتل الجماعي، سواء كان هذا المعيار في صيغة الحكم الذاتي أو الاتحاد الطوعي (الاختياري) أو الحل الفيدرالي.. أو غيرها من الحلول بشرط أن يمثل الإصطلاح جوهر الموضوع ومضمونه، وأن لا يكون شكلاً كارتونياً عديم الفحوى والمضمون، وبالتالي تترجع الحلول وتنفجر المشكلة مرة ثانية.

إن أفضل معيار لحل هذه القضية الشائكة، التي أصبحت سبباً في تردي أوضاع العراق ومصدراً لجلب الكوارث والحروب إليه، هو أن تكون الآلية التطبيقية والإدارية مضمونة لتمتع الشعب الكردستاني بحقوقه وحياته الأساسية أولاً وأن يضمن أيضاً الأسس الديمقراطية في العراق، دون مداخلات تعسفية من السلطة المركزية من شأنها إضعاف تلك الحقوق وتسييرها وتميعها.. ويمكن القول بأن المعارضة العراقية بجميع اتجاهاتها والقادة الأكراد سواء كانوا أفراداً أو أحزاباً، لم يفهموا بشكل واضح مضمون الحكم الذاتي أو الاتحاد الاختياري أو مضمون الفيدرالية والنظم السياسية الأخرى.. ولم يحددوا الفوارق الأساسية بينها.. ولكي يتضح الأمر بشكل جلي، أود أن أعرج على هذا الموضوع وبشكل مختصر في النقاط التالية:

أولاً: إن الحكم الذاتي مصطلح من مصطلحات القانون الدستوري، جوهره يتعلق بالمضامين الحقوقية لا بالآليات التطبيقية والصيغ الإدارية، وكذلك الاتحاد الاختياري وفق الأسس المتفق.. أما الفيدرالية فهي نظام خاص بآلية تطبيق تلك المضامين، وإن الخطأ الكبير الذي وقع فيه القادة الأكراد هو اعتبار الفيدرالية أعلى درجة وأوسع حقوقاً من الحكم الذاتي وبالتالي أفضل مطلب..!! لكن هذا هو مفهوم خاطئ وقاتل أيضاً وكان بإمكانهم أن يطالبوا ويرفعوا شعار الحكم الذاتي وبالصفة الفيدرالية.. وأقصد أن يكون مضمون الحق هو الحكم الذاتي وآلية التطبيق هي الفيدرالية.. لأن الحكم الذاتي كاصطلاح قانوني ودستوري، يعني أن يحكم الشعب أو الجماعة البشرية الأثنية أو الدينية أو المذهبية نفسها بنفسها دون تدخل السلطة المركزية، إلا في حدود النقاط المحددة التي تتعلق بأركان السيادة.. كما أن ميثاق الأمم المتحدة قد حدد الأقاليم المشمولة بالحكم الذاتي أو الانتداب والوصاية بشرط أن تكون ذات خصائص قومية أو

دينية.. أما الفيدرالية كنظام سياسي وإداري فإنها تطبق وفق جميع الظروف، وهي بالأساس وسيلة لتخفيف العبء الإداري والمالي على كاهل الحكومة المركزية وضمان مشاركة الشعب في العملية الديمقراطية وتوسيع قاعدتها الهرمية. ولم تأت لحل القضايا القومية فقط حسب ما يذهب إليه بعض الأوساط السياسية.

والامثلة كثيرة بهذا الصدد، فمثلاً النظام الفيدرالي في أمريكا وألمانيا لم يأت لحل القضية القومية هناك بل إنه طبق وفق مضمون إداري وسياسي... أما النظام الإداري في كندا فهو نظام فيدرالي نو مضمون إداري بخصوص عموم دولة كندا وذو مضمون حكم ذاتي وكألية نظامية لمقاطعة (كيبك) ذات الخصائص القومية المختلفة عن المقاطعات الأخرى.

إلا أن التشويه المفضيع الذي أحدثه نظام صدام حول الحكم الذاتي ونموذج الكارتوني قد خلق صورة ضبابية ومشوهة للحكم الذاتي لدى الجميع، في حين أن النموذج الأقرب لمضمونه الحقوقي والدستوري هو نموذج الحكم الذاتي الفلسطيني والذي أخذ طريقه إلى التطبيق رغم كونه حكماً ذاتياً محدوداً.. حيث جرت انتخابات تشريعية وانتخاب الزعيم الفلسطيني رئيساً للسلطة... وبإمكان هذه السلطة إجراء اتفاقيات اقتصادية وسياسية مع جميع دول العالم واللقاء مع قادة الدول وفق التقاليد الدبلوماسية.. وقد اضطرت الأحزاب الكردستانية في مرحلة من المراحل إلى المطالبة بالحكم الذاتي الحقيقي والغرض من هذا الاصطلاح الجديد هو وضع حد لتشويهات نظام صدام حول مضمون هذا النظام.

ثانياً: هنا سؤال يفرض نفسه بقوة: ماهو مضمون الحكم الذاتي؟ الجواب: وفق القواعد القانونية، أن المطلق يأخذ على إطلاقه ولا اجتهاد في مورد النص... فللحكم الذاتي معيار أساسي لا يمكن الخروج عنه بأي شكل من الأشكال وهو: تحقيق الهدف الذي جاء من أجله.. فإذا كانت القضية قومية وهي محل نزاع وتم اختيار صيغة الحكم الذاتي لأجل حلها، فيجب أن يتمتع أبناء تلك القومية بالحقوق والحريات الأساسية مثل باقي الشعوب... كما أن تطبيق تلك المضامين يحتاج إلى ضمانات دستورية وقانونية تضمن تمتع ذلك الشعب بتلك الحريات والحقوق دون تدخل السلطة المركزية... كما أن العواثيق الدولية قد حددت تلك الحقوق والحريات بشكل واضح.. ويمكن ذكرها بالشكل الآتي:

١- اعتراف السلطة المركزية بالهوية القومية للشعب الآخر وتثبيت ذلك دستورياً.

٢- تحديد الإقليم المشمول بالحكم الذاتي جغرافياً وفق المعايير المعتمدة، ومنها الغالبية السكانية أو المعالم التاريخية الجغرافية والحضارية للشعب.

٢- تحديد الصلاحيات التشريعية والتنفيذية والقضائية وتأهيل تلك السلطات بتشريع القوانين الإقليمية وتطبيقها بما يساعد الشعب على تطوير نفسه في جميع المجالات، وأن يكون حراً في إنماء نفسه اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً وإحياء تراثه الحضاري.

٤- وضع حدود دستورية فاصلة بين الصلاحيات المركزية والإقليمية بشكل واضح ودقيق تلافياً لتنازع السلطات والقوانين.

٥- تشكيل محكمة دستورية للنظر في تنازع القوانين المركزية والإقليمية.

أما إذا كانت آلية التنفيذ والتطبيق بالصيغة الفيدرالية فيكون الأمر ملائماً بشكل أفضل... فلتطبيق الآلية الفيدرالية في عموم العراق على أساس المضامين الإدارية.. وفي كردستان على أساس الحكم الذاتي والحقوق القومية.. وبهذه الطريقة فإن القضايا المالية والميزانية ونظام البلديات تحل بشكل أسلم وخاصة القضية الديمقراطية التي تعتبر ضرورية للعراق.. لأنها تنزل إلى المجالس المحلية في المحافظات والوحدات الفيدرالية. ويرجع في العراق قانون غير مطبق صدر سنة ١٩٦٤ يسمى قانون المحافظات.. إلا أن نظام صدام حسين قد عدله وغيره وفق مفهوم النظام.

إن الفهم الخاطيء قد أوقع أوساطاً كثيرة من المعارضة العراقية، خاصة التيار القومي والإسلامي، باتخاذ مواقف معارضة ومتحفظة للصيغة الفيدرالية.. وتصوروا بأن الفيدرالية هي امتداد للانفصال!! ولكن العكس هو الصحيح فإن الآلية الفيدرالية تعني الاتحاد والدمج بين جزئين: أما الحكم الذاتي وهو استثناء الجزء من الكل والانسلاخ عنه بشروط معينة... والاستثناء والانسلاخ طريقتان لأبتعاد الجزء عن قرارات الكل مع ضمان استقلال قرارات الجزء عن المداخلات المركزية، وفق احكام الدستور.

وقد وقع الاستاذ صباح الجزلثري في نفس الخطأ عندما أكد بأن رفع شعار الفيدرالية سابق لأوانه ويسبب تفكك المعارضة (رغم أن الأخيرة مفككة بذاتها لا لهذا السبب، وإنما لأسباب ذاتية وموضوعية أخرى...)

وفي الختامؤكد بأن العراق لا يصبح مهداً لأبنائه، إلا بحل القضية الكردية حلاً سليماً وعادلاً ووفق مشيئة هذا الشعب.. وإلا فإن جميع المؤشرات تشير إلى أن الزمر العسكرية المنشقة عن نظام صدام هي الآن في دورة تأهيلية لدى الاستخبارات المركزية الأمريكية وبمجرد انتهاء الدورة سوف تكون البديل المحقق لنظام صدام، فتبقى جميع الأوضاع على أحوالها.. وسوف أكون مع الزميل صباح الجزلثري من المعارضين للنظام الجديد.. ويمكن أن نقول أن قدرنا أن نظل معارضين.

## نحو ترقية الخطاب وتدقيق الاشكاليات

د. صالح ياسر

شهدت السنوات الأخيرة إحتدام الصراع الأيديولوجي والمعارك الفكرية المصاحبة حول جملة من القضايا، بالرغم من «التنظيرات» الرائجة حول نهاية الأيديولوجيا ونهاية التاريخ. وقد انعكس ذلك على نشاط الحزب والصعوبات التي واجهته في صراعاته المتعددة الصعد، بإبعادها المحلية وامتداداتها الإقليمية وتشعباتها الدولية. وألقت تلك الوقائع والصعوبات بثقلها على الحزب، وأعباء إضافية عليه، وعرقلت تبلور ونضوج جهوده لترقية خطابه السياسي وممارساته الملموسة. لقد أعاق ذلك الجهود التي بذلت لصياغة خطاب قادر على الإجابة على أسئلة الواقع وكذا تعبئة القوى للتصدي للهجوم الأيديولوجي البالغ التنوع والحدة.

يتعين علينا، إذن، مواجهة الصعوبات التي يعاني منها خطابنا الراهن لمواجهة مباشرة داخل دائرة الاشكاليات التاريخية والسياسية الملموسة. ويستحث ذلك فتح الأفق أمام مناقشة ثرية تصب في مسعى البحث الجاد عن إمكانات تطوير خطاب الحزب، وبما يمكن من تدقيق أسئلته القديمة وبلورة أسئلة جديدة، وتحفيز مناظلي الحزب والمشتغلين على الجبهة الفكرية للتفكير ومحاولة الإجابة عليها، لكي يكون خطاب الحزب محصلة العقل الجماعي قولاً وفعلاً. وحسنأ فعلت قيادة الحزب في طرحها لصيغة «الموضوعات السياسية الفكرية» باعتبارها مدخلاً للنقاش، معولة على أن الموضوعات بما تحتويه من تحاليل واستنتاجات واجتهادات ستشكل منطلقاً لنقاش على مستوى

الحزب كله، مما سيؤدي في نهاية المطاف إلى إثراء تلك الموضوعات وإغنائها بتحليل واستنتاجات رفاق الحزب. إن ترقية خطاب الحزب وإثراء خطه السياسي يستتبع تركيز المناقشة على توليفه محددة من الاشكاليات. آخذاً بنظر الاعتبار ضيق المساحة المخصصة ساركنز على ثلاث إشكاليات، اعتقد أنها أساسية.

### إشكالية البدائل المطروحة

يتعين التأكيد، في مناقشة هذه الاشكالية، على أن هناك بدائل متنوعة «تتصارع»، وهناك إستراتيجيات عديدة للتغيير في العراق تطرح وتصاغ «وتطبخ على نار هادئة». ولكن مهما تنوعت تلك البدائل وتعددت استراتيجيات تجاوز الوضع الراهن فإنها تظل تدور بين مشروعين وإستراتيجيتين كبيرتين ومتصادمتين وبديلين أساسيين: بديل وطني ديمقراطي وبديل ديكتاتوري - بيروقراطي سلطوي معطل، يقدم لنا بطبعات مختلفة.

إن هذه الحقيقة، على بساطتها، تستتبع ضرورة تركيز الجهود لإجراء تحاليل أكثر عمقاً لإشكالية البدائل، التي تطرح بحدة اليوم. ويستتبع ذلك ضرورة التعامل معها بمزيد من الدقة والفحص المتأن والمعالجة المركبة. ويعني ذلك حتى بين أمور عديدة ضرورة القراءة الصحاح وتفكيك الخطابات المطروحة، والكشف عن المشترك والمختلف فيها. وهناك ضرورة وحاجة ملحة لتحليل الاستراتيجيات الإقليمية ورؤية مستقبل بلادنا في ضوءها. لنعترف بأن التحليل الاستراتيجي في حزيننا ظل لفترة طويلة من قبيل الترف النظر، لأسباب معروفة، لا مجال للخوض فيها، مما ألقى بثقله على تبلور تحاليل متماسكة للعديد من القضايا. ويتعين إستخلاص الاستنتاجات المطلوبة من ذلك، وتنمية وترقية الجهود نحو تحقيق نجاحات فعلية في هذا المجال.

إن القضية التي تحتاج إلى عناية كبيرة من طرف قيادة الحزب هو الوضوح والمزيد من الوضوح بصدد العديد من المشاريع المطروحة، التي تسعى وتكافح وتروج أساساً لإجراء تغيير شكلي / فوقي، يروم في الواقع إجراء تغيير في النظام وليس تغيير النظام. والأمر ليس لعبة مصطلحات، بل أن القضية مفهومة!، ولهذا فإن المهمة المطروحة على صغوبتها ومحدداتها الكثيرة، تتمثل بالسعي الدؤوب والمتواصل للترويج إلى خلق الأرضية الفعلية لتبلور المشروع الوطني الديمقراطي، والبحث الدؤوب عن قواه المشتتة والسعي لتجميعها في إطار محددة. إن هذه الأطروحة لا تحني

طبعاً الانغلاق على الذات بل يتعين السعي الدائب للتعلم ولتحقيق مزاوجة مرنة بين الموقف والنضال الدائم لتحقيق مشروعنا، وبين التعبير عن موقفنا من المشاريع الأخرى، ومعرفتها عن كثب، ومن دون تحميل أنفسنا بالتزام أو شروط ملزمة أو الدخول في صيغ لم تتضج معالمها بعد.

يتعين التأكيد، في خطابنا، على حقيقة أن عملية تكون وتبلور القوى القادرة على الاطاحة بالنظام الديكتاتوري هي عملية بالغة التعقيد والصعوبة. ولهذا يتعين علينا أن نلعب دورنا الثابت، غير المتأثر بالصعوبات والضغوطات المتنوعة، والمناورات الاستفزازية، ونركز جهودنا على القضايا الأكثر وضوحاً ونضوجاً. وفي قلب هذه المهام ينبغي مواصلة النقاش والتحاور حول أهمية وضرورة البديل الوطني الديمقراطي. الأساس في هذا النقاش أن البديل المذكور هو الحل الوحيد القادر على إخراج بلادنا من أزمتها البنوية بأقل التكاليف. ولهذا فإن نقاشاتنا يجب أن تتركز على السعي للإجابة على عديد من الأسئلة، من بينها:

- \* ماهي الظروف الموضوعية والذاتية لتحقيق هذا البديل؟
- \* ماهي الأسباب الفعلية التي حالت، حتى هذه اللحظة، دون نشوء التحالف الوطني الديمقراطي؟
- \* ماهي الوسائل الكفيلة ببلورة الأشكال التنظيمية للتحالف المذكور؟
- \* كيف يوفق الحزب بين موقفه المستقل وبين تحالفاته المتعددة الصيغ والأشكال، وكيف يعبر عن تمايزه ووجهه الطبقي/ السياسي المستقل في التحالفات والنشاطات المشتركة. ومن المهم التأكيد على أن هذا التمايز لا ينبغي أن يكون هدفاً بحد ذاته، لأنه عندما يصبح كذلك فإنه سيشكل خطراً سيقود إلى الانعزال. فالتمايز المذكور يجب أن يقتصر بالنشاط الدؤوب الذي لا يكل من أجل الوحدة.
- والخلاصة ينبغي أن ينصب جهدنا الفكري على الترويج للبديل الوطني الديمقراطي وتوضيح أسسه الفكرية والسياسية.

هناك ضرورة تطرح نفسها بالحاح لرفض الخطاب التبسيطى الاديماغوجي بصدد أزمة حركة المعارضة وقواها، والتسلح بعدة نظرية وسياسية تمكننا من إخراج ملاحظتنا من السجال بالبيانات، إلى نقد الممارسات الفعلية. كما تكشف عن نفسها ومن دون غطاء إيديولوجي يحجبها. إن الرفض أو التباطؤ من قبل بغض القوى في إقامة الحلف المعادي للديكتاتورية مرتبط في العديد من جوانبه بأنشداد يتعاطم باستمرار إلى

الخارج والمراهنة على خيارات إقليمية ودولية الأبعاد، تروج لبدائل ممكنة التحقيق تحت حراب خارجية.

إن التأكيد على البديل الوطني الديمقراطي والترويج له يمكن أن يفتح الطريق والأفق أمام تبلور القوى المطلوبة لانضاج أو لإنجاز الشروط لحل وطني / شعبي / ديمقراطي مقاوم للديكتاتورية من جهة ولكل المخططات والخيارات البونابارتية — الديكتاتورية — السلطوية الخارجية من تحت معطف الامبريالية الأمريكية وحلفائها، والرامية ليس إلى حل جذري للأزمة البنيوية الراهنة في بلادنا، بل إستخدامها كأداة، من ضمن أدوات عدة، لاعادة ترتيب الأوضاع الجيوسياسية الإقليمية بأبعادها العالمية.

### إشكالية الديمقراطية وكيف نفهمها

يجري الآن، تحت ضغط حراب الخطاب الليبرالي الجديد وهجوم مؤسساته ذات النشاط الدولي، الترويج لتصورات معينة للديمقراطية، هي التي يجب أن تسود. وتحت ضغط هجوم أيديولوجي جارفي يجري عرض هذا النموذج وكأنه الوحيد ولا خيار غيره أمام المجتمعات المختلفة. ولهذا فإن الحزب، أمام هذا الهجوم الصახب والعاصف، بحاجة ماسة لتدقيق مواقفه وتوضيح رؤياه لإشكالية الديمقراطية إنطلاقاً من سؤال حاسم: الديمقراطية لماذا ولمصلحة من؟

إرتباطاً بذلك فنحن ملزمون بتبني وخوض صراع فكري من أجل توضيح القضية الحاسمة المتمثلة في أن الهدف الأكثر ديمقراطية، في اللحظة الراهنة، لا يتمثل في الدفاع عن المصالح الضيقة والأناية لبعض القوى الطامحة نحو السلطة أساساً، والتي تلتقي معها بشكل تلقائي النوايا الانتقامية لشخصيات من داخل النظام أو خارجه، ساخطة عليه لا بسبب عدائها الجذري له، بل لأسباب تكتيكية معروفة. إن الهدف الأكثر ديمقراطية بالنسبة لنا يجب أن يتمثل في الدفاع الصبور والثابت عن المصالح الوطنية والديمقراطية لمجتمعنا المكتوي بثار الديكتاتورية وآثامها، والبحث عن حلول تصب في طريق التقدم العام لشعبنا ومستقبله الديمقراطي. ويعني كل ذلك أن نصوغ ونطور مفهوماً محدداً للديمقراطية، يسمح لنا أن نتمايز ونتعارض بكل وضوح مع تصورات عن الديمقراطية تحصلها الاتجاهات المختلفة، بما في ذلك الاتجاهات الليبرالية تحديداً. بمعنى أن المطلوب هنا هو أن يصوغ الحزب وي طرح تصوراً ومفهوماً محدداً للديمقراطية، التي يجب أن تكون مشحونة بكل محتوياتها الاجتماعية، حاملة في طياتها



مجموع الظروف والشروط المادية والروحية للناس عموماً وللقنات والقوى الاجتماعية التي اكدت بنار الديكتاتورية وحروبها ومصائبها المتنوعة، ديمقراطية تضمن، على وجه الخصوص، التقدم والازدهار العام للمجتمع وتحقيق قدر معقول من العدالة الاجتماعية.

لهذا فانه يتعين على الحزب أن لا ينظر الى إشكالية الحريات الديمقراطية (وبمعنى اوسع — الديمقراطية السياسية) وكأنها مسألة قائمة بحد ذاتها، مستقلة عن الديمقراطية الاجتماعية. إن موقفنا وفهمنا للديمقراطية السياسية يجب أن يعبر عنه بكل وضوح وصرامة، بالتأكيد على أن الديمقراطية السياسية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالعملية العامة لتطور المجتمع بأبعادها الاجتماعية المختلفة. وهكذا فان هناك مهمة ملحة تطرح نفسها على عملنا، في الجبهة الفكرية الساخنة، وتمثل بضرورة الكفاح الدائب ضد خطر تضبيب الرؤية بخصوص الخط الفاصل بين ديمقراطية مشحونة بكل الأبعاد الاجتماعية والمضامين الثرة لها، وبين «ديمقراطية» مفصولة الجذور عن الواقع الاجتماعي لبلادنا، وتلاوينه ومعضلاته الفعلية، وتناقضاته الملموسة. إضافة لذلك يجب التأكيد على حقيقة أخرى هي الأطروحة المضللة التي يروج لها الخطاب الليبرالي الجديد والتي تلح على مساواة الديمقراطية بالرأسمالية باعتبارها شرطها الوحيد. إن طرْحاً كهذا انما يقوم على محاجة إيديولوجية صارخة، تتجاهل خصوصيات مجتمع معين.

لا يستطيع المرء أن يطرح وصفات جاهزة لتحل محل الجدال الديمقراطي بصدد هذه القضايا، غير أنه يتعين الإشارة الى أن حل اشكاليات القبول بديمقراطية سياسية ضمن منطق وسيرورات علاقات الانتاج الرأسمالية تحديداً إنما تعني ضرورة أو اشتراط القبول بالتنمية الرأسمالية بكل نتائجها الحتمية، بما في ذلك الاستقطاب الاجتماعي الحاد. وكما تشير التجربة التاريخية خلال العقود الأخيرة في مناطق مختلفة من «العالم الثالث» فان المشاريع التي قدمتها القوى التي ربطت بين ديمقراطية المجتمع ورسملة المتعاطفة كشرط للتطور، قد أدت الى تحديث الديكتاتوريات وتقديمها وكأنها حامي الديمقراطية، بعد إجراء تعديلات في أشكال ممارسة السلطة مع الإبقاء على الجوهر دون تعديل. كما اقترن ذلك بتعظيم التبعية والتخلف والاستغلال بدل التنمية والاستقلال، وتفاقم الاستقطاب الاجتماعي بدل تحقيق العدالة الاجتماعية.

## إشكالية الأزمة البنيوية الراهنة وكيفية تحليلها،

## وتحديد طبيعة السلطة

إنه لا مرهم التأكيد على أهمية المحاولة المثبتة في «الموضوعات» لتحديد طبيعة السلطة وإبراز التغيرات والتحولات الحاصلة فيها. وأهمية هذه المحاولة تنبع من حقيقة أن تحديد طبيعة السلطة يمثل نقطة البداية والمنطلق لجهد الحزب نحو صياغة إستراتيجيته وتكتيكاته في اللحظة الملموسة.

تنتقل «الموضوعات» من الاجتهاد في إبراز أن «التحديد السابق لطبيعة السلطة بكونها برجوازية بيروقراطية وطفيلية، أقامت دكتاتورية من نمط فاشي شمولي» (٠٠٠) يتطلب الانغاء والتدقيق في ضوء التغيرات التي طرأت على السلطة». ويعني ذلك تحديداً مسعى الحزب وقيادته «لاستفزاز» الجميع للنقاش حول إشكالية جوهرية ولكنها بالغة التعقيد. إذا أخذنا بنظر الاعتبار التغيرات التي شخصتها «الموضوعات» بالتفصيل وربطناها بالتحديد السابق لطبيعة السلطة أمكننا أن نتساءل: هل تؤثر «التغيرات التي طرأت على السلطة» على تحديد طبيعتها بكونها «برجوازية بيروقراطية وطفيلية، أقامت دكتاتورية من نمط فاشي شمولي»، أي هل أنها مازالت تحمل نفس التسمية أم لا؟ وإذا لم تعد تحمل هذه التسمية ماذا عساها أن تكون؟

ثمة، إذن، ضرورة لتدقيق وتعميق تحليل الحزب بسبب طبيعة النظام، وتجاوز تلك التحاليل المتعجلة أو الشعبوية والاستنتاجات غير العميقة للطبيعة الفعلية للنظام، وملاحظة التمايزات الفعلية الحاصلة في بناء الاقتصادية، والسياسية، والفكرية، بنتيجة تأثير توليفة واسعة من العوامل، وبسبب حروبه الداخلية والخارجية، وأخيراً الحصار الاقتصادي وما ترتب عليه من آثار مدمرة عطلت السيورة الاجتماعية ومنعتها من أن تتبلور وتأخذ وجهتها الصحيحة باتجاه انفجار تلك الأزمة البنيوية والمتعددة الصعد.

يستحث كل ذلك، إذن، ضرورة اعتماد منهجية تعتمد مقارنة تمر على مختلف مستويات التشكيل الاجتماعي الراهن وتشخيص العضلات الفعلية لكل مستوى. لقد شهدت الفترة المنصرمة تركيز الجهود لانتاج معرفة عن أحد المستويات دون إعطاء المستويات الأخرى أهميتها ووزنها المحدد في التحليل.

إن تحليلاً متماسكاً للتشكيل السائد في بلادنا في لحظة الملموسة، يستحث مقارنة مركبة إذن، تسمح بدفع هذا التحليل إلى نهايته المنطقية عن طريق إبراز تلك الرابطة

الجدلية بين هذه المستويات والكشف عن التناقض الرئيسي ولحظاته المتوترة، بما يسمح بتحديد الحلقة المركزية، وبالتالي تحديد القوى القادرة على حل هذا التناقض أو التأثير فيه بشكل إيجابي.

إن هذه المقاربة المنهجية تستلزم ضرورة إثارة الأسئلة حول العديد من الصياغات والمفاهيم غير الدقيقة السائدة في خطابنا الراهن، وبيان عدم قدرتها على إنتاج معرفة متكاملة ومركبة حول التناقضات الفعلية الناعمة لمختلف مستويات التشكيل الاجتماعي. لقد لاحظنا خلال السنوات الأخيرة، على سبيل المثال، استخداماً مكثفاً لمفهوم «الطغمة» لوصف الوضع في بلادنا، ومعاينة التمايزات في بنية النظام بهدف إنتاج معرفة أدق تساعد في تدقيق سياساتنا وبلورة مواقفنا. غير أنه من المفيد الإشارة إلى أن هذا المفهوم الملتبس يثير تساؤلات منهجية حادة، أهمها مدى مشروعيتها في وصف «الوضع الملغوس» وقدرته على الإجابة على سؤال حاسم: لماذا مازال النظام يمتلك القدرة على المناورة بالرغم من أنه صار معزولاً وتبلور في «طغمة»؟ ونفس الأمر ينطبق على مفهوم «العائلة الحاكمة». هناك العديد من الأسطة التي يمكن طرحها، والتي تستحث ضرورة البحث عن إجابات معقدة، واعتماد منهجية تستخدم وتنتج مفاهيم واستخدام مقولات تعكس ثراء الواقع الاجتماعي بمستوياته المتنوعة وتناقضاته الفعلية، ومن دون أن تساهم في تضبيب الرؤية.

حين إنتقلنا إلى صفوف المعارضة في أواخر السبعينات إعتد الحزب في تحليلاته للنظام آنذاك مفهوم «البرجوازية البيروقراطية»، من دون إعداد نظري مسبق لذلك التحول، لوصف طبيعة السلطة والقوة القائدة لها. ثم جرى تطوير وتعميق هذا التحليل والسمي لإبراز الائتلاف الذي نشأ وتوطد آنذاك بين البرجوازية البيروقراطية والطغمية كفتتين سائدتين في هذا الائتلافه وبذلك حصل تطور نظري ملحوظ، بالرغم من الملاحظات التي طرحت آنذاك، غير أن تعمق أزمة النظام وحروبه الداخلية والخارجية، وتنامي مديات القمع وضلّالة موارده المالية والحصار الاقتصادي وما ترتب عليه من نتائج مدمرة، كلها بمجموعها قلصت من الامكانيات الفعلية للرهان على الآليات «العادية» لاعادة إنتاج النظام بمستوياته المتعددة واللجوء المتعاضم إلى «طابق القمع» كوسيلة حاسمة ومجربة لانجاز الوظيفة هذه. إن هذا التحول في الأشكال وفي مستويات إعادة إنتاج النظام دفعت قيادة الحزب إلى التخلي عن أو إهمال تلك المفاهيم والمقولات والارتكان إلى مفاهيم من قبيل «الطغمة» أو «العائلة الحاكمة»... الخ لوصف طبيعة

النظام، التي لم تتغير جوهرياً بل «إغتنت» بمظاهر وتجليات جديدة من حيث أشكال الممارسة وترتيب الأولويات وميكانيزمات الممارسة. هكذا، إذن، وفي لحظة معينة وقع تحريف لمداول التصحيح النظري الذي بدأه الحزب في أواخر السبعينات، عبر استخدام المفاهيم السابقة، واليوم تعود «الموضوعات» إلى مفاهيم «البرجوازية والبيروقراطية» و «البرجوازية الطفيلية».

إن الملاحظات السابقة تدل على أن التفكير النظري لحزبنا كان ولا يزال يشق طريقه عبر مصاعب منهجية عديدة، متارجحاً باستمرار بين منهجية «كلاسيكية» تعتمد مقارنة غير جدلية لطبيعة المرحلة التي يمر بها الاقتصاد والمجتمع العراقي وبين منهجية أخرى تريد أن تؤسس إشكالياتها وأسئلتها على مقارنة متعددة الصُّعد للواقع بمستوياته المتنوعة، واعتماد منظومة من المقولات والمفاهيم القادرة على عكس هذا الواقع بدقة وصياغته نظرياً بمزيد من العمق والوضوح، كي يمكن العمل على تغييره. ولهذا فإن هناك حاجة ماسة لتحليل متماسك يعتمد المنهج المادي بتاريخيته وجدليته ومفاهيمه المفتاحية لإنتاج معرفة صحيحة عن الواقع العراقي ومستوياته الاقتصادية، السياسية، الفكرية، وبيان التحولات الفعلية التي نشأت في بنية نسيجه الاجتماعي والتميزات الحاصلة كذلك.

والخلاصة فإن ترقية خطاب الحزب وإثراء خطه السياسي بشكل متواصل وإغناؤه يجب أن تكون مهمة الجميع وليس مسؤولية هيئاته القيادية فقط. ويعلق المرء آمالاً كبيرة على المؤتمر الوطني السادس ليكون محطة جديدة نوعية، ومنبراً لنقاشات ثرية، إنتقادية، تكون محصلتها النهائية إنتاج خطاب وبناء خط سياسي ورسم سياسة محددة، تسمح جميعها بالتغلب النهائي على أزمة الحزب وتفعيل نشاطه وزيادة فاعليته ليكون بحق أحد المكونات الأساسية للمشهد السياسي المضطرب في بلادنا. إن الحزب أمام رهان كبير، وتقع على الجميع مسؤولية بلورة وعي متوقد، يكون قادراً على الإمساك بالجمرات الحقيقية للواقع، والإجابة على الأسئلة التي تواجهنا على مستوى التفكير والممارسة. فهل ينجح المؤتمر الوطني السادس في تحقيق الانعطاف المطلوب؟ سؤال يرسم الإجابة.

حزيران ١٩٩٦

## التحالفات السياسية واشكالية الديمقراطية

د. مؤيد عبد الستار

إن التحالف، والاحلاف، تكتيك حربي قديم، اضطر اليه الضعفاء غالباً لمواجهة عدو مكين عسى أن يتغلبوا عليه، لأنهم على يقين من عدم امكانهم الانتصار عليه فرادى، بسبب قلة العدد أو المال أو السلاح. ومن أشهر التحالفات التاريخية في الاسلام، تحالف قبائل الاوس والخزرج ضد قبيلة قريش ذات الجاه والنقوذ والسلطان، ومن ثم تحالف المسلمين واليهود (بني قريظة) ضد تحالف القبائل العربية التي زحفت على المدينة لقتال المسلمين. ويعود تحالف الصعاليك الى تاريخ اقدم من ذلك، يوم جمعهم عروة بن الورد تحت رايته ليقا تل بهم الاغنياء ويسلب اموالهم ويوزعها على أتباعه بسبب فلسفة انسانية آمن بها، واتكأ على تقليد بدوي شائع ألا وهو الكرم الذي كان يحتم عليه بذل ما في يده كي يبرز أقرانه من رؤساء عشائر وأمرأء ليسير بذكره الشعراء وهو القائل:

**أقسم جسمي في جسوم كثيرة وأحسوا قراح الماء والماء بارد**

واشتهر في التاريخ الحديث تحالف الدول الأوروبية ضد دول المحور، فكان أن اقتصر الحلفاء، ولم يكن يحصل لو حاربوها دولا منفردة، ويشذ عن هذه القاعدة التحالف الاخير الذي قاده الولايات المتحدة ضد العراق، تحالف الأقوياء ضد شعب أعزل تحت امرة حاكم متواطئ، أراد ا لة الدمار كي لا تقوم له قائمة في المستقبل من أجل ضمان مصالحهم النفطية.

وفي تاريخ العراق الحديث كان هناك أكثر من تحالف سواء بين العشائر أو بين

الاحزاب، وقد حقق تحالف العشائر ايان ثورة العشرين نصراً مبيناً على الانجليز، ولكنه كان تحالفاً عشائرياً لا يمكن أن يسير في الشوط الى منتهاه، وأشهر منه تحالف عشائر جنوب العراق الذي كان برئاسة شيخ مشايخ المنتفك مقامس المانع، الذي احتل البصرة وحارب جيش والي العثماني جديد حسن باشا عام ١٧٠٨، وتحالفت معه عشائر شعر والخزاعل وزبيد والمياح وغيرها، وبلغ تعداد رجاله اكثر من مائة الف مقاتل. ف وقعت المعركة الطاحنة بينهم وبين جيش حسن باشا على مقربة من البصرة وانتهت بخسائر جسيمة وانتصار جيش حسن باشا.

أما على مستوى الاحزاب، قلدينا تجربة جبهة الاتحاد الوطني التي تحد الممهدة لانتصار ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨. كما اشتهر اثر الثورة شعار سياسي يكشف الحاجة الى التحالف، وهو: على صخرة الاتحاد العربي الكردي تنهار المؤامرات الاستعمارية، وهو الامر الذي حرصت القوى الاستعمارية على عدم تحقيقه ابداً.

أما التحالفات التي تمت بعد فشل ثورة تموز فاغلبها لم يحقق المرجو منه ولم تنهض التحالفات على ارض صلبة فكان مالها جميعاً الى زوال. فكثر الهزائم حتى أكت الامور الى ضياع البلاد، وما زالت امامنا قائمة طويلة من الخسائر، سندفعها باستمرار مادامنا لم نحسم امرنا ولم نقرر الوقوف معاً تجاه عدو تصعب مواجهته دون عدة وعدد.

ولاحظت أن السياسة التحالفية للحزب الشيوعي العراقي كانت على الدوام تحالفات هشة، لا تقوى على مواجهة الواقع الذي يفرضه الاعداء. ولا بأس أن استشهد بالباحث الاجتماعي الكبير علي الوردي الذي استنتج قبل ما يقرب من عشرين عاماً نتيجة هامة لها علاقة بالتحالفات التي يعقدها شيوخ العشائر لمواجهة عدو مشترك والذي أورده في كتابه «لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث» الجزء الأول، الذي نشر قبل ربع قرن، يقول الوردي «من طبيعة العشائريين أن اتفاهم مؤقت وتنازعهم دائم، فاذا اتيج لهم ان يتفقوا على امر ما، وينالوا فيه انتصاراً، فسرعان ما يختلفون فيه ويتنازعون بعد نيل الانتصار، وهم بذلك لا يستطيعون ان يؤسسوا لانفسهم كيانا سياسياً ثابتاً. فهل ياترى أن لحزبنا مازالت عشائرية في تحالفاتها؟ ورغبة في الاختصار ساجمل بعض الافكار في نقاط محددة كي تكون أسهل على النظر فيها ومناقشتها، وهي:

١- ان عدم التحالف لا يعني الاحتراب وان ح ش ع يستطيع الحفاظ على علاقات جيدة ومتينة مع القوى والاحزاب الاخرى، والتتسيق معها، دون الحاجة الى التحالف مع هذا الحزب أو ذاك، مما قد يسبب له اشكالات هو في غنى عنها. وبناء على ذلك تتضح لنا

أهمية التركيز على التنسيق مع كافة القوى الوطنية والشخصيات المستقلة من أجل إقامة دولة القانون بشروطها الأولية كمرحلة أولى، ومن ثم يتم العمل الدؤوب على تطويرها مستقبلاً إلى دولة ديمقراطية.

بـ أن إقامة صرح سياسي، سواء أكان حزباً أو دولة، بحاجة إلى جهود الجميع، جهود مادية ومعنوية، سياسية وعلمية، تقنية وفنية.. الخ، فالحزب لا ينهض بمن قرا كتاب الأمير لميكافلي، ولا كتاب رأس المال لماركس، ولا حتى القرآن الكريم فقط. الحزب يحتاج إلى كافة المعارف والعلوم، أما إذا ظل مقتصرًا على نخبة من السياسة أصحاب الكلام، الذين يجيدون الاجتماعات، ويتقنون فن طق الحنك، كما يقول أهل الشام، فسيكون مصيره إلى الزوال لا محالة.

وإذا أردنا إقامة دولة لها مكانة بين الأمم، أو حكومة تضطلع بمسؤولية الدولة الحديثة، فلا مناص من أن تساهم في إنشائها معظم الأحزاب والشخصيات العلمية والثقافية، وليس غريباً طلب الصهيونية من انشأتين تولي رئاسة دولة إسرائيل عام ١٩٥٢ م. أن الاحتراب من أجل الوصول إلى سدة الحكم لا يعني إقامة دولة أو حكومة، لأن الحزب الذي سيصل إلى كرسي الحكم وحده، سيجد نفسه في مواجهة الجميع، وهذا بالضبط ما حصل مع سلطة الحزب الحاكم ببغداد، وسيحصل مع غيره إذا سار على مثل هذا النهج، فالיום نجد نحو مائة حزب وتنظيم عراقي في صراع مع الحزب الحاكم ومازال الحبل على الجرار.

بسبب المناخ السياسي العالمي وفشل نظام الحزب الواحد اثر تفكك الاتحاد السوفيتي، سارعت بعض الأحزاب إلى تبني الديمقراطية، وظهرت تشكيلات متعددة تحسب نفسها ديمقراطية في الوقت الذي لا تتقن فيه الممارسة الديمقراطية، كما نشأت واجهات لأحزاب اتخذت أسماء ولافتات ديمقراطية كذباً.

إن الاحتكام إلى الاقتراع، وممارسة حق الانتخاب، واتباع الأساليب الديمقراطية، مفخرة تدل على الرقي الحضاري رغم كل النواقص السلبية في هذه الممارسة. إلا أن اللجوء إلى الخداع والاحتيال في تشكيل واجهات ديمقراطية لأحزاب ومنظمات تستفيد منها كواجهات تمرر أهدافها سيكون سلاحاً ذا حدين وسيكون شديد الضرر في المستقبل على أية منظمة تمارس وتسلك هذا السلوك، وستخسر ثقة الجماهير التي ستجد نفسها يوماً قد وثقت بمن لا يستحق الثقة. فهناك أحزاب تدعى إلى الديمقراطية في الحياة السياسية، وأحزاب أخرى وتجمعات تعد نفسها ممثلة للقوى الديمقراطية، ومن

الليدبيهي أن الحزب الذي يؤمن بتداول السلطة، ويوافق على أن يصل إلى الحكم أي حزب آخر يختلف معه وفق برامج الانتخابات ونظام التصويت، ذلك هو الحزب الديمقراطي، ولذلك لا نستطيع أن نعد الكثير من الأحزاب الإسلامية التي تعمل من أجل إقامة حكم إسلامي ثابت، لحزباً ديمقراطياً، لأنها حددت بذلك افق الاختلاف معها، ورسمت شكل الحكم الذي تريده هي ولا تقبل بغيره، رغم الادعاء بأن الشورى كانت ممارسة إسلامية ديمقراطية. فالشورى شأن داخلي في هذه الحالة لا يمارسها من كان خارج الحزب الإسلامي، ولا يبرر نهجها. إن الغالبية من المواطنين مسلمون، لأنه وفق هذا التبرير يحق لأي حزب مسيحي في البلدان الأوروبية مثلاً أن يشكل حكومة مسيحية ولا يسمح لغيره أن يشكل حكومة مختلفة يدعوى أن الغالبية فيها من المسيحيين. وهذا ما سيجعل أي حزب مثل هذا خارج اللعبة الديمقراطية التي وصل من خلالها إلى الحكم، وهي التي تسمح بتبادل المواقع في الحكم والمعارضة لمدة زمنية متفق عليها. فما دام من حقه أن تحكم، يجب أن أحصل على نفس الحق في أن أعترض عليك، والعكس بالعكس.

إن هذا الكلام ينطبق على الأحزاب الشيوعية أيضاً إذا كانت تدعو إلى إقامة حكومة الحزب الواحد أو الحكم الشيوعي المطلق وعدم التخلي عن السلطة حال الوصول إليها، طبعاً بالطرق السلمية والديمقراطية. هنا تنتفي صفة الديمقراطية عن الحزب الشيوعي، أما إذا كان الحزب الشيوعي يسعى إلى تطبيق برنامجه للعدة المحددة له في الحكم، ويسمح بإجراء الانتخابات المقررة في الدستور ويقبل التخلي عن الحكم سلمياً لمصلحة الحزب أو الجهة المنتخبة، حين ذاك نستطيع القول إن الحزب الشيوعي ينهج نهجاً ديمقراطياً، وذلك ينطبق على الأحزاب الإسلامية أيضاً.

المؤسف أن بعض الأحزاب تعمل وفق مبدأ الغاية تبرر الوسيلة، وتتخلى حال استلامها أية سلطة عن كل ما يربطها بالنهج الديمقراطي الذي تلتحق لحافه، وتسعى إلى الالتفاف والتحايل على الأساليب الديمقراطية بحجة أن الديمقراطية تسمح بذلك، ساعية بحماس إلى استغلال كل ثغرة في الأساليب الديمقراطية لاغتتيال الديمقراطية بدلاً من السعي للبحث عن ما يقوم الممارسة الديمقراطية ويجعلها حالة نزيهة. وهذا ما نلمسه باستمرار في أبسط انتخابات لمنظمات عامة وجمعيات اجتماعية أو ثقافية بسيطة، بله تلك التنظيمات التي حصلت على سلطة بسيطة يوماً في كردستان أو اليمن، ناهيك بطبيعة الحال عن الحكومة العراقية التي طرحت مراراً مسألة المشاركة بالحكم والتعددية السياسية زوراً وبهتاناً.



وليس من باب الادعاء أن هناك اشكالية واضحة بين الحزب الشيوعي العراقي والمعنيين بالفكر والثقافة، لم تكن فيما مضى بهذه الحدة، شخّص جانباً منها الحزب في الوثيقة المنشورة صفحة ٢٩، إذ جاء فيها «وعلى الصعيد الفكري ظلت قلة الكادر المختص المؤهل المحيط بالهيئات القيادية ولجان الاختصاص، وضعف استجابة المعنيين... في مقدمة العوامل التي عرقلت توجه الحزب نحو تنشيط العمل الفكري...».

ونحن نعلم أن انحسار النشاط الفكري للحزب سببه ابتعاد العديد من الكوادر العلمية والثقافية عن دائرة الحزب السياسية بسبب الكثير من المفاهيم والممارسات المغلوطة لاجنحة مختلفة في الحزب، وحتى رابطة الكتاب والفنانين العراقيين والتي كانت إطاراً عاماً للمفكرين العراقيين الذين يقفون على ضفاف الحزب أو قرب شواطئه، أصبحت أثراً بعد عين، ولا بد أن لذلك أسباباً ليس الكاتب أو الفنان هو المسؤول الوحيد عنها. ويمثل بعض أعضاء الحزب الذين كانوا سابقاً أعضاء في الرابطة نماذج غريبة في توجهاتها كشفت فيما بعد عن ضعف ارتباطها بمبادئها إذ انتظم بعضهم في مؤسسات اعلامية تابعة ومرتبطة بجهات ودول يصعب الانسجام مع اهدافها، حتى اضطر باحث معروف مثل مادي العلوي أن يطالب علناً بطرد هؤلاء من صفوف الحزب، هذا ان كانوا مايوزلون اعضاءه ولا يخفي ما لمثل هذه الممارسات من اثر في سوء المثال، وابتعاد الآخرين عن المراكز التي يحتلها هؤلاء، خاصة وأنهم يسرحون ويمرحون على كافة الجبهات السياسية، وتجدهم في مقدمة المدعويين في كافة المهرجانات التي تنظم من قبل الهيئات القريبة من الحزب، من الشام إلى لندن، ومن باريس إلى برلين.

هذا أولاً، والسبب الآخر في ابتعاد الكادر الثقافي والعلمي عن الحزب، هو تبوء بعض المسؤولين الذين لا نصيب لهم في الثقافة والعلم مراكز قيادية في منظمات الداخل أو الخارج، اضافة إلى أن الازمة الحقيقية ليست الخلاف مع الكاتب الفلاني أو المفكر العلاني، وإنما تكون في العلاقة الديمقراطية مع الثقافة، إذ أن الكثير من المنظمين في صفوف الحزب يمارس سلوكاً عشائرياً مع الثقافة، فكل من في الحزب على حق، وكل من خارج الحزب مشكوك في امره، ولهذا ذهب جهد الكثير من الكتاب والمفكرين الى سلة الاهمال والنسيان، وتشجعت العلاقة بين بعضهم وبين هيئات الحزب، ومسؤوليه.

إن الأخذ بعين الاعتبار جهد الجميع واعتباره ملكاً للشعب والبلاد هو المنفذ الذي تنفذ منه الثقافة والعلوم الى رحاب الوطن وبالتالي يمكن اقامة علاقة ديمقراطية مع الثقافة.

## مناقشة لأراء الرفيق عادل حبه في

الموضوعات وملاحظات حولها<sup>(١)</sup>

## موسى الدجيلي

حسناً فعلت قيادة حشع بطرحها موضوعات أساسية للنقاش على أعضاء وجماهير الحزب. فقبل عام ١٩٩٠، جرت العادة على توزيع تقارير مصادق عليها وما على أعضاء الحزب الا تنفيذها أو تبريرها، وفي أحسن الأحوال نقدها، ولكن بعد فوات الأوان، أن النهج الجديد يوفر الفرصة لمؤازري الحزب وأعضائه للمساهمة بصياغة سياسية وطنية قريبة من نبض الشارع، ويتيح لهم الفرصة للمساهمة في الترويج لها وتطبيقها.

تضمنت الوثيقة موضوعات جديدة للنقاش، غير أنني سأركز على جوانب أساسية منها، هي طبيعة السلطة والخلاص من الديكتاتورية، دور العاملين الداخلي والدولي في ذلك، الحصار الاقتصادي والعقوبات الدولية، سياستنا العالمية، والوضع الدولي والعربي، ومبعث هذا التركيز — يعود من بين أسباب أخرى — إلى أن نقاشاً بل صراعاً حاداً يدور في أوساط الشيوعيين، وداخل المعارضة العراقية أيضاً، حول دور التحالف الغربي، وأمريكا تحديداً، في التغيير المزعوم للطغمة الديكتاتورية، وما يثيره هذا الأمر من تشوش ومخاطر جدية على مستقبل البلاد والبديل الوطني الديمقراطي الذي أزعّم أنه الخيار الأفضل لتجاوز أزمة العراق المستفحلة.

وتظراً لأن وجهة ملاحظات الرفيق عادل حبه (ث ج، عدد ٢٧١) هي التخناغم والتوافق مع العامل الدولي «بعيداً عن روح المجابهة مع القوى الإقليمية والدولية، على

حد تعبيره أراني أميل الى تناول الوثيقة وملاحظاته حولها انطلاقاً من العام الى الخاص، لأن ذلك يجسّد بشكل أفضل وجهة التناغم والتوافق المذكورة.

### أولاً: بصدد الوضع الدولي

يتراءى لي أن الوثيقة قد شخصت بصواب السمات الأساسية لتطوره، غير أن ذلك لا يعني أن الوثيقة أصابت دائماً، مما يستدعي التدقيق والتصويب وهنا ما قام به الرقيق حبه وغيره مشكورين. فهو يقول (ص ٢١): «وفي الميدان الدولي مازالت الوثيقة مشدودة لأجواء الحرب الباردة...» و«يجب أن نخرج من إطار الحرب الباردة أي كل مايتخذهُ الاتحاد السوفييتي ثقف الى جانبه وكل ما تقوم به الولايات المتحدة ثقف ضده». وهنا اعلن اتفاقي مع بصدد الفقرة الأخيرة ولكنني اتساءل: هل أن مواقفنا الى جانب السوفييت أو ضد امريكا كانت دائماً غير صحيحة أو غير مشروعة أو مثحازة فقط للسوفييت؟ أو لم تكن في كثير من الأحيان مواقف أممية صحيحة تدافع عن دول أو شعوب أو مصالح وطنية حقيقية أذكر منها: الدفاع عن الجمهورية العراقية الفتية، مساندة قرار تأميم السويس وضد العدوان الثلاثي على مصر، الموقف من حربي عام ٦٧ و٧٢، ودعم نضال الشعب العربي الفلسطيني، ومساندة كوبا وغيرها؟ وهناك مواقف خاطئة أيضاً للسوفييت دافعنا عنها مما يستحق التصويب.

ولنناقش الآن ما أشار اليه الرقيق حبه من أن الوثيقة تطرح جانباً من سمات الوضع الدولي وتترك الآخر. وبصدد الجانب الأول يشير بصواب الى أن انتهاء الحرب الباردة أزال شبح الرعب النووي، ومنظومة حرب النجوم، ومخاطر النزاعات الخطيرة (مثل جنوب افريقيا وانغولا ونيكاراغوا والسلفادور والحرب العراقية الايرانية). وهنا أجد أن اكمال المحاجة الموضوعية قبل توجيه النقد مطلوب وعلى أساس تناول صحيح لمسؤولية طريقي الحرب الباردة عن انتاج وتخزين وانتشار واستعمال هذه الأسلحة الفتاكة، واشعال الحروب والنزاعات وخلق بؤر التوتر، إضافة الى استعراض الجهود التي بذلت من قبل مختلف الاطراف للقضاء عليها محلياً ودولياً. والحال أن قراءة متمعة للامر توصلنا لاستنتاج مفاده أن امريكا هي البلد الوحيد الذي استعمل هذه الأسلحة، وهي وراء برنامج حرب النجوم ومساندة نظام جنوب افريقيا العنصري مع بريطانيا واسرائيل والمانيا الغربية، إضافة الى دورها باشعال حروب انغولا وموزمبيق ونيكارغوا، والتغاضي عن امتناع اسرائيل عن الخضوع لاشراف لجنة الطاقة النووية،

ناهيك عن إجبارها على توقيع معاهدة حظر انتشار الأسلحة النووية. أما بصدد الحرب العراقية الإيرانية، فلا أدري أن أمكن حساب نهايتها ضمن فترة انتهاء الحرب الباردة، ولكنني أنبه إلى الدوافع الحقيقية وراء إشعال الديكتاتورية لها، وتبرعها بالتصدي للثورة الشعبية في إيران حينذاك، وسياسة الاحتواء المزدوج الأمريكية لإيران والعراق، ودور ذلك في استمرارها وتصعيدها ناهيك عن المساهمة الخليجية الكبرى في تمويلها، ومساهمة الغرب المتميزة في تسليح الطرفين، إضافة إلى مساهمة المعسكر الاشتراكي بالتسليح أيضاً، غير أن دُوكه لاسيما السوفييت، والحق يقال، لعبت دوراً بارزاً في الجهود المخلصة لوقفها بالتعاون مع دول محايدة أوروبية وأخرى وقوى محبة للسلام.

يشخص الكاتب بصواب الحملة على العراق اثر غزوه الكويت ضمن النزاعات الجديدة (وفاته أن يذكر اجتياح غرينادا وبنما) التي اندلعت بعد انتهاء الحرب الباردة... غير أنه ابتعد عن الواقع بقوله: «ولكن ينبغي التأكيد على أنه بالرغم من مأسيتها فهي أقل خطورة على السلم والأمن في العالم من النزاعات السابقة بالتاكيد» ص ٣٠.

وهنا لا أود الخوض بتفاصيل الحشد العسكري الهائل الذي قام به التحالف الغربي وما رافقه من جهد سياسي ودبلوماسي مسعور، والدمار الشامل الذي أوقعه بالعراق (متخطياً مهمة تحرير الكويت)، ولكنني فقط أتساءل: ألم يكن ممكناً أن تستخدم الديكتاتورية أسلحة الإبادة الجماعية؟ (وقد صار معروفاً مرض ١٥ ألف جندي أمريكي جراء تدمير مخزن لهذه الأسلحة قرب الناصرية) وكم يا ترى تعرّض من أبناء العراق وبيئته لمثل هذه الأمراض جراء تدمير آلاف الأطنان منها على يد فرق التفيتش، أو لم يتسرب إلينا خبر التهديد الأمريكي للنظام باستعمال الأسلحة النووية؟ ألم يكن ممكناً أن تفلح الديكتاتورية في جرّ إسرائيل للحرب؟ وماذا كان يمكن أن يكون الرد وقتذاك؟ ألم يكن ممكناً لدول التحالف الانتظار بعض الوقت لافساح المجال للجهود الدبلوماسية بدل الاصرار على الحل العسكري؟ ولكن الأهم من كل ذلك هو ما ترتب على تلك الحرب بالنسبة لشعبنا ولعالمنا العربي، فعراقنا جائع، ممزق، معزول عن الحياة العربية والعالمية، أعيد إلى العصر ما قبل الصناعي، يفتقر إلى إمكانيات واقعية لتنمية اقتصادية اجتماعية مستقبلاً. أما بصدد العالم العربي فإن ما يجري فيه من مصادرة للديمقراطية وحقوق الإنسان، وتسليح ونهب للموارد، وتعزيز هيمنة الامبريالية واسرائيل عليه، ناهيك عما يرافق عملية السلام المزعومة من مذابح واجحاف بحق الشعب الفلسطيني،

واعتداءات متكررة على لبنان، وتجاوز على الشرعية الدولية، وترويج للمشروع الشرق أوسطي سيء الصيت، أن كل ذلك لم يكن ليحدث ويتعمق لولا كارثة الخليج الثانية التي ساهم صدام ببذنها وتحصّنت أمريكا الفرصة لاكمال فصولها المريعة. وهذا كله يفتح الباب لتوتر وتصعيد وربما حرب جديدة في الشرق العربي.

وفي إشارة غامضة الى ما يبدو أنه الجانب الآخر من سمات الوضع الدولي (المقصود السمات الايجابية طبعاً) الذي يرى حبه ان الموضوعات اهملته، فهو يشير إلى الموقف من الدول الامبريالية، وتحديداً أمريكا، حيث يقول (ص ٢١): «فقوانين الحرب الباردة انتهت، ولا تتكرر خطبات أمريكا مثلاً في طرد شارلي شابلن بدعوى شيوعيته ولا يقتل الألباء بحجة عدائهم للوطن خاصة في الفترة الستالينية. وهنا لا اود الخوض بمناقشة ما إذا انتهت قوانين الحرب الباردة فعلاً. ولكنني اسوق عدداً من الأمثلة والحوادث أكثر مغزى وتأثيراً مما ضربته الكاتب تشير الى الوجه الكالح لأمريكا (وغيرها) ومساعدها للاستمرار بدور الشرطي العالمي، أبرزها، على سبيل المثال لا الحصر القوانين التي وقّعها كلينتون بمعاقبة الشركات التي تتعامل مع إيران وكوبا وليبيا، والتي استثارت دول الاتحاد الأوروبي وكندا فشرعت باعداد قوانين مضادة، وعلان يلتسين الحرب على الشيشان وقتل وتهجير واعاقه حوالي ٥٠ ألف انسان فيها دون أن يؤثر ذلك على الدعم الغربي المتواصل لهذا «الديمقراطي الأصيل» يلتسين!، وهنا يتوجب أن أشير ناقداً الوثيقة لاهمالها الإشارة لهذه المجزرة في معرض فضحها ليلتسين وبطانته، في حين أشرتُ حادثة قصف البرلمان الروسي على أهميتها والتي راح ضحيتها ما يقرب من ٢٠٠ انسان.

وثمة مسألة جوهرية يجب الإشارة إليها: ترى لماذا تستمر أمريكا وأوروبا الغربية بالابقاء على حلف شمال الأطلسي وتسعى جاهدة الى توسيعه بضم دول البلطيق وشرق أوروبا إليه؟ ألم تنته الحرب الباردة؟ ألم يُحل حلف وارسو؟ اليست روسيا الآن «ديمقراطية»؟ ولماذا يجري استفزاز روسيا، وتعزيز مواقع القوى القومية المتطرفة (وغيرها) ويجري توتير الاجواء والعودة للحرب الباردة واجوائها القاتمة؟ الا يمكن الاكتفاء بآليات مجلس الامن والتعاون الاوربي وتطويرها لتكون أدوات سياسية (مدعمة عسكرياً) تكفي لتوفير الأمن والسلام والتعاون الاوربي ليشمل أوروبا بالكامل بعد أن أضحت الآن ديمقراطية وخالية من البعيب الشيوعي! يبدو أن ذلك غير كاف لأمريكا وللمجمّع الصناعي العسكري الغربي. وفي هذه المسألة الجوهرية لا يخضع الدور

المهيمن لأمريكا لتأثيرات بقية الدول الصناعية، ولا لتأثيرات جماعات الضغط التي تحد من النزعات السلبية لحكوماتها — كما يشير الكاتب. وهنا من حقنا التساؤل: ماذا علمت جماعات الضغط هذه عندما اجتاحت قوات الديكتاتورية مدينة أربيل على مرأى ومسمع قوات التحالف، وضمن حدود منطقة الملاذ الآمن التي فرضتها الهجرة المليونية لشعبنا الكردي جنوب الحدود عام ٩١؟ ومراقبة المناطق الجنوبية للعراق بطائرات قوات التحالف، هل اعاققت قوات النظام عن قمع المواطنين وتجفيف الأهوار وتدمير حياة الناس؟ ثم لماذا تذكر كلينتون بعد ثلاثة أيام ليقوم بمعاقبة شعبنا بضرته الصاروخية جنوباً، وتطبيق تنفيذ قرار ٩٨٦ وكان أهلنا هم الذين اجتاحتوا أربيل؟

وبخصوص ما ذكره الرفيق عندما كانت أمريكا «سباقاً» في وقف الصراع المميت في اليوسنة والهرسك، فلا يسع المرء حقاً إلا أن يقدر أي جهد بناء لوقف نزيف الدم في يوغسلافيا السابقة، وهذا ما وقع فعلاً بعد توقيع اتفاقية دايتون. غير أن ما لا يجب نسيانه الخلاف الأمريكي الأوربي بهذا الصدد. ثم ألم يكن للغرب، والمانيا تحديداً، ضلع كبير بما حدث والتسعير المقصود للمشاعر القومية؟ ألم ينطو ذلك على قدر من النار لما قام به أبطال المقاومة اليوغسلافية ضد الفاشيين الألمان، وأنتقام من الدور الملموس والايجابي الذي لعبته يوغسلافيا في مجموعة عدم الانحياز؟ انها أسئلة لا تقلل طبعاً من حجم الثغرات والمصاعب الجدية التي انطوى عليها الاتحاد اليوغسلافي بالتعامل مع القضية القومية وقضية الديمقراطية. ألم يكن الثمن الذي دفعته شعوب يوغسلافيا جميعها باهظاً جداً؟ وإذا كان المعيار في تحديد الموقف تجاه هذه القضية أو تلك هو مصلحة شعبنا دون اطلاق، وذلك صحيح، فان مصلحة شعبنا تكمن حقاً في حل سلمي ديمقراطي لقضية الصومال يصون وحدته وسيادته ويمكن أن يكون في إطار عربي بعيداً عن التدخل الأمريكي. ثم لماذا لم يجر الاكتفاء بدور الامم المتحدة العسكري والسياسي؟ فهذا هو ما أرادته المؤتمر الخامس بقراره حول الصومال.

أما تقييم الوثيقة للتطورات في الحركة العمالية والاشتراكية في العالم، فاني حين أتفق مع نقد الرفيق حبه بصورة عامة، وتحديداً لتقييم الوثيقة غير الدقيق والموثق للتغيرات في برامج وبنية الاحزاب الشيوعية في البلدان الاشتراكية سابقاً، فأضحي أكثرها (بولونيا، المجر مثلاً) أحزاباً اشتراكية — ديمقراطية تقف على يمين مثيلاتها (في السويد وفنلندا مثلاً)، أرى أن الوثيقة قللت من شأن يلتسين وقوى التيار الليبرالي في روسيا وامكانياته في التحالف، مدعماً من الغرب والصهيونية العالمية، غير أن الأهم من

ذلك أن الوثيقة لم تشخص الأخطاء الكبيرة التي مازال الشيوعيون هناك يرتكبونها سواء منها مراجعتهم القاصرة لاختطاء وجرائم سابقة، أو ازواجية وتباين خطابهم السياسي في الداخل والخارج، تحالفهم مع قوى قومية وستالينية متطرفة وموقفهم المنسم بالشوفينية تجاه القضية الشيشانية، ضعف تقديرهم لتوق الشعوب السوفيتية والشعب الروسي للديمقراطية جراء الاستبداد السابق ثم ضعف مبادرتهم تجاه قوى وشخصيات يمكن أيجاد لغة مشتركة معها مثل ياغلينسكي وليبيد، غير أن ذلك لا يقلل من شأن النقد الموجه ليلتسين وصلاحياته التي تقرب من صلاحيات فرعون على حد تعبير زوغانوف، وانفراده وتحكمه بأجهزة الاعلام، ومن حجم الدعم الهائل الذي تلقاه من الغرب ولاسيما امريكا تمشيناً للدور الذي يقوم به في بيع روسيا بالمزاد، وتدمير فرصة تنمية اقتصادية رأسمالية ولكن مستقلة فيها، بعيداً عن نهج الليبرالية الاقتصادية المنفلتة تطبيقاً لنصائح صندوق النقد الدولي وغيره. ولكن مايجب تدقيقه أيضاً هو أن سياسات الانفتاح والاصلاح في هذه الدول لم تفضل بالمطلق كما أشارت الوثيقة (ص ٤١) وإنما تواجه مصاعب ومقاومة كبيرة.

ان ما حاولت الوصول اليه من خلال هذه المحاوره هو انني استشف من ملاحظات الرفيق حبه مسعى لاعادة تقييم الاستراتيجية الامريكية والغربية عموماً في المنطقة، يتعامل معها وكأنها تعبر عن مصالح طارئة فرضتها أجواء الحرب الباردة فقط، مسعى ينطوي على التهوين من مخاطر هذه الاستراتيجية ونواياها العدوانية تجاه شعوبنا، بل يذهب الى اكثر من ذلك بأشارة غير مباشرة الى ما معناه انها تستهدف مساعدة شعبنا، وهذا ما ساوضح عكسه في بقية الفقرات، دون توثيق وتدقيق، وذلك نهج ضار وخاطيء وخطير يجب التنبه اليه والتوعية فيه عن طريق الحوار الهادئ والبناء.

### ثانياً: بصدد الوضع العربي

وجدت في الموضوعات تشخيصاً واضحاً ودقيقاً، تعوزه التفاصيل الضرورية ولكنه يستحق التقدير، لابرز مفاسل الوضع والتطورات فيه وأفاقه التي بدت كالكحة، ولكنها واقعية لم تخل من تحديد بعض المهمات على عاتق القوى العربية للخروج من المازق الذي نعيشه. غير أن الكاتب يلح على ضرورة الاشارة لبعض المكاسب والانجازات، ولو انها بسيطة ومقننة كما يؤكد نفسه. ويشير محقاً الى بعض التطورات الديمقراطية في بعض البلدان العربية، وظهور موجة وغي ديمقراطي، أن القضية الاخيرة

تحتاج فعلاً لمزيد من المتابعة والتفكير بالوسائل الممكنة لانجازها، ويتراءى لي أن خير من يستطيع تنشيط موجة وعي ديمقراطي مؤصل في عالمنا العربي، إضافة إلى الأحزاب الديمقراطية والقومية واليسارية، هم العلماء والادباء والباحثون والفنانون، وذلك من خلال تشكيل وتطوير منظماتهم، والعمل على تنسيق جهودهم على نطاق العالم العربي، ولاشك أن البدء بالتعاون بين المعاهد والجامعات ومراكز البحوث والدراسات في العالم العربي هو الخطوة الضرورية على هذا الطريق.

غير أن ما وددت مناقشته هو ما ذكره الكاتب من بعض التحسن في الأداء الاقتصادي لبعض الدول العربية، وتحسن الخدمات الطبية والصحية والاجتماعية وخاصة في البلدان العربية ذات المدخلات العالية.

إن تأشير تحسن الأداء الاقتصادي والخدمي اعلاه يجب أن يستند لدراسات اقتصادية جادة على نطاق كل بلد عربي، وعلى نطاق العالم العربي، تعتمد الممكن والمحقق، الموظف من أموال وجهود/ وحجم الانتاج ومعدل الانتاجية، بالاستناد إلى مستوى التطور والأداء الاقتصادي الحالي مقارنة بفترة ماضية، وكذلك بالمقارنة مع نماذج للتطور وتجارب اقتصادية ناجحة سواء في العالم الرأسمالي المتطور أو في بعض اطرافه المختلفة (أقطار جنوب شرق آسيا مثلاً) وواقع الحال. وحسب دراسات ينشر عنها مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت والتقرير الاقتصادي العربي المشترك، يشير الواقع إلى تواضع أدائها الاقتصادي، باستخدام المعايير السابقة، وتخلفنا عن ملاحقة الثورة العلمية التكنولوجية، وتعمق تبعيتنا للقائلة، ناهيك عن ثغرة خطيرة تمس الجماهير الشعبية التي تفسر معنى وجودنا، وتتمثل بالفقر ونقص الأمن الغذائي العربي. وللتذكير فقط أشير إلى أن العراق أنفق، خلال السبعينات، موارد هائلة ضمن ما أسماه «التنمية الانفجارية» والتي حققت فعلاً نتائج كبيرة على صعيد التصنيع وتحديث نسبي للزراعة وتطوير الهياكل الارتكازية وتحسين العديد من الخدمات. ولكن السؤال هو: كم يتناسب ما تحقق مع حجم الانفاق؟ ألم يكن ممكناً تحقيق ضعفه أو أكثر وببنفس كمية الاستثمارات لو أحسن اختيار المشاريع وطرق الانجاز ونظم الانتاج، وطرق الادارة الكفوءة، وتوزيع عقلاني للمشاريع بين القطاع العام والخاص<sup>(٢)</sup>. . . الخ إن هذه الوجهة العامة — تنطبق حسب بعض النشرات العربية — على كل أو أكثر الاقتصادات العربية وخاصة منها النفطية. وبهذا الصدد فأت الكاتب أن يذكر بحجم العجز في ميزانيات هذه الدول وهي من أغنى دول العالم، ناهيك عن تفسير هذا العجز.



أن حزبنا بحاجة حقاً إلى التعاون مع كل القوى والمؤسسات والمراكز العربية التي تتصدى في هذا الظرف العصيب لمشاريع ونهج الليبرالية الاقتصادية ودعوات ومشاريع التخصص، والهجوم على القاطع العام تنفيذاً لتوصيات البنك الدولي وصندوق النقد الدولي. أن هذه المهمة ليست مبررة سياسياً فحسب بل كذلك مبررة اقتصادياً أساساً<sup>(٣)</sup>.

لقد أهملت الوثيقة الإشارة لمطلب حيوي ومشروع لا يبرر التداعي العربي الحالي نسيانه، بل على العكس، ألا وهو مطلب الوحدة العربية على أسس ديمقراطية وصيغ سياسية مرنة متدرجة، وكذلك الدعوة لأن تنشط الأحزاب الشيوعية والقومية التقدمية واليسار لإنشاء حركة يسارية ديمقراطية عربية، وضرورة تهني أحزابنا الشيوعية، ومنها حزبنا، لسياسة عربية واضحة ونشيطة تقوم على أساس انتماء غالبية شعبنا للأمة العربية، والتوقف عن الانغمار بسياسات قطرية عقيمة، ناسين ما تخطه أمريكا وإسرائيل للمنطقة وللعالمنا العربي. وفي الوقت الذي أصابت فيه الوثيقة بتشخيص النزعات القطرية، إلا أنها بحاجة لأن تذهب أبعد من ذلك، فنحن بحاجة فعلاً كما أشار الرقيق كريم مروة<sup>(٤)</sup> إلى إعادة نظر بما ورد من فهم خاطئ للبيان الشيوعي من أن البروليتاريا لا وطن لها، (ولا يتعارض ذلك مع أخذ الخصوصية القطرية ومصاعب الوحدة بالاعتبار)، واعتبارنا كما يقول المسألة القومية هي مسألة البرجوازية، مادام الاستقلال السياسي سيؤدي إلى تسليم السلطة للبرجوازية. وكما أشار مروة بصواب فإن المسألة القومية، مسألة الاستقلال والثروة والتنمية والتطور... الخ هي جميعها مسائل مترابطة، وللمطبقة العاملة دور أساسي فيها، ومصالحها الأساسية هي في النضال من أجل حلها. وهنا أذكر أن يكون لحزبنا رؤيا عربية واضحة وإعياً وسياسة وبرنامج عربي واضح هدفه في المحصلة النهائية تحقيق الوحدة العربية على أساس ديمقراطي. فعصرنا هو عصر التكتلات الإقليمية، والمطلوب ليس أقلية على حد تعبير سمير أمين<sup>(٥)</sup> تدرج ضمن العولمة الرأسمالية المتزايدة، العولمة تعيد إنتاج التخلف والتبعية لأقطار الجنوب الفقير، بل أقلية تخدم مصالح شعوبها أساساً وتحقق قدر الامكان من النهب المنفقت لشعوب الأطراف. وعلى هذا الطريق الطويل والمعقد، نساند أي دعوة للتنسيق والتكامل الاقتصادي العربي مادامت تخدم شعوب البلدان العربية.

وفيما يخص الوضع الداخلي تتطوي مقالة الرقيق حبه على عدة نقاط جوهرية في مقدمتها التي اسماها الملاحظات العامة حول الوثيقة وظروف إصدارها وأسعى

لمناقشتها حسب أهميتها. يشير في الفقرة الثالثة منها إلى أن الوثيقة اعتمدت مبدأ الربط المباشر بين الأيديولوجيا والسياسة، ولو اكتفى الباحث بهذه الملاحظة لكننا ربما قد اتفقتنا معه عموماً، خاصة إذا أخذنا بالاعتبار الدور السلبي للأيديولوجيا بتزييف الوعي أو تشويهه، أو حسب ما أشار هو بتكبير الحزب بقواعد ثابتة تتطلبها الأيديولوجيا، الأمر الذي يفقد الحزب مرونة الاستفادة من السياسة كفن الممكنات. غير أنه لم يكتف بذلك، بل يواصل في مسعى لتطوير أطروحته بالتخلي عن الأيديولوجيا باتجاه ينم عن دعوة — كنت أتمنى لو كانت صريحة ومباشرة — لإعادة النظر بالمرجعية الفكرية للحزب. وفي مسعاه لتبرير وجهة نظره هذه، التي يبقى لنا الكاتب الباب بصدها مفتوحاً للتساؤل: ترى بأي منحنى تتم إعادة النظر هذه؟ يقول بالطبع هذا لا يعني التخلي عن المعرفة الإنسانية بكل جوانبها.. الخ الفقرة ص ٢٤. والحال ولكي يكون الحديث موثقاً فإن المؤتمر الوطني الخامس للحزب أشار في وثيقته البرنامجية إلى ما يلي «يصوغ شجع وثيقته البرنامجية استناداً إلى دراسة الواقع الطبقي والقومي والديني للمجتمع العراقي المعاصر والتطورات الجارية فيه، مسترشداً بالماركسية، مستفيداً من سائر التراث الإنساني الاشتراكي، ومستهدفاً تحقيق المصالح الجزرية لشعبنا عمالاً وفلاحين وكسبه ومتغفين، وكل شغيلة اليد والفكر (ص ١٠٠) وعليه فإن تدقيق مرجعية الحزب الأيديولوجية مطروح، ولكن السؤال هو: ياترى بأي اتجاه؟ وما هو القدر الضروري من الربط بين الأيديولوجيا والسياسة؟ ولمصلحة من؟

إن الوثيقة تحدد مرجعية الحزب الفكرية بالماركسية فقط دون اللينينية علماً أن التخلي عن اللينينية لم يكن بسبب ما يقال عن خطئها وقدمها ولكن من كونها تطبيقاً للماركسية على ظروف روسيا. وعليه فإن التأكيد على الماركسية يتيح للحزب فرصة ومرونة واستقلالية أكبر لتحديد هويته الطبقية والوطنية. وهذا لا يتعارض بالطبع مع الاستفادة من التجارب المختلفة لبناء الاشتراكية في مختلف البلدان. إن هذا الاستشهاد يجسد مسعى الحزب لتدقيق وإغناء وتطوير وجهته الفكرية، وهو كما أراه يسعى لتقليل الربط بين السياسة والأيديولوجيا، مما يتيح للحزب مرونة أكبر في مسعاه لتجديد نفسه وإشاعة الديمقراطية في صفوفه. غير أن ذلك شيء ودعوة الحزب إلى التخلي عن هذه المرجعية، أو الدعوة إلى مرجعية انتقائية ربما، أو متعددة أو مختلطة، شيء آخر، حيث يسارع الرفيق حبه للقول (ص ٢٤): «فهناك العديد من الأحزاب التي تدافع في برامجها عن العمال والفلاحين والفئات المعتمدة في مجتمعاتها دون الإشارة إلى تبنيها أي من

التيارات الأيديولوجية». هكذا ودون ذكر الكاتب لواحد منها ومرجعياته عموماً نجده يكمل: «وعلى هذا العنوان تعمل غالبية الأحزاب السياسية في العالم المعاصر... إلخ. إن استرشاد حزبنا بالماركسية ناجم عن قناعة، مازال قائمة، بعلميتها وتاريخيتها، العلمية الناجمة عن دراسة تاريخية لنشوء المجتمع وتطوره وانقسامه الطبقي وصراعه الطبقي، وللتطور الرأسمالي تحديداً والذي تتوجّ على يد ماركس وإنجلز باكتشاف قوانين تطور الرأسمالية ومن ثم الوصول للاستنتاج الأهم ألا وهو كون هذه التشكيلة ليست خالدة، بل هي مرحلة واحدة مؤقتة في سلم التطور الاجتماعي الذي يفتح الباب مشرعاً لتغييرها بالأداة الطبقيّة التي تخلقها الرأسمالية نفسها، الطبقة العاملة وحزبها حامل رسالتها التاريخية للقضاء عليها وإقامة التشكيلة الأكثر إنسانية وديمقراطية: الاشتراكية. والسؤال الآن يتعلق بعمق هذه القناعة بالماركسية كمنهج ونظرية في التحليل على المستويين المادي والاجتماعي، بعد الزلزال الذي عصف بالعالم أواخر الثمانينات. وبالقدر الذي يتعلق الأمر بحزبنا الشيوعي فإنه ومن خلال مؤتمره الخامس، أخذ بالحسبان ما ذكر أعلاه، مازال مقتنعاً بهذه الأداة وهذا المنهج وعلميته، فابقاه مرجعاً ومرشداً له ولم يسد الباب أمام التطورات العلمية والحضارية والإنسانية العالمية ومنجزات الثورة العلمية التكنولوجية، والاستفادة منها لتطوير معرفته العلمية بظروف مجتمعنا العراقي وتطوره. فالوثيقة البرنامجية تقول: «يستلهم الحزب في وضع برنامجه كل ما هو تقدمي في حضارة شعوب وادي الرافدين والحضارة الإنسانية والرصيد النضالي التاريخي لشعبنا العراقي» (ص ١٠).

وإذا كان للرقيق حبه رأي آخر بهذا الصدد فما المانع من عرضه وتوثيقه وتسببيه، خاصة وإن للرقيق تجربة وباعاً طويلاً في العمل الوطني والحزبي، وفي مواقع قيادية في حزبنا؟ إن مثل هذه الدعوة تتطوي حقاً على خطر ضياع الهوية الفكرية والسياسية للحزب، والانزلاق إلى مواقع الاشتراكية... الديمقراطية، التي تعاني الآن من أزمة حادة تعمقت أثر ثقافتها أزمة الرأسمالية العالمية. ولم يساعدنا كثيراً إنهاء التجربة الاشتراكية في أوروبا الشرقية بل ربما العكس، فهي تنفّذ الآن، كما أشارت موضوعات ل.م حشع بصواب، نهج الليبرالية الجديدة، رغم منافاته لمأطرحته في برامجها الانتخابية التي فازت على أساسها، مما يدفع بفئات وشرائح اجتماعية متزايدة إلى هامش السلم الاجتماعي، ويساهم في تسعير حدة الصراع الطبقي في المجتمع ودخل هذه الأحزاب نفسها. وهنا يجدر التنويه بما أنجزته هذه الأحزاب، خصوصاً عندما كانت في السلطة من

مكاسب كبيرة لشعوبها، في مجالات الضمان والخدمات التعليمية والصحية والاجتماعية، وحق العمل، وقد لعبت الطبقة العاملة ونقاباتنا ونضالها داخل هذه الأحزاب وخارجها دوراً كبيراً في ذلك، ولكن يجري الآن للأسف الهجوم عليها وتجاوزها في بعض البلدان الاسكندنافية وفرنسا وألمانيا وإسبانيا على يد قادة الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية أنفسهم. ناهيك عن الأحزاب اليمينية. إن ذلك يستدعي منا، كماركسيين وكحزب شيوعي، إعادة دراسة هذه التجربة للقرن الحالي وخاصة بعد تطورات التسعينات واستخلاص الدروس الضرورية، وهذا ما لم تغفله الوثيقة البرنامجية للحزب عندما أشارت إلى ضرورة الاسترشاد بمبادئ الفكر الاشتراكي الانساني. ومما ينبغي الإشارة إليه هنا أن مخاطر هذا الانزلاق تبقى قائمة حتى يتثبت مرجعنا الفكري ماركسياً، فإن ذلك على أهميته لا يكفي ويجب أن يقترن بصياغة برنامج حزبي وسياسة حزبية يومية واضحة تطبيقاً، والانتباه إلى التصدي لمخاطر مثل هذا الانزلاق، وتلك مهمة ملحة علينا نحن الشيوعيين القيام بها على الدوام.

إن التزام الحزب بالماركسية ووضوح نهجه وسياسته، لا يتعارضان مع إمكانية ضرورة اختيار السياسة والموقف والتكتيكات التي تقتضيها إدارة النضال السياسي اليومي وإقامة مختلف أشكال التعاون والتنسيق وحتى التحالف المؤقت والدائم مع هذا الحزب أو ذاك، واتخاذ هذا المواقف أو ذاك تجاه مختلف الأطراف والدول، على ضوء تطور الأوضاع وميزان القوى السياسي في الطرف الملموس، شريطة أن لا يتعارض ذلك مع استقلالية الحزب، ولا يكون بحال على حساب سيادة واستقلال الوطن ومصصلحة شعبنا وكادحيه. ولنا في هذا المجال تجربة ثرية يحلوها ومرها.

ولا يسع المرء إلا أن يتفق مع الكاتب حين يقول: «علينا كحزب أن نبصر شعبنا بحقيقة الوضع الذي يعيش ونفتش عن أفضل السبل لانتشال البلاد من الورطة». غير أن ذلك يتم من خلال تعريف متواصل لأعضاء حزبنا وأبناء شعبنا بالمطامع والأهداف الآتية والاستراتيجية للدول الاقليمية والامبريالية، وخاصة الاميركية، تجاه شعبنا، والتطورات التي تطرأ على القضية الغراقية.

إن حزبنا ليس معنياً حقاً بالمواجهة والصدام — وهو بهذه الحال — مع أية دولة أو قوة اقليمية أو دولية ما دامت هذه راغبة فعلاً في مساعدته للخروج من أزيمته. غير أننا مضطرون ومن واجبنا قول الحقيقة لشعبنا وفضح ومقاومة السياسات المعادية له من قبل هذا الطرف أو ذاك إننا وجدنا تعارضاً وتصادماً في المصالح آخذين في الاعتبار

التمايز والتعارض بين هذه الدول نفسها وتوظيفه لصالح قضيتنا. فالاساس بالنسبة لنا هو مصلحة شعبنا وكناحيه، ولن يرحمنا التاريخ إن تجاوزنا «الخطوط الحمراء» لمصالح شعبنا تحت أية ذريعة.

### **طبيعة السلطة والخلاص من الديكتاتورية**

ان التشخيص الدقيق لطبيعة السلطة يساهم في تحديد الهدف وتشخيص القوى الاجتماعية الداعمة لها والمراد ضرب مصالحها، والقوى الاجتماعية المراد تعيشتها وحشدها في عملية تصفية الديكتاتورية وجذور الاستبداد. وهنا أود التنويه بجهود قيادة الحزب بهذا المجال، غير أن استمرار الديكتاتورية هذه الفترة الطويلة، واتساع القاعدة الاجتماعية المعادية لها، وبعد كل الكوارث والحماقات التي ارتكبتها، وعزلتها العربية والدولية الواسعة، ربما يؤكد من بين أسباب أخرى معروفة، وجود بعض الخلل والقصور في تشخيصها. وإن كل ما أود أن نتجنبه كحزب هو وضع قوى في صف السلطة. وهي ليست كذلك، أو أن نضع قوى قلقة أو مترددة، ويمكن تحييدها بسهولة، على صف السلطة. أقول ذلك مؤكداً خاصة على الجيش والقوات المسلحة، لأهميتها الاستثنائية في أية مواجهة مقبلة مع الديكتاتورية، ولتجاوز أي خلل أو خطأ مما حدث أثناء انتفاضة آذار المجيدة والمآل المأساوي الذي انتهى إليه.

وهنا لا بد من التذكير بما حققه المؤتمر الخامس من تأكيد على حشد قوى الحزب أساساً في العمق وعلى العامل الداخلي تحديداً وتفعيله، من أجل الخلاص من الديكتاتورية، وقد تمثل ذلك من خلال مجموعة من القرارات والتوجهات بصدد الموقف من العامل الخارجي، والحصار الاقتصادي والعقوبات الدولية. وتقييم نشاط حشع في المؤتمر الوطني العراقي الموحد (مومع) الذي انتهى بالانسحاب منه.

### **الحصار والقرارات الدولية**

لا يخفى على الكثيرين أن الحزب، وبسبب من مصاعبه الذاتية، وضعف المعارضة والهزة العنيفة التي عصفت بالبول الاشتراكية والاتحاد السوفيتي، لم يتصد بالوضوح والقدر الكافيين للعديد من القرارات الدولية التي اتخذت من قبل مجلس الأمن إثر غزو الكويت، وأبرزها قرار ٢٩ تشرين الثاني ١٩٩٠ الذي سمح لقوات التحالف باستخدام كل الوسائل الضرورية لحمل العراق على الانسحاب من الكويت، ناهيك عن قرارات المقاطعة

الاقتصادية، هذه القرارات التي أضحت الآن فعلاً أداة للصيانة الدولية، والتي إلى جانب غيرها جرى التجاوز عليها أثناء حرب «تحرير الكويت» لتتحول إلى حرب تدمير للبنية التحتية الاقتصادية والاجتماعية للعراق وتعطيل الدورة الاقتصادية السلمية للبلاد، والتي لم يعد استمرارها مبرراً بعد توقيع اتفاقية صفوان المذلة، وتدمير أسلحة الدمار الشامل وترسيم الحدود مع الكويت.

ان معيار تقييم القرارات الدولية والمواقف الأمريكية والاقليمية من القضية العراقية هو تعارض أو تطابق هذه القرارات مع مصالح شعبنا، كما أن ذلك يستدعي إماما وتعريفاً بسياسة هذه الدول واستراتيجيتها المرسومة للمنطقة وما يطرأ عليها من تغييرات، ولا أجدني مضطراً للخوض بتفاصيل هذه الاستراتيجية، من نهب لثرواتها، ودعم للأنظمة الاستبدادية والعشائرية والشمولية، وإعاقة الديمقراطية فيها، وإبقائها تابعة متخلفة، تقوية إسرائيل والتحالف معها، تسويق السلام المجحف، والسوق الشرق أوسطية... الخ.

ومن هنا يصبح ضرورياً جداً، لنا نحن الشيوعيين وسائر الوطنيين العراقيين، التدقيق والتحصيص في هذه القرارات، مثلما يحق للغرب ان ينتقي ويدقق. ترى ماهي مصلحة الشعب العراقي بالحصار الاقتصادي والعقوبات الدولية؟ وماهي مصلحته في أن يقطع من موارده ٣٠٪ لصندوق التعويضات في حين تبقى أرصدة العراق في الخارج مجمدة، بينما يجوع ويموت الأطفال والشيوخ؟ وماهي مصلحة العراق والأمة العربية في أن يجري ترسيم الحدود مع الكويت باقتطاع أراضي عراقية وضمها للكويت، أراضي غنية بالنفط، والابقاء المقصود على بؤرة محتلة جديدة للتوتر بين البلدين، ولماذا يدعونا الرفيق حبه للموافقة على كل ذلك؟ وهل أن الموافقة على كل هذه القرارات المجحفة، وهو ما فعلته الديكتاتورية، سيؤدي إلى رفع الحصار والعقوبات الدولية؟ أم أن ذلك مرهون بقرار أمريكي وربما بعد توقيع اتفاقية استسلامية نهائية بين العرب وإسرائيل؟!

لقد استعاد حشع بتدقيق موقفه من الحصار والعقوبات الدولية، بعضاً مما فقدته من رصيد سياسي، بسبب غموض الموقف والتردد الذي دفع من خلاله أن يكون موضوعاً إما مع أمريكا أو مع النظام. والحال أن الكاتب يدعو الحزب للرجوع عن هذا الموقف الصائب (والمطلوب شعبياً)، والمصادقة على قرارات جائرة تستهدف النسيج الاجتماعي لشعبنا وتفتيت بلدنا ومصادرة مستقبل الأجيال المقبلة، بحجة «تجنب المواجهة مع القوى الدولية والاقليمية» متناسياً أن لهذه الدول والجهات مطامع واضحة بالوضع

الراهن، وهي محكومة بمصالح وأطر محددة، باستراتيجية مرسومة يجري تنفيذها خطوة فخطوة. وإذا كان لهذه القرارات من أثر سلبي على الديكتاتورية، فهو هامشي لا يتناسب مطلقاً مع حجم عذابات الشعب.

وإذا كان هناك من يقول أن استمرار هذه العقوبات، يستهدف إسقاط الديكتاتورية، ورغم أنني أستبعد ذلك، مستنداً إلى تاريخ العلاقة بين أمريكا والنظام، والخدمات التي قدمها لأمريكا سواء بضرب المعارضة والحركة الديمقراطية داخلياً أو حربه ضد إيران، واستقدامه الأساطيل الأمريكية (التي تخضع لدول منضبطة على حد قوله) إلى الخليج، وتوفيره الأسواق الضخمة للأسلحة الغربية، وتحالفه مع السعودية والكويت وكل رجعيات المنطقة، وقمعه انتفاضة آذار المجيدة، واذعانه للشروط الأمريكية الآن.. فالديكتاتورية هي وسيلة وهدف في آن بالنسبة لأمريكا. ولكن نفترض فعلاً أن أمريكا تريد إسقاط صدام، ترى ألا تكفي السنوات الست الماضية للتدخل على عكس ذلك؟ ألم يوقف قرار الرئيس بوش الجنرال، شوارزكوف من الاستمرار لمئة ساعة أخرى، كما قال، لتحطيم مركز الطغمة في بغداد؟ ألم يبق متعمداً العمود الفقري لقوات الحرس الجمهوري، ويسمح باستخدام المروحيات والمساعدة اللوجستية لنزح الانتفاضة؟ ألم توافق أمريكا على استمرار الحصار الاقتصادي الدولي على كردستان، وهي (المحررة) من الديكتاتورية؟ ألم تعزف أمريكا عن تقديم الدعم السياسي والمادي للمعارضة العراقية الجادة بإسقاط الديكتاتورية؟ ألم تتدخل غير مرة لشق صفوف المعارضة وتخريب مشاريعها؟ ألم تُهمل متعمدة، تنفيذ قرار ٦٨٨ لحماية المدنيين، في حين تستغل (ويا للمفارقة) لتبرير هجمتها الصاروخية الأخيرة على جنوب البلاد؟ ألم تستمر بالحصار الاقتصادي لتجويع شعبنا العراقي وإذلاله، مما يبعده عن التفكير ناميك عن المساهمة بالنضال السياسي لإسقاط الديكتاتورية؟ ألا يكفي كل ذلك للتدخل على خطل التعويل على المشاريع الأمريكية تجاه العراق، والسعي على العكس لتوحيد الجهود، صوب توضيح حقائق السياسة الأمريكية وهدفها بتفتيت العراق كدولة، ونسف نسيجه الاجتماعي؟ فهنا تلقي الديكتاتورية مع أمريكا من حيث النتائج الفعلية.

وإذا كان هناك حقاً من تصور نظري بأن هناك أهدافاً مشتركة لأمريكا وتحالفها الغربي من جهة والشعب العراقي من جهة أخرى، فإظنه يكون الائتلاف بديل ديمقراطي في العراق، بافتراض أن أمريكا تعشق الديمقراطية، فهي زعيمة العالم الحر، ترى لماذا لا تسعى لتحقيق ذلك وهي القادرة لو أرادت ولديها من الوسائل والقرارات التي اتخذتها

هي؟ لماذا لا يجري تنفيذ القرار ٦٨٨ القاضي بحماية حقوق المدنيين وإجبار النظام على السماح لمقرر الأمم المتحدة المختص بأن دير شتويل بممارسة مهامه بحرية ومنحه تأشيرة الدخول، والاستماع الى المعارضة العراقية على اختلاف تلاوينها، ومطلبها الملح بإجراء انتخابات في العراق تحت إشراف الأمم المتحدة، ولنتخل مؤقتاً، بانتظار نتائج هذه الانتخابات، عن مطلب الشعب العراقي بمحاكمة رأس النظام كمجرم حرب، ولدى الإدارة الأمريكية أطنان من الوثائق التي تدينه (عشر مرات مقارنة بما أنتهك من جرائم إبادة بحق البشر في يوغسلافيا السابقة) غير أن أمريكا، وحلفائها تعلم علم اليقين أن جزر مجنون وبحيرة النفط تقع في العراق وفي قلب العالم العربي وليس في منطقة البلقان... اليس كذلك؟!

وأخيراً أود ابداء بعض الملاحظات حول سياستنا التحالفية وتفسير انسحابنا من موعم للرفيق عادل حبه:

نحن بحاجة حقاً لمراجعة جادة لسياستنا التحالفية، ففي كردستان العراقية، لا بد أن نتأمل بعمق التغيرات الاجتماعية التي طرأت على بنية الحزبين الحاكمين المتقاتلين، خلال السنوات الخمس الأخيرة وماتركه احتكامهم للسلاح وتحالفاتهم الدولية والاقليمية من تأثيرات وتغيرات قد تكون جوهرية على مناهم السياسي وموقفهم من قضية الديمقراطية والعراق كدولة. نحن مطالبون بتشديد فضحنا لخرق حقوق الانسان، وخاصة حقه في الحياة، الذي ضاع بسبب اصرار الحزبين على الاحتكام للسلاح بدل الحوار الحضاري والمصالحة، وربما توصلنا هكذا مراجعة الى تجاوز الأطر والمفاهيم التقليدية للتحالف كالجبهة الكردستانية التي لا مستقبل لها (ولغيرها) بدون السلام وإقامة مؤسسات المجتمع المدني.

وبخصوص المعارضة العراقية، أجد أن أزمته لا تقل خطورة عن أزمة النظام وأزمة العراق، وعليه أرى أن نبادر بحزب شيوعي لاستضافة مائدة مستديرة للمعارضة دون استثناء — وكل من يلبي دعوتنا — تخصص لمناقشة موضوع محدد هو أزمة المعارضة. نبادر نحن فيها بتقديم تصورنا للأزمة ودورنا ومسؤوليتنا فيها. وبدون هكذا تناول، ونقد ذاتي ومراجعة شاملة وصريحة، يبدو الحديث عن تنسيق أو تعاون بعد كل ما تعيش، أمراً عسيراً. وذلك ينسجم مع دعوتنا الى حوار شامل، مما قد يقربنا من شكل للتعاون هو أحوج ما يتطلع اليه شعبنا المظلوم.

إن انسحابنا من المؤتمر الوطني الموحد (موعم) الذي يقوده د. احمد الجلبي أفسرته



في الأمور التالية:

- ١- أن (موعم) مشروع يجسد رغبة العامل الدولي وأمريكا تحديداً، لتوظيف النتائج الكارثية لحرب الخليج، لا لتحقيق بديل وطني ديمقراطي في العراق، بل لبديل مفصل على المقاسات الأمريكية، وبإخراج عراقي وعلى يد قوى هامشية (وأؤكد على كلمة هامشية خلافاً لما يراه الرفيق حبه، من أن التيار اللبرالي في العراق الحالي [ومجموعه أحمد الحلبي جزء ضئيل منه فقط] لو دققنا هو تيار واسع... الخ. فهذه القوى تكاثرت (كالفطر) بعد حرب الكويت، ولغرض ضرب بقايا «لجنة العمل المشترك» التي حضّرت لمؤتمر بيروت عام ١٩٩١. أما التحديد الواقعي لمن هو أساسي وهامشي وأصيل وعميق الجذور والتأثير في الساحة العراقية، فلنتركه للشعب العراقي ليقرر (بعد أن يسمح له العامل الدولي) بانتخابات حرة.
- ٢- أذكر هنا فقط بما تداولته بعض الصحف الأمريكية والبريطانية عن طبيعة المشروع وأهدافه، وتمويل المخابرات الأمريكية له.
- ٣- أن المشروع (اعتمد) وهو في المعارضة، ظاهرة «الحصص»، التي اتحفظ عليها كما فعل الرفيق حبه، ناهيك عن الأجفاف الذي أحاق بالحزب الشيوعي وقبوله حصّة تعادل حصّة ممثل إحدى العشائر الذي ساهم بالمؤتمر.
- ٤- أساء هنا أولاً مع الكثيرين: لماذا نحضر هكذا مؤتمر خصوصاً بعد رفضنا الحضور لمؤتمر فينا؟ ثم أن مساهمتنا فيه تمت على يد هيئة لم تعد، كما أرى، تمتلك شرعية قيادة الحزب، لأنه مضى على انتخابها عام ١٩٨٥ الفترة اللازمة لعقد مؤتمر جديد (الذي حصل عام ١٩٩٢) ولا يخفى ما جرى خلال هذه الفترة من أحداث عظام تستدعي عقد ثلاثة مؤتمرات. وكان على ل.م أن تستفتي القاعدة الحزبية التي قطعت شوطاً كبيراً في التحضير للمؤتمر الخامس وانتخبت مندوبيها اليه.
- ٥- ولكن الأهم من كل ذلك، أن انسحابنا من موعم جاء تنفيذاً لقرار واضح من المؤتمر الخامس، أشار فيه الكثير من المندوبين إلى مخاطر البقاء فيه وما يلحق بالحزب من أذى وثلم لوطينتنا جراء ذلك. علماً أن ل.م استنفدت بمذكراتها إلى موعم كل المقتضيات الضرورية للانسحاب، بعدما أصر قادة موعم (وكيف له غير ذلك!) على القناعة بمحتوى مشروعه السياسي والنفوذ الغربي فيه، وإخفاء مصادر تمويله، والتفرد باتخاذ قراراته. ومما يجدر بالذكر أن انسحابنا تأخر كثيراً حيث تأكل موعم نفسه بعدما كثرت الانسحابات منه.

أما ملابسات تمثيلنا واستبعادنا من لقاء دمشق لقوى المعارضة فهو موضوع آخر، علماً أن من تحفظ على مساهمتنا - مخطئاً - من القوى الإسلامية. ومستضيفي اللقاء أنفسهم قد غادروا موعم أم ممن لم يحضره أصلاً، مما قد لا يخفى على الرفيق حبه. وددت بهذه الملاحظات البحث الجاد عن الحقيقة وعرضها، مساهمة في تدقيق سياسة حزبنا - جنباً إلى جنب مع كل الحريصين ومنهم الرفيق حبه الذي أقدر مساهمته ومقاتلته الجديدة في جريدة الحياة، شاكرًا «الثقافة الجديدة» لتوفيرها هذه الفرصة للحوار، ولي كامل الثقة بقدرة شعبنا وحزبنا على تجاوز المحنة وبناء العراق الديمقراطي المتحرر من الاستبداد والارتهاق والتخلف الذي سببته الديكتاتورية وقوات التحالف الأمبريالي.

ستوكهولم ٢٠/١٠/١٩٩٦

### الهوامش

- (١) انظر «الثقافة الجديدة» العددان ٢٧٠، ٢٧١.
- (٢) القطاع العام والقطاع الخاص في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٩٠ ص ٣٢٧-٣٨٩.
- (٣) انظر «الثقافة الجديدة» العدد ٢٦٢ - دراسة د. صالح حسن ص ٤٠-٤٣.
- (٤) انظر مجلة المستقبل العربي العدد ١٩١ عام ١٩٩٥ ص ٤-١٦.
- (٥) وثائق المؤتمر الوطني الخامس لشع - الوثيقة البرنامجية. ص ١٠٠.

## ايضاح

الرجاء نشر هذا الايضاح في أول عدد يصدر  
من مجلة «الثقافة الجديدة»، مع الشكر الجزيل:

تطرق الاستاذ ثابت حبيب العاني في مقالته المنشورة في مجلتكم الغراء (العدد ٢٧٢، تشرين الاول ١٩٩٦) تحت عنوان «ينبغي صياغة الشعارات التي تبلور حركة جماهيرية واسعة» الى حركة «التيار الديمقراطي» في بريطانيا، طارحاً وجهة نظره حول هذا التيار. ولسنا بصدد مناقشة آراء السيد ثابت العاني ولكن الذي يعيننا تصويره القائل: «ففي المؤتمر الثاني للتيار الديمقراطي جرى فرض ممثلي الحزب الشيوعي والفيلي والاشوري والتجمع الديمقراطي وبدون انتخابات...».

وبهذا الصدد نوضح مايلي:

١- لم يكن هناك أي فرض من أي حزب او تجمع، بل تم الاتفاق بعد نقاش مسهب وصريح حول ضرورة ان يكون للاحزاب والتجمعات والحركات السياسية ممثل في «لجنة التنسيق»، وهم اربعة ممثلين عن التجمع الديمقراطي، الحركة الديمقراطية الاشورية، الحزب الشيوعي، الاتحاد الاشوري العالمي، وليس هناك ممثل للاخوة الاكراد الفيليين كما جاء في المقالة. وتضم اللجنة بالإضافة اليهم سبعة أعضاء آخرين رُشّحوا لعضوية «لجنة التنسيق» ولم يعترض أحد او يتحفظ على ترشيحهم.

٢- من حق أي شخص حضر المؤتمر (وكان مفتوحاً أمام أي عراقي أو عراقية، وأعلن عنه في الصحف) أن يرشح نفسه أو غيره لعضوية «لجنة التنسيق». وهذا من أبسط مبادئ وممارسات الديمقراطية. وكان هذا الحق مضموناً في المؤتمر، بل جرى تشجيع الاخوة الحضور للترشح لعضوية اللجنة.

٣- اقترح بعض الاخوة في الاجتماع الموسع (آب ١٩٩٦) المكرس لمناقشة لائحة الحركة، والذي كان امتداداً للمؤتمر الاول، الغاء الصيغة المتفق عليها سابقاً والمتعلقة بكيفية تمثيل الاحزاب والتجمعات في «لجنة التنسيق» والاكتفاء بالترشيحات الفردية، وبعد نقاش جدي ومسهب طُرح الاقتراح للتصويت وقُبل بفارق ثلاثة أصوات.

٤- بوجدنا التأكيد أن «حركة قوى التيار الديمقراطي في بريطانيا» لا تضع شروطاً معينة للانضمام اليها، وهي مفتوحة امام الراغبين للانضمام اليها والذين يشاطرون الحركة اهدافها وتوجهاتها. ونأمل أن تتضافر جهود كافة الديمقراطيين العراقيين من أجل إقامة عراق ديمقراطي حر. ونحن لا ندعي تمثيل كل القوى والشخصيات الديمقراطية العراقية، وما تشكل الحركة إلا خطوة على طريق بناء التيار الديمقراطي العراقي الاوسع.. وهذه مهمة قد لا تكتمل كافة جوانبها إلا داخل الوطن.

لجنة تنسيق قوى التيار الديمقراطي العراقي

في بريطانيا

١٩٩٦/١١/١

## واقع النظام الملكي وثورة ١٤ تموز

(١ من ٢)

د. حسان عاكف حمودي

كتب الكثير عن ثورة ١٤ تموز وتناولتها بالانتقاد بعض المساهمات في ملف «انطولوجيا الموقف» على صفحات «الثقافة الجديدة». وقبل تناول الثورة، بما لها وما عليها، بودي أن اعرض واقع العهد الملكي، وسوابق زج الجيش في السياسة.

### القوانين والمؤسسات الدستورية البرلمانية

«هل بالامكان - اناشدكم بالله - أن يخرج أحد نائباً مهما كانت منزلته في البلاد ومهما كانت خدماته في الدولة مالم تأت الحكومة وترشحه؟ فاذي أراهن كل شخص يدعي مركزه ووظيفته أن يستقيل الآن ويخرج ونعيد الانتخابات ولا ندخله في قائمة الحكومة، ونرى هل هذا يخرج نائباً؟» نوري السعيد يخاطب النواب/ محاضر مجلس النواب/ الاجتماع الاعتيادي لسنة ١٩٤٣.

تشكل الحياة النيابية إطار ممارسة الشعب سيادته، وقد ظلت هذه الحياة شكلية طيلة العهد الملكي. ويصعب تصور الأمر على صورة مغايرة. فالدولة ذات السيادة المنقوصة اعجز من أن تمثل شعبيها وتحقق طموحاته. فقد ظلت شؤون العراق، منذ تأسيس الدولة العراقية حتى ١٤ تموز ١٩٥٨، تدار من قبل البلاط الملكي والكتل الوزارية الموالية لبريطانيا - وعلى رأسها نوري السعيد - بتوجيه وإدارة من السفارة البريطانية. وخلال الانتداب ظل المندوب السامي البريطاني في العراق هو الحاكم الفعلي للبلاد، وكان

للمستشارين البريطانيين في الوزارات والدوائر العليا في العاصمة وبقية الالوية هيمنة وصفها الشاعر بهذا البيت:

المستشار هو الذي شرب طلا      فعلام يا هذا الوزير تعريد<sup>(١)</sup>

وإذا كان الانتداب قد انتهى من الناحية القانونية عام ١٩٣٢، غير أنه عملياً استمر في قالب جديد ضمن معاهدة ١٩٢٠. وعلى حد تعبير توفيق السويدي أحد ساسة النظام الملكي البارزين «كان كل شيء يأتي ويروح ويبقى ويستمر بقوة الانجليز».

ومع كل هذا يعد اقرار مشروع الدستور وانبثاق مؤسسات تشريعية وتنفيذية وقضائية في الدولة العراقية الجديدة، تطوراً إيجابياً من وجهة النظر التاريخية العامة، قياساً لما كانت عليه الحال قبل ذلك، علماً أن اقاليم العراق، حالها حال الاقاليم العثمانية الاخرى، كانت خاضعة، رسمياً، لاحكام دستور ١٨٧٦ العثماني، وكان للعراقيين ممثلوهم في الدورات الثلاث لمجلس النواب (مجلس المبعوثين) وفي مجلس الاعيان للأعوام ١٨٧٧، ١٩٠٨، ١٩١٢.

ولم يكن انبثاق هذه المؤسسات بمعزل عن نضال العاملين في الحركة الوطنية الاستقلالية في المدن العراقية الرئيسية منذ عام ١٩١٨ ومطالبتهم بالحكم الدستوري البرلماني الى جانب الاستقلال التام<sup>(٢)</sup>.

ويؤكد الواقع الفعلي، على مدى العقود الاربعة من عمر النظام الملكي ان هذه المؤسسات والقوانين ظلت شكلية، ديكوراً يراد به تجميل صورة النظام البوليسي الاستبدادي الذي ساد الجزء الأكبر من تلك الفترة. فالقضايا السياسية تحال، عادة، الى قضاة يخضعون الى تقارير وتوجيهات البوليس السياسي، والسلطة التشريعية خاضعة للسلطة التنفيذية، وتشكل وتحلّ وفق ارادتها. فانتخابات البرلمان معدة سلفاً من قبل البلاط ورئيس الوزراء ووزارة الداخلية. وكان يفرض على المرشحين والنواب تقديم تعهدات خطية مسبقاً بتأييد الحكومة ومساندتها. وفي اوقات كثيرة كان المتصرفون (المحافظون) يستدعون من قبل وزير الداخلية، ويسلمون قوائمه باسماء المرشحين الذين يجب أن يفوزوا. أما السلطة التنفيذية فقد ظل بقاؤها على الدوام مرهوناً بإرادة البلاط الملكي المؤتمر بامر السفارة البريطانية.

### الدستور: «القانون الاساسي العراقي»

اعد مشروع الدستور العراقي لعام ١٩٥٢ في وزارة المستعمرات البريطانية من قبل لجنة جميع اعضائها من الانكليز بضمنهم المعتمد السامي نفس برسي كوكس. وافر الدستور ومجلس تاسيسي عراقي دون تغيير في أي نقطة من نقاطه المهمة<sup>(١)</sup>. ومن المفارقات التاريخية أن يضع الخبراء الانكليز دستور العراق في حين أن مواطنا عراقيا هو محمد امين افندي الزند (بغدادلي محمد امين) كان شارك قبل نصف قرن من ذلك التاريخ في لجنة اعداد الدستور العثماني لعام ١٨٧٦. وقد روعي في الدستور الامور الاساسية التالية:

— المحافظة على جميع المصالح والامتيازات البريطانية، من خلال مراعاة الأسس الواردة في صك الانتداب، وعدم التعارض مع احكام المعاهدة العراقية - البريطانية (ت ١، ١٩٢٢)، التي صاغت تبعية العراق لبريطانيا قانونياً.

— مراعاة صيغة بيعه الملك فيصل لعرش العراق، التي طبخها الانكليز.

— تثبيت الحقوق الاستثنائية للأسرة الهاشمية في العراق.

— تغليب السلطة التنفيذية واضعاف السلطتين التشريعية والقضائية وتحديد صلاحيتهما.

ففيما يخص السلطة التشريعية مثلاً اقر الدستور بنظام المجلسين وبمبدأ التعيين في احدهما، مجلس الاعيان، ثم ساوى في الاختصاص التشريعي بينهما، ولم يقيّد حق الملك في رفضه التصديق على اللوائح القانونية، واناط الدستور حق الفصل في دستورية القوانين بالمحكمة العليا فقط، ونظم هذه المحكمة بطريقة تكون بها تحت نفوذ السلطة التنفيذية.

— سمحت الفقرة الثالثة من المادة ٤٦٦ من الدستور للسلطة التنفيذية بالجوء الى اصدار مراسيم لها قوة القانون في احوال معينة (عطلة البرلمان، للمحافظة على الامن والنظام، لدفع خطر عام...)، مما وفر امكانية للحكومات المتتالية للتحايل على الدستور، لتأخير اصدار ما تريد من قوانين الى عطلة البرلمان، رغم كونه شكلياً مزيفاً، ليتسنى تمريرها دون مناقشة. واصرخ مثال على ذلك القوانين التي اصدرها نوري السعيد عام ١٩٥٤. وفي سنة ١٩٤٢ عدل الدستور في اتجاه يزيد من سلطات السلطة التنفيذية، ومنح الملك سلطة اقالة الوزارة، وهي في النظام البرلماني - الذي يأخذ به دستور ١٩٢٥ - مسؤولة امام مجلس النواب، وليس امام الملك، وكذلك وجوب عرض قرارات مجلس

الوزراء عليه للمصادقة عليها. وفي الواقع العملي كان الدستور معطلاً على الدوام في ما يتعلق بحقوق الشعب السياسية، وتحولت الارادات الملكية الى الدستور الفعلي الذي يجري العمل بموجبيه، وتزخر فترة الحكم الملكي بالقوانين الاستثنائية والاحكام والمجالس العسكرية العرفية التي يتناقض وجودها مع روحية الدستور العراقي.

### **الملك، الصمام الأعلى، البلاط الملكي**

« فهتف الناس ليحيا الملك فيصل ملك العراق، وهمس ابليس في اذن الزمان ليحيا تشرشل ». بهاتين الجملتين لخص الاديب الكبير أمين الريحاني الجهود والتدخلات الحثيثة التي بذلتها سلطات الاحتلال البريطاني للعراق، خصوصاً جهود وزير المستعمرات البريطانية آنذاك تشرشل لتنصيب الحجازي فيصل الاول ملكاً على العراق.. عن طريق مبايعة شكلية، بعد إزالة طلاب العرش المتنافسين من العراقيين وغير العراقيين عن طريقه، خصوصاً طالب النقيب (وزير داخلية الحكومة المؤقتة)، الذي كان يشكل خطراً على فرص نجاح فيصل في العراق. فابعدوه الى جزيرة سيلان خشية ان يقوض خططهم. ومعلوم كيف قام المندوب السامي باعداد مضابط مبايعة الملك التي اسمتها السلطة «تصويता عاماً»، واستحصال توافيق وجهاء واشراف المدن العراقية الرئيسية عليها. وهكذا جاء تنصيب فيصل الاول متعارضاً مع مطالب الحركة الوطنية في وقت مبكر باختيار رئيس الدولة من قبل جمعية تأسيسية منتخبة، وان يكون الحكم مقيداً بمجلس منتخب من اهالي العراق<sup>(٤)</sup>.

لقد أعطى الدستور العراقي صلاحيات كبيرة للملك تمثلت اصلاً في تجاوزها على دور مجلس الأمة، اذ اناط به سلطة تشريعية، الى جانب مجلس الأمة، وجعل صلاحية حل مجلس النواب من صلاحية الملك، وحصر دعوة المجلس الى عقد اجتماعاته به، وليس للمجلس ان يجتمع من غير دعوة الملك ولو اجمع النواب على الاجتماع الا في حالة واحدة، هي حالة عدم دعوته للاجتماع الاعتيادي في موعده المحدد بالدستور (المادة ٢٩).

### **مجلس النواب، الانتخابات والوزارة**

وليس بين العيوب التي كانت محل الشكوى بالنسبة لاوضاع الحكم في العهد الملكي في العراق، ماكان مكشوفاً ومعروفاً مثل تزيف عملية انتخاب النواب... ولعل السبب في ذلك تكرر عمليات التزيف طيلة العهد الملكي، ولأنها كانت تتم في طول العراق وعرضه.



ومن قبل أجهزة لا حصر لها وأشخاص لا حصر لهم» خسران جميل «الحياة النيابية في العراق ١٩٤٦-١٩٢٥».

تألف في العهد الملكي ١٦ مجلساً نيابياً، استكمل واحد منها فقط دورته الاعتيادية وهي أربعة أعوام. وظل أعضاء مجلس النواب والاعيان، منذ تأسيسها عام ١٩٢٥ حتى ١٤ تموز ١٩٥٨، في غالبيتهم من الاقطاعيين وشيوخ العشائر وكبار الملاكين والرأسماليين. هذه الفئات تشكل نسبة ضئيلة من سكان البلاد، هذا في حين لم يدخل المجلس نائب واحد من الفئات الكادحة التي تشكل الغالبية الساحقة. كما حرمت القوانين الاربعة لانتخاب النواب، المرأة من المشاركة في الانتخابات، إذ حصرت حق الترشيح والتصويت بالذكر فقط. وإذ أكد الدستور على «وجوب تمثيل الاقليات المسيحية والموسوية» وحدد قانون انتخاب النواب نسب هذا التمثيل ومناطقه، وهي التفاتة ايجابية، نرى أن الدستور وقانون الانتخاب وتعديلاتهما اللاحقة أهملت أية اشارة لتمثيل الاكراد أو أي من الانتماءات القومية الأخرى بصفتهم القومية.

وفي مناسبات عديدة جرت الانتخابات للمجلس النيابي في ظل الاحكام العرفية والقوانين الاستثنائية، وفي ظل صحافة معرضة للمضايقة وأحزاب محاربة، وكانت الشرطة المدججة بالسلاح تجوب اماكن التصويت للتأثير على الناخبين، ومعروفة طرق التزيف والفسخ والكنب المفضوح وغيرها من وسائل التزوير التي كانت تتبع من قبل البلاط ورئاسة الوزراء ووزارة الداخلية في إيصال الاقارب والاصهار والمحاسيب الى المجلس<sup>(٥)</sup>.

منذ تأسيس الدولة العراقية حتى ١٤ تموز شكلت ٥٩ وزارة، اشترك فيها ١٧٥ وزيراً، وكان عدد رؤساء الوزراء ٢١ رئيساً<sup>(٦)</sup> وفي الغالب الاعم كان يجري اختيار الوزراء الذين كانت السفارة البريطانية ترشح الى استيزارهم. وقد يكون من الطريف والمفيد في الرد على الاتهامات التي توجه لثورة تموز (باعتبارها احدثت سابقة خطيرة حين سمحت للعسكريين الولوج الى الميادين السياسية والشطب على المؤسسات البرلمانية) الاشارة الى أن الجنرال نوري السعيد لوحده ألف ١٤ وزارة، وجميل المدفعي ٧ وزارات وعلي جودت الايوبي ٣ وزارات، وكل من جعفر العسكري وياسين الهاشمي وزارتين، وطه الهاشمي وزارة واحدة. وجميع هؤلاء كانوا من العسكريين الذين دخلوا عالم السياسة، وتنقل عدد منهم بين رئاسة الوزارة، ووزارتي الدفاع والداخلية، ورئاسة أركان الجيش، ومجلسي النواب والاعيان. وكثرة الدورات البرلمانية والوزارية، والوزراء والنواب لا علاقة لها بالروح الديمقراطية، والتداول السلمي للسلطة عبر صناديق

الاقتراح، كما قد يتوهم البعض، فغالباً ما كان حل المجلس النيابي أو الوزارة، قبل اكمال الدورة القانونية مرتبطاً بالصراع بين اقطاب الحكم القائم، أو بالاستعداد لترتيب الاجواء من أجل ابرام معاهدات واحلاف جديدة. وتعكس هذه التغييرات المتسارعة ظاهرة غياب الاستقرار السياسي، ونزعات التسلط والاستئثار، واشتداد الصراع بين مراكز القوى التي ترتبط جميعها بأشكال مباشرة وغير مباشرة بالانكليز وتتسابق لتقديم الولاء لهم.

أما فيما يخص وصول نواب معارضين للحكومة أحياناً الى المجلس النيابي فيقول (فيليب إيرلند) في كتابه «العراق، دراسة في تطوره السياسي»، أن الملك فيصل الأول كان يدعو لضمين قائمة النواب عدداً من مرشحي المعارضة، ذلك أنه كان يرى أن الموهوبين من هؤلاء يثيرون مشاكل خارج المجلس أكثر مما لو كانوا نواباً. ويضيف حسين جميل، أحد نواب المعارضة في برلمان ١٩٤٧، أن فيصل الأول كان يتبع سياسة حفظ التوازن بين الشخصيات السياسية العراقية ممن هم في إطار الحكم القائم، الى جانب أن مثل هذا الاجراء قد يخفف من الشعور السائد ببعد مجلس النواب عن تمثيل الشعب، هذا عدا أن وجود مثل هذا العدد المحدود من المعارضين لم يكن يهدد أي مشروع لاية وزارة بعدم القبول أو يهدد الوزارة بحجب الثقة عنها<sup>(٧)</sup>. ولم يكن وصول نواب معارضين وظهور اصوات وطنية حرة في بعض الدورات الانتخابية بمعزل عن عامل الضغط والنضالات الجماهيرية. ومن المفارقات التي يمكن الإشارة إليها هنا هو ان النيابة كانت تنتقل أحياناً من الأب الى الابن، وأحياناً الى الحفيد<sup>(٨)</sup> كما هو الحال مع عائلة بلاسم الياسين الاقطاعي المعروف في لواء الكوت. وقيل انتخابات عام ١٩٤٧ التي اجراها نوري السعيد نشرت جريدة «الرائد» في شهر شباط قائمة بأسماء ١٠٢ نائب أعدتها وزارة الداخلية وجاءت نتائج الانتخابات في الشهر التالي مطابقة للقائمة ماعدا «فوز» سلمان الشيخ داود، وهو أحد اعوان السلطة عن لواء العمارة بدلاً عن لواء الدليم.

وظل النواب على الدوام تحت وطأة الشعور بأنهم مدينون للوزارة وللملك بمناصبهم، الأمر الذي أمات في المجلس حق الاستجواب وحق سحب الثقة من الوزارة. وظل حق الحل بيد الوزارة تستخدمه متى تشاء. كما لم تقرر مجالس النواب الستة عشر مرة واحدة حجب الثقة عن وزارة من الوزارات التسع والخمسين، ولا عن وزير واحد من الوزراء الذين تألفت منهم تلك الوزارات. وغالباً ما كان الوزراء ورؤسائهم يستنكفون عن الرد على استفسارات النواب واستيضاحاتهم عند حضورهم اجتماعات المجلس. الى جانب ذلك فإن الوزارة كانت تتخذ المواقف والقرارات في الكثير من الأمور

السياسية الخطيرة بمعزل عن المجلس. ولم تكن تعلمه عن كثير من الاحداث السياسية المهمة حتى بعد وقوعها. وكل الاحداث الخطيرة، وهي من صميم شؤون الحكم المقررة لمسيرته، وقعت بعيداً عن مجلس النواب وهو يقتضي احكام الدستور يمثل سيادة الامة<sup>(٩)</sup>. وتزخر مدونات محاضر جلسات المجلس النيابي ومذكرات المسؤولين ورجال الحكم في العهد الملكي بالشكوى من الحياة النيابية الصورية (انظر الملحق المرفق). وكانت مطالبة الاحزاب الوطنية بجعل الانتخابات النيابية مباشرة وعلى مرحلة واحدة تجابه بالرد من الصحف الحكومية بحجة ان «٩٢٪ من الشعب اميين»<sup>(١٠)</sup>. وردت السلطة عام ١٩٥٢ على المطالبة الشعبية المتواصلة بتعديل قانون الانتخابات ووضع حد للتزوير والقش، بتشريع ما يضمن هذا التزوير، فاصدرت لائحة قانون تعديل قانون النواب، التي نصت على تحريم الاعتراض على نتائج الانتخابات او الطعن فيها، او مناقشتها باحدى وسائل النشر التي نصت عليها المادة ٧٨ من قانون العقوبات، وحددت لائحة التعديل العقوبات للمخالفين بالسجن مدة لا تتجاوز السنين، أو بغرامة لا تتجاوز الخمسمائة دينار. وعموماً اصاب المؤرخ الأمريكي -العراقي في كتابه «العراق الجمهوري» إذ قال: «كان النظام البرلماني الديمقراطي العراقي، دمية في ايدي اصحاب الاراضي وشيوخ القبائل وفئة السياسيين المحترفين الذين يطلق عليهم بحق فئة الحكام المستقلين».

### الاحكام العرفية والظروف الاستثنائية

زخر العهد الملكي بالاحكام العرفية التي اعلنت ١٦ مرة بين ٢٥ تشرين الاول ١٩٢٠ و ١٢ تموز ١٩٥٨<sup>(١١)</sup>، وغطت هذه الاحكام اكثر من نصف عمر ذلك العهد. الى جانب ذلك ظلت البلاد، منذ اكتمال احتلال العراق عام ١٩١٨ حتى الاستقلال الشكلي عام ١٩٣٢، تحت سيطرة القوات البريطانية التي عادت مجدداً بمائة الف عسكري بعد اخماد حركة رشيد عالي الكيلاني عام ١٩٤١، واستمرت حتى خريف ١٩٤٧، وهي الفترة التي سميت بفترة «الاحتلال السلمي».

وظل «قانون مكافحة الشيوعية والاشتراكية والاباحية» و«قانون منع الدعايات الضارة»<sup>(١٢)</sup> و«مرسوم صيانة الامن العام» وقانون المطبوعات، التي سنت في الثلاثينات، سيوفاً في وجه أي نشاط وطني خارج اطار السياسة الرسمية، أو المطالبة بتشكيل الاحزاب والجمعيات وبحرية الصحافة والنشر.

تشكل النخبة الحزبية ركناً أساسياً من أركان النظام الديمقراطي البرلماني. وخلال

الاربعين عاما من عمر النظام الملكي لم تسمح الحكومة باقامة احزاب سياسية خارج اطار الاحزاب التقليدية الحاكمة، الا لفترة قصيرة (١٩٤٦-١٩٥٤) ارتبطت بالتأثيرات الايجابية التي تركها انتصار جبهة القوى الديمقراطية على الفاشية والنازية، والمطالبة الجماهيرية بالحقوق الدستورية والديمقراطية. وحتى هذه الفترة القصيرة تخللتها اجراءات وقوانين استثنائية، وعلان للاحكام العرفية، واعدامات للمناضلين، وحالات الطوارئ، وحل هذا الحزب او ذاك، وغلق صحف وغيرها، هذا ناهيك عن رفض اجازة بعض الاحزاب اصلاً، كما حصل مع حزب التحرر الوطني، وتحريم نشاط الحزب الشيوعي، وعدم السماح بتشكيل اي تنظيمات كردية او كردستانية او لأي من القوميات والاقليات القومية الاخرى.

ومنذ عام ١٩٤١ اخذ النظام يعني بالشرطة عناية خاصة ويجهزها بوسائل القمع الحديثة، وزادت اعداد الشرطة السرية التي تراقب الناس، وتفتش المنازل، احياناً دون ترخيص من سلطة قضائية، والقبض على المعارضين، واصبحت شهادة الشرطة السرية معتمدة لدى المحاكم، وكلمتها هي النافذة في تعيين الموظفين وقبول الطلبة في الكليات. وسادت العقلية البوليسية ازاء الثقافة الى جانب عيوب قانون المطبوعات وسياسة مناهضة الصحافة المعارضة ومنع الكثير من الكتب والمجلات العربية والاجنبية<sup>(١٣)</sup>.

## الهوامش

- (١) الشاعر محمد باقر الشبيبي.  
وينفس المعنى قال معروف الرصافي:  
الا بلغوا عني الوزير مثالة له بينها لو كان يخجل توبيخ  
أراك بحمام الوزارة نورة وأما جناب المستشار فزرنخ  
والرصافي هذا يجاري المثل الهلادي (الصيت للثورة والفعل للزرنخ).  
(٢) محمد مهدي البصير / تاريخ القضية العراقية. بغداد ١٩٢٣، ص ٨٤.  
(٣) ليث الزبيدي. ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ في العراق، ص ١٩.  
(٤) محمد مهدي البصير / المصدر السابق، ص ٨٦.  
(٥) صوت وانتخب وحده بحرية ياهو اللي توريد من الحرامية  
مطلع قصيدة شعبية انتشرت في الخمسينات للمسخرية من تزوير الانتخابات والحياة النيابية في العراق.  
(٦) عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، ج ١٠، دار الكتب بيروت، ١٩٧٤، ط ٤.  
(٧) حسين جميل / الحياة النيابية في العراق ١٩٢٥-١٩٤٦، موقف جماعة الأمالي منها، ص ٧٢.  
(٨) قيس عبد الحسين الياسري / الصحافة العراقية والحركة الوطنية من نهاية الحرب العالمية الثانية حتى ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ / منشورات وزارة الثقافة والفنون، بغداد، جريدة النداء ١١/٥/١٩٥٨.  
(٩) حسين جميل / المصدر السابق، ص ١٠٨.  
(١٠) قيس الياسري / المصدر السابق، جريدة الزمان ١١/٧/١٩٥٢.  
(١١) عبد الرزاق الحسني، مصدر سابق، ج ١٠، ص ٢١٥-٢٥١.  
(١٢) من مشروع صيغة هذا القانون قال مزاحم الباجي أحد رؤساء الوزارة في العهد الملكي إن «اندفاعه لالغاء السلطات والتشريع هو الذي سول له تعدد هذا الاصطاح بين الشيوعية والاباحية». وأضاف الباجي أن «تسمية الشيوعية بالاباحية بالحقيقة تنم عن استهتار بالمفهوم العلمي للمسلك الشيوعي». المحاكمات / ج ٦، ص ٢٣٩٨.  
(١٣) غائب طلمعه فرمان، الحكم الأسود في العراق، دار الفكر، القاهرة ١٩٥٧، ص ٦٢-٦٦.

## ملحق: الحياة النيابية على لسان رجال الحكم في العهد الملكي

١- الانتخابات انتهت بانتخاب مرشحين كان يتفق على تعيينهم الملك ووزير الداخلية ومن وراءه المستشار البريطاني ورئيس الوزراء. وكانت قلقة التشريع هذه تبقى مكتومة حتى يوم الانتخابات، إذ تبلغ بالتلفون إلى المتصرفين، ويطلب منهم أن يبذلوا جهودهم لاتجاهها، حتى أنه وقع أكثر من مرة أن طلب من المرشح أن يعطي تعهداً خطياً يحفظ لدى رئيس الوزراء، بأنه إذا انتخب نائباً كمرشح من الحكومة أن يؤازر الحكومة ويبقى مؤازراً الحكومة ويبقى مؤازراً لها إلا إذا استقالت فحينئذ يؤازر اية حكومة يأتي بها الملك - توفيق السويدي، مذكراتي، نصف قرن من تاريخ العراق والقضية العربية، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٦٦، ص ١٠٤-١٠٥.

٢- قالوا عن انتخابات البرلمان الثاني، ١٩٢٨، عن محضر مجلس النواب جلسة ٢٨/٥/١٩٢٨ من

٤٤، ٤٣، ٣٩.

- ياسين الهاشمي - رئيس وزراء: «استقريئاً من المخالفات التي ضجت جميع اللوية من وقوعها في

اثناء الانتخابات»

- جميل الراوي - نائب الدليم: «متى كانت الامة حرة في ابداء رايها في اية قضية من قضاياها

المهمة».

- عطا الخليل - نائب الكوت: «انا لا اعرف شخصاً واحداً في الكوت فانا لم يقع تدخل من الحكومة في

انتخابي فما لي والكوت ومن اين يعرفني اهل الكوت».

٣- ناجي شوكت رئيس الوزراء عام ١٩٣٢ يتحدث عام ١٩٦٩ عن الانتخابات التي اجريت في عهد

وزارته: «والحقيقة التي لا بد من ذكرها أن الملك فيصل كان يهدف من وراء الانتخابات الى اخراج مجلس

تكون له اكثرية طوع يده، لذلك حرص على أن تاخذ الحكومة تعهدات من المرشحين والنواب. وبالفعل

اخذنا منهم تعهداً يقضي بتأييد الحكومة واسنادها قديم جميع النواب، وانكر ان السيد عبد المهدي وقع

تعهداً ينطوي على عبارة لاستيكية. وقدم جميع النواب التعهد المذكور. وانا احتفظ بأصول هذه التعهدات،

- عن: خيرى العمري - الخلاف بين البلاط الملكي ونوري السعيد (بغداد ١٩٧٩).

٤- علي جودت الايوبي رئيس الوزراء الذي اجري لانتخابات سنة ١٩٣٤ قال عنها: «ان النيابات كانت

اقرب الى التعيين منها الى الانتخابات» - عن: عبد الرزاق الحصني، تاريخ الوزارات العراقية ج ٤، ١٩٤٠

هامش ص ١٢.

٥- «لنقل لي أي منكم من هو غير صنيع الحكومة» - رامي محمود / نائب بغداد / مجلس النواب

محضر جلسة ١١/٥/١٩٤٦/

٦- وإن هذا الضعف في مجالس الامة مقآت من الأساليب المعلومة التي تتبع في الانتخابات... المجالس النيابية هي كما رايتم تحل لسبب ولغير سبب، وإن مجالس من هذا النمط وعلى هذا الطراز وتؤلف على هذه الصورة، وتطرد على هذه الصورة لا يرحى منها خير ولا يعتمد عليها في محاسبة المسؤولين... السيد عبد المهدي - نائب المنتفك مجلس النواب، محضر جلسة ١٩٤٠ / ٤ / ٦.

٧- ولا يخفى عليكم ولا يخفى على الناس أجمع، الكبير والصغير، القاضي منهم والداني، كلكم تعلمون لم ينعقد الاجتماع على امر من الامور في العراق بقدر لنعقاده على مسألة التدخل في الانتخابات منذ تشكيل الحكم الوطني في سنة ١٩٢١ الى فجر يوم ١٤ تموز الخالد... فاضل بابان، متصرف لواء الحلة - محاضر المحكمة العسكرية العليا الخاصة جـ ١٠ ص ٥٢.

٨- وإن النواب في هذه البلاد لا يعرفون من واجباتهم الا الموافقة والتصديق على ماتقدمه لهم الحكومة... عبد اللطيف الفارسي، - نائب ديالى: مجلس النواب جلسة ١٩٣٧ / ٥ / ٣٠.

٩- الانتخابات منذ تأسيس الحكومة العراقية الى ان تقوض النظام الملكي كانت تسير على وتيرة واحدة، لا اعرف شيئاً عن تدخل فاضل الجمالي في الانتخابات، ولكني اعرف في الانتخابات الاخيرة (انتخابات ربيع ١٩٥٨) نوري السعيد وسعيد قزاز جلبوا قائمة وعرضوها على الملك والامير واتفقوا عليها... عبد الله بكر - رئيس الديوان الملكي، محاضر محكمة الشعب / ج ٢ ص ١٠٢٢.

١٠- هزات الاوضاع التشريعية والنيابية منذ سنة ١٩٣٠، وخلا الجو غالباً لعدد من ذوي الاهواء والتصرفات الشخصية، ولتحرف فريق من المسؤولين عن سواء السبيل... لذلك اصبحت من الطبيعي ان تنهض لمقارعة الطائشين من رجال الحكم جهات او سلطات اخرى لم تخطر من القوم على بال، ولهذا السبب كثر تمرد الجيش على الحكومة وانغرس في حماة السياسة... وقد انتقل القوس في السياسة من مجالسنا النيابية الى ثكناتنا العسكرية والى معاهدنا العلمية بل الى حقولنا الزراعية. ولولا ضعف المجالس لما تأمر الجيش على رجال الحكم ولما تعددت حوادث التمرد، ولما اضطربت حياة الدولة من شتى نواحيها الادارية والمالية والاجتماعية... محمد رضا الشيباني / نائب العمارة / مجلس النواب ١٩٤٦ / ٥ / ١٣.

تتبعي الاشارة ان الكثير من هؤلاء المتحدثين كانوا مسؤولين عن ضعف المجالس النيابية نتيجة تدخلهم في انتخابات النواب ومساهمتهم في تزييفها مرة بعد اخرى. وإن ما قال به بعضهم يدخل في باب المغالطة للظهور بمظهر غير المسؤول عن النتيجة التي وصلت اليها الحياة النيابية.

(التتمة في العدد القادم)

## جورج حاوي لا يتذكر

فخري كريم

أثار الحوار الذي أجرته مجلة «الوسط» الصادرة في لندن مع الرفيق جورج حاوي، الأمين العام السابق للحزب الشيوعي اللبناني، ونشر في إطار سلسلة «يتذكر»، نقلاً واسماً في الأوساط الحزبية والسياسية المعنية بالأحداث التي تناولها على الصعيدين اللبناني والعربي.

وفي العدد ٢٤٦ الصادر في ٢٠ تشرين أول / أكتوبر الماضي، نشرت المجلة رد الرفيق فخري كريم على الانتقادات التي كان الرفيق حاوي قد وجهها إلى قيادة الحزب الشيوعي العراقي، نعيد نشره لأهمية الموضوع وتوثيقاً للحقيقة.

أثار الرفيق جورج حاوي الأمين العام السابق للحزب الشيوعي اللبناني، في سيرته الحزبية والسياسية التي أدلى بها للأستاذ غسان شربل، طائفة من القضايا التي تستدعي التوقف عندها.

فالسيرة لم تقتصر على الأحداث والوقائع والتقييمات الخاصة بالحزب الشيوعي اللبناني، ولا الأوضاع اللبنانية، بل تعدتها إلى حياة ونشاط أحزاب وبلدان أخرى ومنها الحزب الشيوعي العراقي، وتقييم مواقفه من تطورات الأوضاع في البلاد، ومن



صدام حسين ونظامه.

كما تناول أوضاعاً ومواقف لم يكن الشاهد الوحيد عليها. ومع أن السيرة الذاتية تنبض بحقائق الحياة وهي تتحرك في فترات ومراحل انعطافية، ولصاحب السيرة دور نشيط فيها... فإنها لا تخلو من حالات ضعف الذاكرة، وفيها تجن يستعصي على التفسير، ويعيد إلى الذاكرة شريطاً مثقلاً بالمواقف والأحداث المثيرة للأحزان وللأسف. ومع أن الرفيق حاوي لا يعرف أحداً من قادة الحزب الشيوعي العراقي، سوى الشهداء منهم الذين لم يعاصروهم ليلتقي بهم، كما ذكر في سيرته، فإن قادة الحزب بفالبيتهم يعرفون الرفيق جورج حاوي عن قرب، وتابعوا باهتمام ادواره ومواقفه، وعاشوا جانباً منها، ومنهم من تأثر به وتعاطف معه، سواء على صعيد صراعاته داخل حزبه، أو تعرضه للأحزاب الأخرى.

وفي هذا السياق لا بد من الإشارة، قبل التعليق على طروحاته، إلى أن من بين الأسباب التي دفعته وقادة آخرين من اليسار العربي إلى اتخاذ مواقف مغايرة لسياسة الحزب الشيوعي العراقي، انحياز شريحة من قادة الحزب، المتعاطفين مع الرفيق جورج فكراً إلى مواقع التهادن مع صدام ونظامه، والقيام بنشاط لم ينقطع إلى ما بعد احتلال الكويت تزكية لنهجه المدمر خصوصاً إبان حرب الخليج الأولى، والبحث عن سبل وقنوات للعودة إلى التعاون معه وتحت قيادته. ولكن المؤسف، أن الرفيق حاوي، كما يبدو من ملاحظاته، لم يجد في سلوكه السياسي كله إزاء النظام العراقي خلال الفترة التي عالجها في سيرته ما يستحق النقد. بل بدأ في تلك الملاحظات كما لو أنه يفاخر بها، ويرمي اللوم كله على قيادة الحزب حتى بعد أن ظهر لأقرب للمتعاطفين مع هذا النظام، أنه وحده يتحمل مسؤولية الكارثة التي حاقّت بالبلاد، وإلى جانبه طبعاً أولئك الذين لم يكتفوا بعدم إبداء النصيح له فحسب، بل كالوا له المنيح على دوره التاريخي، «كمتمنذ للأمة» و«محرر لفلسطين»، «كيسمارك»، و«كاسترو».

هل عجز الرفيق حاوي حقاً عن استعادة شريط الذكريات المأساوية لتلك المرحلة التي طرق الحزب الشيوعي وقادته فيها كل باب ومن بينها قيادة الحزب الشيوعي اللبنياني للتنبيه من الأخطار المحدقة بالشعب العراقي وبالأمة العربية وبقضاياهما المصرية، والتحذير من مغبة تزكية صدام حسين وسياسته؟ وماذا كان موقفه من تلك التحذيرات؟ وهل أن الحياة وحركتها بكل صخبها وفواجعها ونتائجها المأساوية التي نعيشها اليوم لم ترد بها يفرض مراجعة مسؤولية على من لم يسمع ويتنبه؟.

ليس غريباً أن تثير السيرة الشخصية للرفيق حاوي الاهتمام والمتابعة، فهي بالإضافة إلى الجوانب الشخصية النابضة بالحياة، ستعتمد دون شك كوثيقة حزبية وسياسية في غاية الأهمية، وسيجري التعامل مع ما ورد فيها، كحقائق ومسلمات. ومن هنا أهمية تدقيق وتصويب ما ورد فيها بحق الآخرين إن لم يكن الحزب الشيوعي اللبناني ما يقوله عن السيرة. وبغض النظر عن تقييم ما ورد في السيرة من مواقف وذكريات وتوجهات، فلا بد من الإقرار بأن صاحب السيرة يعتبر من بين المع القادة الشيوعيين العرب، وأكثرهم نشاطاً، وكان منذ صعوده السريع إلى المركز الأول في قيادة الحزب الشيوعي اللبناني، مثار جدل والتباس إيجابي، متميزاً بالحماسة، مستعداً للمجابهة دون تهيب، بقدر استعداده للتراجع والانتقال إلى الموقف الآخر. كان قادراً على الإحياء بصدق المواقف التي يبادر إلى إطلاقها سواء على صعيد حزبه أو الحركة الوطنية اللبنانية أو العربية. إلا أن الأمر لم يكن كذلك على صعيد الحركة الشيوعية في غالب الأحيان، لاعتبارات تتعلق بالبيئة السياسية التي كانت تحيط دائماً بحركة ونشاط الأحزاب الشيوعية، وتعرضها للعسف وللقمع الشامل مما يلزمها بتوخي الحذر من أي مبادرة أو موقف غير محسوب أو متسرع من قياداتها، وهو ما كان يظهر هذه القيادات بمظهر حذر بل ومحافظ. وهو الهامش الكبير الذي كان وما يزال، يميز الانفتاح والتسامح السياسي اللبناني عن الأوضاع التي تسود غالبية الاقطار العربية الأخرى. وكان واضحاً منذ بروزه السياسي أنه يعرف قواعد اللعبة السياسية اللبنانية، ويتعلمها بكفاءة وسرعة. واستطاع أن يكسب أوساطاً محدودة في بعض الأحزاب الشيوعية العربية إلى نهجه البراغماتي الذي لم يكن يلائم الأحزاب الشيوعية، بل يثير قلقها.

ووفقاً للمعايير اللبنانية، كان حاوي بمستوى موقعه، بل وأضفى على هذا الموقع بدنياميكية وبرامغمايته أهمية مضافة مكنته من تعزيز دوره القيادي في حزبه، وفي الحركة الوطنية اللبنانية، ومنحته هامشاً غير محدود للتحرك في الأوساط الفلسطينية والعربية لم تتح لأي قائد شيوعي أو يساري غيره، باستثناء الحالة المصرية المتميزة هي الأخرى. ولتفسير هذه الحالة من التسامح أزاء تحرك قائد شيوعي عربي، كان يحلو للصديق محسن إبراهيم أن يفسر هذا التسامح ما زاح «أنكم مخدوعون بنا، فجورج حاوي قومي مندس في الحركة الشيوعية، وأنا شيوعي مندس في الحركة القومية!».

ولم يكن مستغرباً أن يثير الرفيق حاوي بنهجه السياسي والفكري وطروحاته التنظيمية التي كان يؤكد على طابعها التجديدي، حفيظة الأحزاب الشيوعية، ولكنه

استطاع ايضا ان يكسب قياديين فى هذا الحزب أو ذلك الى هذا النهج، كما حصل فى الحزب الشيوعى العراقى، الذى كان يخوض صراعا دمويا فى ظروف اختلال التوازن مع حزب البعث الحاكم حول وجهة تطور العراق وهويته ومصير شعبه، دون الاخذ بنظر الاعتبار الفروقات الجوهرية بين البلديين والشعبين والحزبين، وطبيعة النظام السياسى فى كل من الدولتين.

وهكذا يمكن اعتبار الرفيق جورج حاوى مدرسة حزبية وسياسية، مما يستلزم اخذ ذلك بنظر الاعتبار عند حاجته والرد على طروحاته .

ولانه كذلك او هكذا بدا لى فان الرفيق حاوى، لم يترك شأنا عربيا أو دوليا، ولم يوفر حزبا أو قضية حتى وان لم يكن على اتصال بها دون ان يتناولها بالتقييم أو النقد ، الجارح أحيانا، وغير الموضوعى أو الدقيق أحيانا أخرى.

### **الموقف من صدام حسين ونظامه**

فى معرض تقييمه للحزب الشيوعى العراقى وسياسته التى انتهجها ابان التدهور السريع للاوضاع فى البلاد، وانهيار التحالف الهش مع حزب البعث الحاكم ، ذكر الرفيق حاوى أن قيادة الحزب توقفت عند القضايا الثانوية ، وبما يلقى اللوم عليها فى ما آلت اليه اوضاع البلاد بعد ذلك!

فقد عرض حاوي طبيعة تحالف الحزب الشيوعى اللبनاني والحركة الوطنية اللبنانية مع النظام العراقى، ومع صدام شخصيا وتطور العلاقات معهما، مؤكداً على طابعها الودى.

وذكر أنه طالب شخصياً بقطع المساعدات العراقية عن حزبه والحركة وعندما بدأت حرب الخليج الأولى، وعندما فك ميثاق العمل القومي بين سورية والعراق، وعندما أعدم ٢١ شيوعياً فى الجيش، ذهبنا فى محاولة لاستجلاء الموقف والنقاش مع القيادة العراقية.

ويذكر حاوي أيضاً أنه حذر عزيز محمد مما يببته الحزب الحاكم للحزب الشيوعى العراقى حيث يقول: «أبلغنا هذا الحديث إلى الرفيق عزيز محمد وقلنا له إننا نستشف نيات غير سليمة، وطلبنا منه أن يعالج الوضع سياسياً وأمنياً، وأن يتخذ احتياطات. أنا لا اتدخل فى شؤون الأحزاب الأخرى، لكن الحزب الشيوعى العراقى -ويا للأسف- لم يعالج

الوضع، وتصلب في الصراع مع حزب البعث على أمور ثانوية وليس على المسألة الرئيسية المتعلقة بالقضية القومية، على مطلب اقتصادي هنا، على اصلاح ديمقراطي هناك. ولم يتخذ كما كنت أتصور احتياطات للمواجهة تتيج له البقاء في الداخل».

«كانت خطة الحزب الشيوعي العراقي في المواجهة» قال حاوي «هي الخروج من العراق، وهو امر أجد أنه في غاية الضرر. صحيح أن النظام العراقي دموي وصحيح أن لا أحد في سجنه، فإما الموالاة وإما الإعدام. لكن حزباً ثورياً ينتقل إلى الخارج بقياداته وكوادره وربما أعضائه (!!) لن يعود إلى الداخل بسهولة».

ويقدم حاوي بعد ذلك تجربته والحزب الشيوعي اللبناني الذي رفض الخروج أثناء الحرب الأهلية.

يبدو أن الرفيق حاوي نسي تفاصيل تلك الفترة، وأمل أن لا يكون سبب النسيان هذه المرة أيضاً تبرير سلوكه السياسي الخاطيء في تلك المرحلة العصبية والمريدة من تاريخ شعبنا.

ولهذا سأذكره ببعض الحقائق:

- (١) إن إعدام ٣١ شيوعياً وصديقاً للحزب الشيوعي العراقي تم عام ١٩٧٨.
- (٢) إن ميثاق العمل القومي بين سورية والعراق انهار أواخر عام ١٩٧٩.
- (٣) إن الحرب العراقية الإيرانية (الخليج الأولى) اندلعت في ايلول عام ١٩٨٠.
- (٤) إن المساعدات للحركة الوطنية اللبنانية التي بلغت كما يذكر حاوي مليونين و٢٢٥ ألف دولار وللحزب الشيوعي اللبناني ومنظمة العمل الشيوعي التي بلغت كما قيل نصف مليون دولار لكل منهما، لم تنقطع حتى بعد ذلك التاريخ، وقد قطعها النظام نفسه بعد أن تحسنت علاقات الأطراف المذكورة مع سورية، ولم تعد قادرة على الجلوس على كرسيين!
- (٥) إن قيادة الحزب الشيوعي العراقي أدركت في وقت مبكر ما يببته الحزب الحاكم للحزب وللبلاذ، سوى أنها، بضبط من جناح فيها تلكات في اتخاذ التدابير الضرورية (كما قيم ذلك المؤتمر الوطني الرابع للحزب) وراهنّت على مواصلة التحالف مع النظام.

لا أدري في الواقع عن أي قضايا ثانوية يتحدث الرفيق حاوي. فلقد ضاق حزب البعث الحاكم في العراق بنشاط الشيوعيين وكسبهم الجماهير الى ما يدعو له الحزب من شعارات، وما يقوم به من فعاليات، فراح يضييق على هذا النشاط بإجراءات

«قانونية» (الحكم بما لا يقل عن خمس سنوات حتى ١٥ سنة لكل من يعمل في منظمة غير مرخصة، بعد أن عجز الحزب عن الاتفاق معه لتوحيد منظمات الطلبة والشباب والنساء واضطر إلى إعلان تجميدها، والتخلي عن مواقع في قيادات اتحاداتها العالمية، الأمر الذي قيمه الحزب سلباً في التقرير الذي أصدره المؤتمر الوطني الرابع للحزب، مع جملة من الممارسات الخاطئة التي ثلثت استقلالية الحزب عملياً ولم يتبق له ما يدافع عنه غير وجود الحزب ذاته)، وبإجراءات بوليسية واسعة النطاق. ولم يكتف بذلك بل قدم لقيادة الحزب مذكرة تحوي ١٨ مطلباً تستهدف التضييق على نشاطه. لخصها صدام حسين بأن على الحزب أن يعرف أن (الأبي) - أي المفتاح الرئيسي - هو بيد البعث. وأن عليه أن يرضى بما يرفعه من شعارات وما ينتهجه من سياسات حتى لو تناقضت مع قناعات الشيوعيين. ومن بين تلك المطالب الخطيرة التي كانت تتضمن كل ما من شأنه إنهاء الحزب سياسياً وفكرياً وتنظيمياً وتحويله إلى مجرد واجهة للنظام، تبني وجهة نظر صدام حسين باعتبار منظمة التحرير الفلسطينية أداة صهيونية، وقياداتها عملاء مוסاد... والتعامل مع سورية وقياداتها باعتبارها (النظام العميل) وتبني السياسة القومية للحزب الحاكم بتفاصيلها، بالإضافة إلى إخضاع علاقات الحزب عربياً ودولياً لسياسات واعتبارات الحزب الحاكم، وإنهاء علاقاته الأممية، إلخ... وقد رفض الحزب ذلك ونشر تقرير آذار ١٩٧٨ الذي طالب فيه بإنهاء الأوضاع الاستثنائية، وإطلاق الحريات العامة لكل القوى الوطنية، والتمهيد لإجراء انتخابات عامة لمجلس تشريعي، وطالب بالتخلي عن مواقف العداء ضد سورية ومنظمة التحرير الفلسطينية، وبناء جبهة معادية للإمبريالية والصهيونية ومشاريعهما في المنطقة، الأمر الذي أثار حفيظة البعث الحاكم ورد عليه بإعدام ٢١ عضواً وصديقاً للحزب بتهمة كاذبة هي إقامة تنظيم عسكري داخل الجيش. فهل كان ما طالب الحزب به «قضايا ثانوية»؟ وإذا كانت هذه قضايا ثانوية، فما هي القضايا الرئيسية التي دعا الرفيق حاوي ويدعو للتوقف عندها.

من الغريب أن يتمسك الرفيق حاوي بموقف لم تزك الحياة حتى بتفاصيله الثانوية! فقد انتهت الغالبية إلى إدراك الحقيقة المريرة، والشفاء من اللوثة السياسية التي سمعت العالم العربي طوال عشر سنوات عجاف من حرب الخليج الأولى، حيث توهمت حتى أوساط من اليسار العربي بالدور «القومي المنقذ» لحارس البوابة الشرقية صدام حسين، وظلت تلك الغشاوة تعمى أبصار الكثيرين خلال الحرب الثانية.

لقد اقنع الرفيق جورج حاوي نفسه، في ما يبدو من ذكرياته، بإمكانية ثني صدام حسين عن النهج الذي قاد البلاد والامة العربية الى الهاوية، وجردها من أسباب المقاومة، واعادها عدة عقود الى الوراء. ولولا هذه القناعة لما مرر تلك الملاحظة الغربية وغير المنصفة ليس بحق الحزب الشيوعي العراقي، بل بحق شعبنا الذي ذاق مرارة عذابات تكاد تفوق طاقة البشر. والا كيف لا يستنتج حاوي، بما عرف عنه من استعداد للمراجعة والتفقد الذاتي بعد كل هذا الذي جرى، ان تقييمات السابقة ازاء صدام ونظامه كانت خطأ فاحشا يحتاج الى وقفة نقدية جادة؟.

لقد تعززت علاقات الحركة الوطنية اللبنانية في الفترة التي كرس فيها صدام حسين سلطته المطلقة على البلاد واواخر السبعينات، حين جعل من تعميم سياسة الإرهاب الجماعي والتصفيات الدموية نهجا للحكم، ولم تقتصر علاقات الحركة وأطرافها على ادامة اوثق العلاقات مع النظام بل تعدتها الى تزكية نهجه وسياساته تحت واجهات «قومية» وادعاءات بالمشاركة في مواجهة «الامبريالية والرجعية». ورغم اللقاءات والحوارات المستمرة مع الرفيق حاوي حول ما يجري في العراق والنوايا الكارثية التي يبيتها صدام، فقد كان يصير على ان «المسؤولية القومية» تفرض عليه الحفاظ على التحالف مع صدام، كما ان التزاماتهم في إطار الحركة الوطنية تلقي عليهم عبئا اضافيا. وكنا وما زلنا نرى ان من العبث، كما أكدت التجربة، على الدوام فك الترابط بين الديمقراطية وتكريس ارادة الشعب، وبين القضية القومية، إذ لا يمكن لجلاد ومستهتر بمصائر بلاده ان يكون مناضلا ضد العدو الاسرائيلي «والتحديات الامبريالية»، وای خطر يحيق بالوطن والامة العربية.

إن شعبنا يتذكر بمرارة سكوت اوساط واسعة من القوى القومية واليسار العربي اواخر السبعينات وأوائل الثمانينات، تحت ذات الشعارات والذرائع التي لوحث بها خلال سني حربي الخليج، عن النهج المدمر لصدام حسين الذي قام بتنظيم المجازر الجماعية بحق جميع الاحزاب والقوى السياسية، دون ان يوفر رفاهة واقرب اصدقائه ومساعديه، كما يتذكر الزيارات المكوكية لبغداد، تحت واجهة نعم «الصمود» والتصدي للمعتدى الاسرائيلي، التي لم تكن وظيفتها في حقيقة الامر تتعدى إظهار التعاطف والدعم لصدام حسين، «لتحليل» استلام المخصصات الشهرية التي كانت تبلغ مئات الآلاف من الدولارات «لتنظيف» تلك المجازر. وكانت وفود الحركة الوطنية اللبنانية، تحصد حصاة الأسد من تلك المساعدات. وكان من الممكن غض النظر عن تلك العلاقات لو أن أطرافها لم

يفلسفوها، بإضفاء «طابع قومي» عليها. يومها طلب منا الرفيق محسن إبراهيم بأسلوبه الودي المرح أن نتجاوز طروحات الرفيق حاوي وتنظيراته «المبدئية» حول خلفية موقفهم وعلاقاتهم مع صدام، وقال مازحاً: (إن المبدئي الوحيد في هذه العلاقة وفي موقفنا من النظام هو الدولار)؛ فما دام مستمراً في الدفع، يصعب علينا تغيير «موقفنا المبدئي» إزاءه؛ واقتراح أن نلین موقفنا و«نجمد المبادئ»، ونستفيد من حصّة الحزبين لدعم كفاحنا ضد الدكتاتورية. وبذلك نكون قد «زكينا» هذا المال الحرام «واستكردناه» صدام، واعدنا المصادقية للمبادئ الرفيق جورج. كان هذا اللقاء بمشاركة الرفيق قواز طرابلسي الذي كان واضح التعاطف معنا، وتابع شخصياً دفع مساهمة منظمة العمل الشيوعي اللبناني على دفعيتين بلغت الواحدة منها خمسين ألف دولار. ولابد من الإشارة إلى أن هذه التمسوية المخلة من الناحية السياسية لم تكن موضع رضانا جميعاً. بعد ذلك التقينا بالرفيق حاوي، الرفيق عزيز محمد وكاتب هذه السطور، وأعاد علينا اقتراح الرفيق محسن إبراهيم ملمحاً إلى اتفاقه بهذا الشأن، إلا أنه خلافاً لما ذكره إبراهيم حول أساس العلاقة بالنظام أعاد تأكيد طروحاته السياسية والفكرية إزاءه. وقدم هو الآخر خمسين ألف دولار، ولمرة واحدة، في إطار الاتفاق المشار إليه أعلاه. وكان قد سبق اللقاء المذكور اجتماع بين وقدين من قيادة الحزبين العراقي واللبناني، بحضور حاوي وعزيز محمد. وقد أثار الوفد بانزعاج شديد نُشر جريدة النداء خبراً عن احتفالات النظام العراقي بانقلاب ٨ شباط ٦٢ وتسمية ذلك الانقلاب المشبوه «ثورة»؛ وللأسف فإن موقف الرفيق جورج لم يكن ينطوي حتى على التبرير، بل التأكيد على أن هذا الأمر يتسجم مع علاقتهم وموقفهم من الحزب الحاكم في العراق، وأن هذه الممارسة شكلية لا تتطلب الملاحظة والنقد؛ ومن الإنصاف الإشارة إلى أن رفاقاً في قيادة الحزب الشقيق لم يكونوا منسجمين حول تفاصيل المواقف والسياسات التي كان ينتهجها أمينهم العام على هذا الصعيد.

من الملفت أن الرفيق حاوي كان يقيم نظام بغداد في فترة صعود البعث في مواجهته «الشكلانية» للامبريالية والصهيونية بشكل مغاير تماماً، ومن بين مواقفه الحادة خطبته المشهورة التي أشار إليها في سيرته والتي ندد فيها بإرسالية «التمر» العراقي وعندما سأل علي غنام عضو القيادة القومية للحزب الحاكم الذي جاء على رأس وفد إلى بيروت عما إذا سيوقف هجومه عليهم قال له: «دعنا نتصارع، هناك شخص سيء النية اتهمني بشيء وسافر وأنا أبحث عنه، اتهمني بأنني لا أقبض وأريد أن أعرف من أين أتى هذا

الملعون بمعلوماته. نحن نريد مساعدة للحزب والحركة الوطنية (...) بعدها تماماً تغير الموقف جذرياً من النظام، رغم انحداره إلى برك الدكتاتورية السافرة ونهج الإبادة الجماعية ضد سائر الأحزاب والقوى، وبانت سياسته موضع إدانة عربية ودولية واسعة. فهل يستقيم هذا الموقف وما جسده الرفيق حاوي في رده على علي غنام مع الادعاءات التي سيقّت في سيرته لتبرير التحالف والعلاقة مع نظام بغداد وصدام حسين.

### **هل هرب الشيوعيون العراقيون:**

#### **أعضاء وكوادر وقيادات إلى خارج العراق؟**

زار الرفيق حاوي بغداد في عام ١٩٧٨ (وكان عزيز مجمد وقياديون آخرون خارج البلاد) قبل مغادرتي ببضعة أسابيع إلى سورية ولبنان، بتكليف من قيادة الحزب، لتنظيم التراجع المؤقت ولتأمين الهجرة المعاكسة إلى داخل الوطن. ويومها رايت من واجبي أن أضع الرفيق حاوي، ومن خلاله أعضاء وفد الحركة الوطنية، في صورة العاساة التي تحيق بوطننا، والتي تهدد بخرابه. وأثناء زيارته لطريق الشعب الجريدة المركزية للحزب. وكانت قد تحولت بسبب الحملة الإرهابية إلى مركز للنشاط والاتصالات الحزبية والسياسية، عرضت عليه أحد العاملين في الجريدة، العائد توماً من أقبية الأمن، وقد بدا مهتماً ومحطماً من التعذيب الذي استخدمت فيه كل فنون ما بعد الفاشية. وأذكر الآن بآلم وحزن كيف كان رد فعل الرفيق، فقد رأى في هذه الواقعة مجرد مسرحية وفخ لتخريب زيارة وفد الحركة الوطنية. هكذا نقل إلى الانطباع بعض أعضاء الوفد من قادة الحركة يوم ذلك. وأشهد اليوم وقد تجاوزت الخمسين أنني كنت بدرجة من السذاجة السياسية بحيث لم أكن أسمع لنفسني بنصب كمالين لأحزاب شقيقة حتى وإن فعلوا ما يلحق أقدح الأضرار بقضيتنا، إذ كنت مع معشر الشيوعيين العراقيين نفهم الأمية على أنها تضحية لصالح الحركة ككل. ويبدو أننا طبقنا هذا المبدأ دائماً بالاتجاه الذي لا يصب في مصلحتنا الحزبية والسياسية الضيقة، كما فعل «أمميون» آخرون.

كان الشيوعيون العراقيون، عند زيارة الوفد اللبناني، ينتقلون بالآلاف إلى العمل السري، ويفيرون مواقع نشاطهم وأساليبه. وغادر الآلاف منهم للنجاة من الإبادة الجماعية، كما غادر الآلاف منهم بتوجيهات حزبية للالتحاق بمنظمات الحزب في كردستان وكذلك، إلى دمشق وبيروت تمهيداً للانخراط مجدداً في نضال الحزب ضد



الديكتاتورية في المواقع والمهام التي يحددها.

وكما ذكرت فقد كلفت على نطاق قيادي ضيق بالصفر الى دمشق وبيروت لتنظيم حركة التراجع، وتأهيل المناضلين تمهيداً لتنظيم عودتهم الى مواقع نضالية جديدة في اطار الهجرة المعاكسة الى الداخل وكردستان.

عند وصولي بيروت وضعت نفسي تحت تصرف الحزب الشقيق عملاً بتقاليد اتبعناها باستمرار. ولم أقبل بغير ضيافته، رغم أن الاخ الصديق ياسر عرفات وضع تحت تصرفنا عدة بيوت مع مجموعة من المرافقين. ولا يمكن هنا أن لا أشيد بمشاعر الشيوعيين اللبنانيين وتضامنهم معنا.

وجدت نفسي بعد فترة أخرج هذه القاعدة نتيجة تزايد الأعباء التي فرضها تدفق مئات المناضلين الناجين من الإرهاب والمطاردة الدموية، الذين كانوا بأمر الحاجة الى مأوى ورعاية، ناهيك عن العمل والتدريب. استعداداً للعودة السرية الى البلاد.

أشهد أن الاخ الرئيس ياسر عرفات وفتح لعبا الدور الأهم في الاحتضان وفتح المعسكرات وتقديم شتى المساعدات، وفعلت الديمقراطية والشعبية ما يتناسب مع امكانياتهما وانضمت اليهما المنظمات اليسارية الأخرى. وكان للحزب الاشتراكي اليمني وقيادته موقع الصدارة في الاحتضان والدعم الشامل.

وهكذا كما يبدو أننا اعلنا الجميع بمن فيهم قيادة الحزب الشيوعي اللبناني، قرارنا بالعودة الى مختلف أنحاء البلاد حسب الامكانيات المتاحة والتي نسعى بشتى الوسائل لتوسيع نطاقها، وبشكل خاص الى كردستان، للمشاركة في حركة الكفاح المسلح، وأكدنا على عدم استعدادنا، (عطفاً على نصائح البعض بالجوء الى البلدان الاشتراكية)، للتحويل الى حزب مهاجر، ورفضنا إعادة تجربة حزب تودة والحزب الشيوعي التركي. كما اعلناهم بان لدينا قيادة في داخل البلاد وفي بغداد بالذات، وأن هناك تجمعاً من القاديين والكوادر البارزين يعيدون بناء المنظمات والقواعد الحزبية والانصارية.

وكانت عمليات العودة الى منظمات البلاد تجري بمساعدة من الاصدقاء، وليس بمعزل عن علم عام من قيادة الحزب الشيوعي اللبناني الشقيق. ولم يمر عام أو أكثر بقليل، حتى انتقل أكثر من نصف أعضاء اللجنة المركزية وغالبية كادرات الحزب الى كردستان. فهل يرى الرفيق حاوي أن كردستان مثلاً ليست العراق، وأن العودة الجماعية للمناضلين اليها، هي اشبه بالهروب؟!

ولمزيد من الافادة، اذكر الرفيق حاوي بالحقائق التالية:

١- لم يلتحق بصوف الحزب وحركة الأنصار بعد انهيار التحالف، الكوادر الذين تركوا البلاد، لأنهم أصبحوا مكشوفين أمام العدو ليس بمعزل عن الخطأ الفادح الذي ارتكبه قيادة الحزب بسياستها التحالفية، فقط بل والمئات من المناضلين الذين كانوا يدرسون أو يعملون في البلدان الاشتراكية والعديد من البلدان الرأسمالية والعربية أيضاً.

٢- إن كردستان وقواعد أنصار الحزب بالتحديد ضمت بعد ثلاث سنوات من التراجع أكثر من ثلاثة آلاف مناضل، بين أديب وصحفي وطبيب وفنان وعمال وفلاحين وطلبة رجالاً ونساء، وكانت القاعدة الانتصارية الواحدة تضم أحياناً مناضلين يجيدون (١٦) لغة! ولم تخل بعض القواعد من أشهر الكتاب والفنانين والأطباء وأساتذة الجامعات، قدم العشرات منهم حياتهم في سبيل قضية شعبهم، وقضى أغلبهم بين ٥ - ١٠ سنوات في الجبال القاسية وعلى الكفاف!

وكم كان المناضلون الذين قضوا سنة أو سنتين في قواعد المقاومة الفلسطينية أو الحزب الشيوعي اللبناني يتعسرون على جبال لبنان، وحتى أنى قراها وأكثرها تخلفاً التي كانت تنعم بمائت تكتن العديد من العواصم العربية تنعم به من خيرات ورفاهية. بينما خرج مناضلو جبال كردستان بعد سنوات وهم لم يشاهدوا شارعاً مسفلتاً! ولم يعرفوا معنى الفيديو والفاكس! وفي نفس الفترة، وقع تحت قبضة جلاوزة صدام أعضاء في اللجنة المركزية وكوادر حولها ومنهم الشهيدة عائده ياسين ود. صفاء الحافظ وصباح الدرة وكوكبة من النساء والرجال والشبيبة في منظمة بغداد والمدن الأخرى، فهل هرب الحزب الشيوعي العراقي، لا القادة كما ذكر الرفيق جورج حاوي ولا الكوادر فحسب، بل والأعضاء أيضاً! سامحك الله!

٣- كيف لا يتذكر الرفيق حاوي مآثر الشيوعيين العراقيين؟، إنه تحدث عن مآثره النضالية الشخصية وهو محق في ذلك. فقد سجن بضعة أشهر، وزارته شخصيات بارزة أثناء توقيفاته وأجبر ملفقي الدعاوي عليه على الاعتراف بجرائمهم بحق داخل مراكز الشرطة، واستطاع تنظيم الهروب من مطار بيروت. فكيف لا يعرف الرفيق حاوي أن الآلاف (بلا مبالغة) من شبيبة العراق قضوا سنوات طويلة في سجون الدكتاتورية منذ ١٩٦٠ حتى يومنا هذا؟ وأن أطفالاً في سن الخمسة عشر ودون سن الرشد، جُلدوا، وحكموا بسنوات ثقيلة في السجن بعد تعرضهم لأنواع التعذيب. الا يذكر أن الهروب من السجون، وحفر الخنادق لتنظيم الهروب الجماعي، والمواجهة

مع الجلادين وتحدي السجائين ومواجهة الرصاص بصدورهم في السجون والمعقلات، وتقاليد العمل العسري في أشق الظروف وأصعبها حتى في ظل الأوضاع الغاشية الراهنة، إنما هي مآثر يومية لا للشيوخ عيين فحسب، بل ولا صدفائهم أيضاً؟

إنني أشهد واعتز بمفاخر المناضلين الشيوعيين اللبنانيين وأعرف نماذج منهم تحمل مآثر بارزة، مع أنهم لم يصبحوا قادة. كما انحني إجلالاً أمام شهداء الحزب الشفيق وجهادية قادته، إلا أن من الصعب أن اتفهم دوافع الرفيق حاوي بإيراد تلك الملاحظة المتجنبة التي تتهم الشيوعيين العراقيين بالهروب. لقد تذكر الرفيق مآثره الفئانة الكبيرة (ناديا لطفي) أثناء الحصار، بزيارة بيروت، ولكنه نسي مآثر مئات الشيوعيين العراقيين الذين ظلوا صامدين في بيروت وفي قواعد المقاومة والحركة الوطنية، ورفضوا الهروب الى خارجها، وقدم كوكبة منهم حياتهم في حي السلم لوجودهم في مواقع أمامية قتالية. ولماذا لا يذكر أبرز الكتاب والصحفيين والشعراء الذين تولوا تحرير صحف المقاومة والحركة وساهموا في صحافة الحزب ووسائل أعلامه؟ بل وإن بعض الصحف والمجلات لم تجد من يحررها غير الشيوعيين العراقيين؟ ولم تجد «فلسطين الثورة» من يوزعها تحت وابل القصف على المقاتلين، في الصفوف الأمامية غير شيوعي عراقي. ويهمني سياسياً، وبعيداً عن المفاخرة والادعاء، أن أذكر بأن كاتب هذه السطور اخترق الحصار الاسرائيلي وعاد ليبقى مع رفاقه واصدقائه الفلسطينيين واللبنانيين وفاء لوقفاتهم مع شعبنا ويعود في آخر باخرة من بواخر الانسحاب الفلسطيني، محمولاً على المحفة، بعد تعرضه لمحاولة اغتيال على ايدي زبانية لجهزة صدام؟

### **القومية والأممية من وجهة نظر مغايرة؟**

يقول حاوي: «العراقيون يتمتعون بالصلاية والأمانة والإخلاص لقضيتهم، لكنني على خلاف معهم في كثير من القضايا التي تتعلق بالجمود والمواقف من القضية القومية العربية والموقف من الأممية التي كانت هناك معركة بشأنها. ليس من قبيل الصدفة اتهام الحزب الشيوعي اللبناني وأنا خصوصاً بأننا قوميون شوفينيون معادون للاتحاد السوفيتي. الأكثر عياً كانوا يعتبروننا كالولد المشاكس. ولكن هذه كانت مميزتنا. وأعتقد بأنني كنت ولا زال أممياً أكثر منهم. لكن مفهومي للأممية هو مدى مساهمتي

كحزب وشعب في النهر الأممي الكبير وليس في تحولي إلى مستنقع أسن (...) تتجمع فيه مياه الأممية (...)!.

ارتبطت بمسيرة الرفيق جورج منذ بروزه الحزبي والسياسي قضايا عقدية كان له شأن في إثارتها. ومن ذلك موقفه من القضية القومية والأممية واستقلالية الأحزاب الشيوعية.

وفي سيرته الذاتية لم يترك هذه القضايا دون وقفة. لكنها للأسف وقفة لا تتناسب مع من شاء أن يقدم نفسه باستمرار كمجدد، وهو ما اكده في سيرته التي لم ينس أن يعرض فيها بالشيوعيين العراقيين أيضاً والشيوعيين العرب عموماً، مفخراً بأنه أكثر أممية منهم جميعاً.

لست أدري من أين استقى معلوماته عن تعريض الشيوعيين العراقيين بأمميته، إذ ليس بينهم من غرض بأمميته، ولا اعتقد أن أحداً منهم حاول ثلماًها.

ولكن الأممية — في رأي المتواضع — لا تستقيم أبداً مع إخضاع مصائر البلدان والشعوب الأخرى لمصالح أي طرف آخر، وليس للأممية علاقة بالتعاون مع دكتاتورية دموية. واعتبار خراب بلد وحزب وشعب «حلال» شأن لا يمس أو يخدم أممية «القائد» حتى وإن كان يوظف العلاقة معها لتصريف شؤون حزبه أو بلده. ثم كيف لأحد أن يعرض بأممية الرفيق، وهو الذي كان دائماً «بشهادة سيرته» وسيطاً مبادراً بين موسكو وعواصم اشتراكية أخرى، وقيادة المقاومة وعدن، وإثيوبيا وليبيا... الخ.

ليس أممي الرفيق جورج، إذ استمد منه الجراءة في الاستشهاد بالطرف والنكات، وما أكثرها مما لا يقال، فالأمين العام للجبهة الديمقراطية نايف حواتمة كان يعلق على وساطاته الأممية، «إن أممية الرفيق حاوي هي (ماركنتيلية) صرفة»، وأخشى أن الرفيق جورج كان حريصاً على إعطاء مثل هذا الانطباع في سيرته وتقديم نفسه بهذه الصورة، وهذا ما انعكس بوضوح في معرض نقاشه السالف مع علي غنام، ملمحاً إلى أن هجومه على النظام أو إيقافه مرهون بتقديم المساعدة لا غير، وليس لأي اعتبارات سياسية أو فكرية أو دعوى قومية.

ويعقب الصديق محسن إبراهيم في هذا السياق، أن وزير الخزانة الليبي استقبل وفداً ضمه وجورج وآخرين في مطار طرابلس وبعد أن حياهم الوزير سألهم كيف هي القضية؟ يقول محسن فوجئ الوزير عندما قلنا له بلسان واحد، جئناك بها، خذها أرجوك وأعطنا مفتاح الخزانة؟!

## «رائحة» الحركة الشيوعية، ورائحة «حركة ثورية جديدة»

مير حاي أممية منتقديه من الشيوعيين عن أمميته، بأنها مستنقع أسن (...) ... وقد استعدت بانتباه شريط المواقف الانعطافية القومية للرفيق حاي حول القضية القومية، ولم أستطع تحديد مضمونها بوضوح.

وهو لم يحدد موقفه من القضية القومية في المرحلة الراهنة، وماذا لحق به من تغيير، إذ أن مواقفه وتطبيقاته في هذا السياق تثير التساؤل والحيرة. ومرد الالتباس في توجهه لا يعود إلى قناعته بأن الحزب الشيوعي لم يعد إطاراً ملائماً لتحركة السياسي والفكري في ظروف ما بعد انهيار الاتحاد السوفيتي إذ أن من حقه الوصول إلى هذه القناعة، بل إلى البديل الذي يطرحه لتفعيل فصائل الحركة الثورية ليس كخيار للحزب الشيوعي اللبناني، وإنما للأحزاب الأخرى أيضاً. متجسداً بما يسميه «الحركة الثورية العربية» وهو خيار «قومي الشكل» دون محتوى واضح، مما يفقده مصداقيته السياسية والفكرية. فإذا كنت أوافق الرفيق جورج في جوانب من نقده للأحزاب الشيوعية وتخلف بعضها، لكن من العسير استيعاب تجليات هذا البديل الذي يطرحه تحت شعار حركة ثورية عربية جديدة، وهو المشروع الذي طرحه، كسبب من بين أسباب أخرى لتوكة الأمانة العامة للحزب الشيوعي اللبناني وكخيار لتجاوز تخلف الأحزاب وعجزها عن مواكبة الحركة القومية العربية والاستجابة لمتطلباتها.

إن جوهر هذا المشروع، كما تعكسه تحركات الرفيق ونشاطاته العربية منذ فترة طويلة، تستند إلى تبني التجربة الليبية، وتركز على دعمها. وتكاد كل مساعي ونشاطات الرفيق لتشكيل وإطلاق مبادرته لتأسيس الحركة المذكورة تبدأ وتنتهي عند هذه التجربة:

ومع تضامني مع الجماهيرية الليبية ومع الأخ العقيد معمر القذافي في مواجهة الاخطار التي تواجهها بلاده، فإن من الصعب على قومي متذور، وأنا لست منهم دون شك، قبول مثل هذا الربط بين الدعوة لتجديد حركة اليسار وتقويم مسار أطرافها من القضية القومية، وتطبيقات الرفيق حاي. إذ هل يعقل أن ينهار الاتحاد السوفيتي والمنظومة الاشتراكية (الشمولية)، وأن لا تجد قوى اليسار والتحرر بديلاً لها غير النموذج «الجماهيري»؟ وهل من المنطقي أن تنتهي جهود التجديد التي أعلن الرفيق

حاوي تكريس نفسه لها بعد استعفائه من الامانة العامة للحزب، عند هذا البديل؟، وهل ان التخلف ورفض التجديد في نظره حكم عادل على من يرفض منطلقاته لاستنهاض حركة اليسار وتياراتها المختلفة أو لا يستهدي أو يبشر ويثقف بالكتاب الأخضر مع أنه يحترمه كوجهة نظر، بدلاً عن رأس المال الذي لم تنقطع التنبؤات حول ما شاخ فيه وما لم يشخ. أو الإقرار بـ: «الطريق الثالث» - (الجماهيرية) بدلاً عما انهار من تجارب؟

### التجربة اليمنية المغدورة وخبرة الأشقاء

ربما بمحض الصدفة، كنت في عدن في نفس الفترة التي كان فيها الرفيق جورج عشية المأساة الدامية التي أغرقت الحزب الاشتراكي اليمني وتجربته بالدم والهزيمة. ولقد قابلت القادة من الطرفين، وتمنيت على من قابلت من الاصدقاء أن يساهموا في تهئية الاوضاع، ويسعوا للحيلولة دون تفجر الاحداث، وكنت أخفي الحقيقة عن الجميع عندما انقل لكل طرف كلاماً إيجابياً عن الآخر، وهو لا يصدق!.

وأذكر آخر اتصال تلفوني لي من بيت الفقيه علي بإذيق مع الرفيق علي ناصر محمد الأمين العام للحزب الاشتراكي اليمني، في ساعة متأخرة من ليلة الاحداث الدامية، محاولاً طرح اقتراح للتهئية، فطلب مني الامتناع عن الاسترسال بالتلفون، على أن يرسل لي الصديق الفقيه فاروق علي أحمد ليضعني في صورة التطورات، ويسمع ما عندي، عند وصوله، طلب الانفراد معي في حديقة المنزل، وأبلغني أن الصدام حتمي لا محالة معززاً استنتاجه بما نقله إليه الرفيق حاوي ليوصله الى علي ناصر. «ان علي عنتر، حسب رواية حاوي، هدد بأنه سيقول علي ناصر غداً في اجتماع المكتب السياسي وأن احد الطرفين يجب أن يخرج من المعادلة! وقد ورد هذا أيضاً في سيرة الرفيق جورج. قبل يومين من المجزرة زرت الفقيه علي عنتر ونقلت له أن الثورة تتحمل أكثر من علي لقيادتها.

قال لي ببساطة... انتم العراقيون تحبوننا جميعاً، حتى إذا كنتم منحازين فكرياً علي ناصر، إلا أن الرفيق جورج للأسف يحرض الآخرين علينا ويتهمنا بأننا حثالة الرجعية! «لن انقل نص كلامه».

في هذا السياق، ومنعاً لأي التباس، يهمني التأكيد على أن الحزب الشيوعي اللبناني

كان حريصاً دون أننى شك على التجربة اليمنية. ولكن انشداد الرفيق جورج إلى أسلوبه في معالجة ما كان يتدخل فيه، كانت تصب في أحيان غير قليلة لغير صالح القضية. وهكذا ذهبت التجربة اليمنية ضحية الإسقاطات «الإرادية» على عمليات التغيير في البلاد وعدم نضوج مقدماتها... ضحية الصراع المنفلت على السلطة بالمعايير القبلية والمناطقية... ضحية حسن نوايا قادة الحزب الاشتراكي بالخبرة التاريخية لاشقائهم، ولرفاقهم من قادة حركة القوميين العرب الفلسطينيين حيث حاول كل طرف في الحزب أن يستميل هؤلاء القادة إلى جانبه وكم كان سهلاً أن يسمع كل منهم ما يعجبه ويثيره من بعض هؤلاء القادة.

أخيراً.. لا بد لي في الختام أن أعبر عن الأسى والحزن لعجزني عن التزام الصمت والإبقاء بتمهدي مع نفسي بتجنب الكلام، وكل شيء من حولنا يتحول وينقلب، فقد تركت منذ بضع سنوات العمل القيادي متفرغاً للنشاط الثقافي والفكري، تقديرًا، وربما توهمًا بإمكانية تقديم ما يضيف مصداقية أكثر على التفاعل مع المشاعر المحبطة للناس وتوقعهم للخلاص من محتهم وعذاباتهم ووساوسهم وأوهامهم وأحلامهم...

أشعر بالحزن لأن الرفيق جورج بملاحظاته الجارحة لم يترك لي خياراً آخر. ولم يبذل الجهد لكي يوظف ذاكرته وذكرياته، في مثل هذه الظروف الصعبة والمعقدة، مساهمة منه في إيقاف الانحدار والتدهور ولاستنهاض الناس واستعادة ثقتهم، ومعافاة المناخ السياسي والفكري الملوث، دون أن يتجنب قول الحق وعرض الوقائع. بعيداً عن اغراءات الاثارة الاعلامية.

أشعر بالحزن لأنني طالما أبديت إعجابي بالعمل القيادي الجماعي للحزب الشيوعي اللبناني، وبالديمقراطية الحزبية التي يتيحها الحزب لجميع الكوادر للمساهمة في رسم سياسته وتوجهاته. وإذا بالرفيق جورج يصدمنا إذ يقدم لنا كل ما كان يبدو أنه حصيلة نقاش وجهد جماعي في القيادة والحزب، إن هو إلا مبادرة وإنجاز فردي وشخصي.

## لماذا أخفيت مخطوطات قمران؟

د. أحمد عثمان

أثار الإعلان عن اكتشاف مخطوطات عربية وأرامية قديمة بمنطقة قمران في أعقاب الحرب العالمية الثانية، حماس الباحثين في تاريخ الكتب المقدسة، وراحوا ينتظرون العثور بينها على المعلومات التي يمكن أن تزيل الغموض عن مرحلة هامة من التاريخ الإنساني. ذلك أن أقدم نسخة عبرية موجودة الآن من كتب العهد القديم (التوراة) ترجع إلى القرن العاشر بعد الميلاد، وهي تتضمن اختلافات عديدة مع النسخة السبعينية اليونانية التي ترجمت في الاسكندرية خلال القرن الثالث قبل الميلاد. أيهما أكثر صحة عند الاختلاف وإيهما يمكن الاعتماد عليه؟ ولا يتوقف الأمر على الجماعات اليهودية فإن الكنائس المسيحية تعتبر العهد القديم جزءاً من كتابها المقدس، وبينما كان المسيحيون حتى القرن العاشر يستخدمون الترجمة السبعينية اليونانية، فهم قد تحولوا عنها — باستثناء الكنيسة اليونانية — إلى ترجمة النسخة العبرية منذ ذلك التاريخ. كما أن المعلومات التي وصلتنا عن السيد المسيح جاءت كلها من كتابات دُوِّنت بعد نصف قرن، على الأقل، من الوقت الذي حددته لوفاته، وليس هناك نص واحد جاء فيه ذكر المسيح في المصادر التاريخية المعاصرة للفترة التي قيل إنه عاش فيها.

وعلى هذا فإن العثور على كتابات قديمة، سابقة أو معاصرة للفترة التي عاش فيها المسيح، وفي منطقة لا تبعد إلا بضعة كيلومترات عن القدس التي قيل أنه مات فيها، انعش الآمال في وجود معلومات تحل هذه الألغاز وتبين حقيقة الأمر في تاريخ مؤسس



الديانة المسيحية، وعلاقته بالجماعات اليهودية التي كانت موجودة في عصره. وزاد الحماس عند نشر الأجزاء الأولى من المخطوطات في الستينات، وتبين أنها تنتمي إلى جماعة يهودية / مسيحية تعرف باسم العيسويين، وأنه كان لهم معلّم يشبه في صفاته عيسى المسيح. إلا أن الحماس الذي ساد بين الباحثين والقراء قابله قلق وخشية من جانب بعض السلطات الدينية، وما يتبعها من هيئات أكاديمية. وليست دواعي هذا القلق تتعلق بالخوف على أن المعلومات المكتشفة قد تؤدي إلى إضعاف إيمان المؤمنين، فهذه كتابات دينية قديمة، وإنما ساد القلق بسبب ما قد تكشفه هذه النصوص من تغيير وتبديل — ليس فقط في حقائق التاريخ القديم — وإنما في تفسير النصوص الدينية وفي مغزاهما كذلك. ولهذا فمُنذ أن استولت السلطات الإسرائيلية على القدس القديمة بعد حرب يونيو (حزيران) ١٩٦٧، توقفت نشر المخطوطات تماماً. ولا يزال ما يزيد عن نصفها غير منشور، بل إن السلطات الإسرائيلية، في محاولة لاسكات الأصوات التي ارتفعت في العالم تطالبها بنشر المخطوطات، عمدت إلى تمثيلية مرسومة للتخلص من هذا الإلحاح. فإرسلت سلطات الآثار الإسرائيلية صوراً فوتوغرافية، زعمت أنها تمثل كل المخطوطات الموجودة في متحف روكفلر بالقدس، إلى جامعة أكسفورد البريطانية وكذلك إلى إحدى الجامعات الأمريكية (التي باعتهما إلى مكتبة هانتينجتون بكاليفورنيا) وتظاهرت السلطات الإسرائيلية بالغضب والاحتجاج عندما قامت هذه الجامعات بترجمة ونشر الصور التي في حوزتها، بدون تخويل من إسرائيل.

وكان الهدف من هذه التمثيلية الإيحاء بأن كل نصوص المخطوطات قد تمت ترجمتها ونشرها، ولم يعد هناك مبرر لمطالبة السلطات الإسرائيلية بالكشف عما في حوزتها من كتابات. ومن المؤكد أن هناك بعض النصوص والقصاصات التي لم تترجم بعد، والتي يراد لها النسيان مرة أخرى. إلا أن الجزء الذي نشر في البداية يكفي ليبين لنا طبيعة الأسرار التي يحرص البعض على عدم الكشف عنها.

تم العثور على الكهف الأول في ربيع ١٩٤٧ بالقرب من البحر الميت، وكانت فلسطين تحت الحماية البريطانية والقدس والضفة الغربية في أيدي الفلسطينيين. عثر عليه مصادفة صبي من قبيلة التعامرة التي تتجول في المنطقة بين بيت لحم والبحر الميت، ووجد بداخله عدة أوعية فخارية بها لفافات تحتوي على سبع مخطوطات. وسرعان ما ظهرت هذه المخطوطات معروضة للبيع عند تاجر للأنتيكات في بيت لحم عرف باسم كاندو، الذي باعها لحساب التعامرة. فقام مار أثناسيوس صنموثيل —

رئيس دير سانت مارك للكاتوليك السوريين - بشراء أربع مخطوطات بينما اشترى الأستاذ إليعازر سوكينوك الثلاث الباقية لحساب الجامعة العبرية بالقدس. ولما قامت الحرب العربية الإسرائيلية على أثر إعلان قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ خشي أناسيوس على مصير هذه المخطوطات، فأرسلها إلى الولايات المتحدة للبيع فاشترها إيجال يادين - ابن الأستاذ سوكينوك - لحساب الجامعة العبرية كذلك. وهكذا أصبحت المخطوطات السبع الأولى في حوزة الجامعة العبرية.

وعند إعلان الهدنة بين الدول العربية وإسرائيل في مطلع ١٩٤٩، أصبحت منطقة قمران - والثلاث الشمالي من منطقة البحر الميت - تحت سيطرة المملكة الأردنية الهاشمية. وبدأ الأردنيون ينظمون عمليات أثرية للبحث عن المخطوطات، وبالرغم من تكتم التعامرة على موقع الكهف استطاع الجيش الأردني العثور عليه بعد أسابيع. ثم نظمت السلطات الأردنية عمليات تنقيب داخل الكهف نفسه، بإشراف هاردينج البريطاني، الذي كان مدير الآثار الأردنية حينذاك، والكاهن الفرنسي رولاند دي فو، مدير مدرسة (الإيكول بيليك دي فرائس) بالقدس الشرقية. وعثر على مئات القصاصات الصغيرة داخل الكهف، إلى جانب قطع من الفخار والقماش والخشب ساعدتهم على تحديد تاريخ المخطوطات. إلا أن عمليات التنقيب لم تبدأ في بقايا خربة قمران وهي المنطقة السكنية التي تقع أسفل الكهف - إلا في خريف ١٩٥١، حيث تم العثور على اطلال القرية القديمة التي عاش بها العيسويون، وبها بقايا رومانية من بينها عملات نقدية يشير تاريخها إلى أن هذا الموقع كان مسكوناً إلى أن قامت حركة التمرد اليهودية ضد الرومان بين عامي ٦٦ و ٧٠ ميلادية، والتي انتهت بحرق القدس وطرد اليهود من المنطقة المحيطة بها.

وطمعا في الكسب، انتشر التعامرة في كل وديان البحر الميت بحثاً عن مخطوطات أخرى في الكهوف العديدة في هذه المنطقة الجبلية، وفي شتاء ١٩٥٢ استطاعوا العثور على كهف به كثير من المخطوطات التي تحللت إلى قصاصات صغيرة ياعوها إلى السلطات الأردنية. واتبعت سلطات الآثار الأردنية نفس الطريقة التي اتبعها التعامرة في البحث داخل كهوف البحر الميت عن المخطوطات، وانتهى الأمر عام ١٩٥٦ باكتشاف مجموعة من أحد عشر كهفاً في منطقة قمران تم ترقيمتها، وبينما عثر التعامرة على أربعة كهوف ٨، و٤، و٦، و١١، فإن الآثار الأردنية عثرت على السبعة الباقية.

وتم نشر محتويات المخطوطات السبعة التي عثر عليها في الكهف الأول، فقد سمع

المار أثناسيوس للمدرسة الأمريكية للدراسات الشرقية في القدس بتصوير ونشر المخطوطات الأربع التي في حوزته، وبالفعل قامت المدرسة أولاً بنشر صور لهذه المخطوطات بين ١٩٥٠ و ١٩٥١، حتى تسمح للباحثين بالإطلاع عليها، ثم تبعت هذا بنشر ترجمة انجليزية لها. كما قامت الجامعة العبرية بنشر صور المخطوطات الثلاث التي حصلت عليها مع ترجمة لها عام ١٩٥٤.

وأصبح الأب دي فو الكاثوليكي الفرنسي هو المسؤول عن عمليات البحث الأردنية، وبالتالي عن عمليات اعداد وترجمة ونشر النصوص التي تم العثور عليها، فأوكل قصاصات الكهف رقم ١ إلى (دومينيك بارثيلمى) و (ميليك) اللذين يعملان معه في الإيكل بيبليك دي فرانس، وبالفعل تم إعداد ونشر الترجمة الانجليزية لها عن جامعة اكسفورد عام ١٩٥٥. إلا أن الحكومة الأردنية قامت عام ١٩٥٢ بتشكيل لجنة عالمية من ثمانية باحثين — ليس بينهم عربي واحد — لتولي إعداد المخطوطات ونشرها، برئاسة دي فو. وحضر جميعهم من فرنسا وانجلترا والولايات المتحدة وألمانيا إلى القدس للعمل. واجه أعضاء اللجنة مهمة عسيرة في محاولتهم ترتيب عشرات الآلاف من القصاصات الصغيرة من الجلد أو أوراق البردي، ثم تجميع هذه القصاصات على أساس التشابه في نوع الخط أو موضوع الكتابة والتعرف على مكان كل منها في المخطوطة بشكلها الأول قبل تمرقها. ولأن معظم القصاصات متسخة ومنحنية كان عليهم أولاً تنظيفها بعناية، ثم حفظها بين لوحين من الزجاج الشفاف لتسويتها وحمايتها.

وتمكن الباحثون من تقسيم آلاف القصاصات إلى ما يزيد على خمسمائة قسم، كل منها يمثل مخطوطة أصلية، أي أنهم توصلوا إلى أن عدد المخطوطات المحفوظة بالكهف رقم ٤ كان ٥٠٠. وبالطبع فإن هذا العمل يحتاج إلى صبر ودقة في العمل ووقت طويل، خاصة وأن عدد الباحثين العاملين كان صغيراً. ثم قامت الحكومة الأردنية عام ١٩٦١ بإعلان تأميم ملكية المخطوطات. وتم عام ١٩٦١ نشر ترجمة المخطوطات التي عثر عليها في كهوف مربعات (جنوبي منطقة قمران) التي ترجمها ميليك، في الجزء الثاني، وتضمن الجزء الثالث الذي نشر عام ١٩٦٢ مخطوطات كهوف منطقة مينور، والجزء الرابع المزمير التي وجدت في الكهف رقم ١١ عام ١٩٦٥، والجزء الخامس القصاصات التي عثر عليها في الكهف رقم ٤ عام ١٩٦٨.

وكان بدو التعاامرة عثروا في أكتوبر ١٩٥١ على مخطوطات مكتوبة بالعبرية واليونانية في أحد الكهوف بوادي مربعات وعرضوها على السلطات الأردنية لشرائها.

وكذلك عثر التعامرة في نفس الفترة على بعض الكتابات المسيحية في منطقة الميرد القريبة من قمران، من بينها كتابات سريانية وعربية.

عندما سقطت الضفة الغربية تحت السيطرة الإسرائيلية في يونيو عام ١٩٦٧، أصبح متحف القدس الذي وضعت به المخطوطات في حوزة إسرائيل، عدا المخطوطة النحاسية التي كانت في عمان، واستطاع دي فو الإتفاق مع الإسرائيليين على استمرار اللجنة في عملها فيما يتعلق بقصاصات الكهف رقم ٤، إلا أنه منذ وقوع متحف القدس في أيدي السلطات الإسرائيلية لم يتم نشر سوى عدد قليل من المخطوطات التي تم تجميعها من الكهف الرابع، وإذا جاز الليجرو أخباراً تقيد بأن الجماعة الكاثوليكية المسيطرة على لجنة المخطوطات، تتعمد إخفاء ما تتضمنه بعض النصوص نظراً لمخالفاتها لتعاليم الكنيسة. ذلك أن غالبية النصوص التي عثر عليها في الكهوف الأخرى كانت عبارة عن نسخ من كتب العهد القديم، ليس بها معلومات هامة عن جماعة قمران ومعتقداتها الخاصة، بينما تتضمن مخطوطات الكهف ٤ العديد من كتابات الجماعة نفسها، وطريقة تفسيرها للكتب التوراتية. إلا أن سلوك الليجرو نفسه كان غريباً إذ أنه نشر كتاباً عام ١٩٧٠ بعنوان «الفطر المقدس والصليب» ذهب فيه إلى أن المسيح كان شخصية غير تاريخية وأن الجماعة المسيحية الأولى كانت تستخدم الفطر المخدر في طقوسها الدينية. وبالطبع فإن أحداً لم يأخذ رواياته على محمل الجد.

عند محاولة التعرف على الجماعة التي كانت تسكن في برية قمران بين منتصف القرن الثاني قبل الميلاد ومنتصف القرن الميلادي الأول، والتي تركت كتاباتها مخبأة في كهوف قمران، نجد أن هناك اتفاقاً بين الباحثين على أن ما عثر عليه في كهوف قمران ما هو إلا مكتبة الجماعة القديمة المعروفة باليسويين، إلا أن الخلاف لا يزال قائماً حول الأصل المحلي لهذه الكلمة ومغزاها. يقول أشهر الآراء بأن هذا الاسم مشتق عن الكلمة الآرامية القديمة (عيسي) أي طبيب. وأنا اختلف مع هذا الرأي، من الناحية اللغوية وكذلك لأن هؤلاء النساك - وإن كانوا يستخدمون العقاقير لعلاج بعض الأمراض المستعصية - ليس هناك في الكتابات القديمة، التي تحدثت عنهم، ما يفيد بأنهم اشتهروا بممارسة الطب.

ورد اسم الجماعة مكتوباً باللغة اليونانية في كتابات فيلو جوداياس وجوزيفوس وبلييني الكبير، على أنه «إيسينوي» أو «إيسايوس» واسم الشخص الذي ينتمي إليها «إيساوي» الذي اُختار الباحثون في معرفة أصله. فالمشكلة الرئيسية التي تواجه

الباحثين في هذه الحالة أنه بالرغم من أن اسم هذه الجماعة مصدره كلمة محلية، إلا أنه لم يتم العثور عليه مكتوباً إلا باللغة اليونانية، ويكون علينا محاولة التعرف على الأصل المفقود. فاقترح الباحثون العديد من الكلمات العبرية والآرامية وليس هناك اتفاق بينهم على كلمة بمعناها للدلالة على هذه الطائفة التي كانت موجودة بفلسطين، إلا أن هناك إشارات قوية إلى علاقة هذه الجماعة بتلاميذ النبي أشعيا الذين انفصلوا عن يهود المعبد وراحوا يمهدون لمجيء المخلص في آخر الأيام. واسم أشعيا بالعبرية «يشع ياء» مثل «يشوع» و«يسوع» ومعنى كل هذه الأسماء واحد هو «خلاص الرب». واسم يسوع باليونانية — والذي هو عيسى بالعربية — يكتب «إيسو». ويبدو أن اسم أشعيا نفسه قد أطلق على عدة تلاميذ للنبي أشعيا. وعلى كل حال فمن المؤكد أن جماعة قمران كانت لها علاقة قوية بالنبي أشعيا، حيث تم العثور في مكتبته على نسخ عديدة من كتاباته، وكانوا يفسرونها تفسيرهم الخاص الذي احتفظوا به، سرا، وخاصة الأجزاء المتعلقة بـ «أناشيد عبد الرب» و«مولد عمانوئيل»، وهي نفس النصوص التي اعتمد عليها كتبة الانجيل في الإشارة إلى ميلاد عيسى المسيح، والتي وصفوها بأنها كانت نبوءات بما سيحدث للمعلم.

ولن يكون أمر التعرف على الكلمة الأصلية بهذه الصعوبة لو تذكرنا أن حرف العين موجود في اللغة العربية (وجميع اللغات السامية الأخرى) يتحول إلى ألف في اللغات الأوربية، ومن بينها اليونانية. فكلمة «عرب» تتحول إلى «أرب» وكلمة «عمر» تتحول إلى «أومر»، وكلمة «عيسى» تتحول إلى «إيسا». ونحن لو استبدلنا الألف بالعين في الكلمة اليونانية، لوجدنا أن الكلمة الأصلية التي تدل على عضو الجماعة تصبح «عيساوي» ويكون اسم الجماعة في اعتقادي «عيسويين».

وبحسب ما جاء في كتاب بليني عن التاريخ الطبيعي فإن هذه الجماعة كانت تسكن بين مدينة أريحا في وادي الأردن شمالاً، ومدينة عين جدي على البحر الميت جنوباً، وهو نفس المكان الذي يضم خربة قمران. وهم ينقسمون إلى قسمين، قسم يعيش مثل الرهبان، لا يتزوج، وقسم آخر يتزوج. ولكنهم جميعاً يحاولون الابتعاد عن الشهوات وملذات الحياة، ويتنازلون عن أموالهم وأملأهم للجماعة، فليس بينهم غني ولا فقير إذ يشتركون جميعاً في ملكيتهم الجماعية. وهم يعتبرون أن الوجود المادي للإنسان والمتمثل في الجسد، هو وجود مؤقت فإن، وإنما الحياة الحقّة لديهم هي الحياة الروحية.. ولذلك فهم لا يخشون الموت بل يرحبون به. ويرتدي العيسويون رداء

أبيض.. وهم يستيقظون مبكراً فيؤدون الصلاة عند الفجر، ثم يذهبون إلى أعمالهم التي هي عادة تتعلق بفلاحة الأرض، وكانوا يقومون بصلاتهم الثانية عند غروب الشمس قبل العشاء الذي يتكون من الخبز ونوع واحد من الخضراوات.

ويعتبر التطهر بالماء قبل الصلاة من أهم عاداتهم. لم يقبلوا النساء أعضاء في طائفتهم وكان الراغب في الانضمام إليهم يوضع أولاً تحت الاختبار مدة عام، فإن ثبت صلاحه سمح له بعامين آخرين يشارك أثناءهما في بعض الطقوس فقط، ولا يصحح عضواً كاملاً إلا بعد ثلاث سنوات. كانوا يقضون معظم الليل في قراءة كتبهم المقدسة التي تتضمن إلى جانب التوراة كتب الأنبياء، خاصة سفر أشعيا، وهم يغسرون النصوص تفسيراً مجازياً وليس حرفياً، ولذلك لا يفهم مغزى كلامهم إلا من اطلع على أسرار تعاليمهم. كما أنهم يحرمون القسم على أعضائهم إلا قسم واحد عند قبولهم في الجماعة، وهو على عدم البوح بأسرارهم. ومن أهمها أسماء الملائكة التي كان عليهم حفظها. ولم يكن باقي اليهود يعتقدون بوجود الملائكة. كما اعتقد العيسويون بخلود الروح وقيامه الأموات. ولهذا يعمل الكثير من الباحثين الآن إلى اعتبارهم من «اليهود المسيحيين».

كانت معظم الخلافات بين اليهود والمسيحيين الأوائل تتعلق بتفسير ماورد في كتب العهد القديم، بخصوص المسيح المنتظر. وبينما اعتبر المسيحيون أن ماورد في كتب الأنبياء فيما يتعلق بعبد الرب وابن الإنسان وعمانوئيل والنبي خليفة موسى، إنما كانت كلها تتحدث عن عيسى المسيح وتبشير بقدمه، قال اليهود إنها كانت تتعلق بشعب إسرائيل وخلصه، وإن مسيحهم مازال منتظراً. وكانت هناك بعض النصوص التي وردت بالترجمة اليونانية لكتب العهد القديم تختلف عما هو موجود بالكتب العبرية التي لدى اليهود، فأيها أصدق؟ بل إن أسفاراً بإكملها وجدت في النص اليوناني للعهد القديم ولم توجد بالنص العبري، وهي تتضمن تفاصيل هامة فيما يتعلق بمجيء المخلص. كما وأن الشخصية التاريخية للسيد المسيح لا يعرف اليهود عنها أي شيء. فيخالف ما ورد في كتب العهد الجديد (الانجيل) والذي يتعلق بمولد المسيح في بيت لحم وحياته في الناصرة وموته في القدس، فإن أحداً من المعاصرين لبداية القرن الميلادي الأول — سواء من اليهود أو الرومان — لم يذكر عنه شيئاً. وتبين أن الفقرة التي وردت عنه في كتابات جوزيفوس إنما هي إضافة لاحقة قام بها أحد الناسخين المسيحيين. لذلك فإن العثور على مخطوطات قمران التي كتبت بين القرن الثاني السابق للميلاد ومنتصف

القرن الميلادي الأول، أثارت الأمل في وجود معلومات بها تحل هذه الألغاز وتفسر الأحداث تفسيراً تاريخياً. بل إن البعض كان يأمل العثور على نسخ قديمة من أناجيل العهد الجديد في قمران، أو على إشارة تتعلق بالحواريين.

ولكن الذي حدث كان يختلف تماماً عن هذا كله، فلا ذكر للسيد المسيح حياً في هذه الفترة، وإنما هناك جماعة شبه مسيحية تعيش في قمران، على بعد عدة أميال من القدس، وهي تنتظر عودة معلمها الذي سبق له أن مات، وتعتبر كهنة المعبد اليهودي ممثلين للشيطان على الأرض، ومسؤولين عن موت معلمهم الصديق. كما أن الكتب التي قبلها المسيحيون ورفضها اليهود، وجدت جميعها ضمن مكتبة العيسويين في كهوف قمران.

بلغت الكتب التوراتية في مكتبة قمران حوالي مائتي كتاب، فقد عثر على عدد كبير من أسفار كتب العهد القديم — باستثناء كتاب استير — وإن كان بعضها لم يبق منه إلا قصاصات صغيرة. وأكثر نسخ وجدت لكتاب واحد كانت للزامير التي بلغ عددها ٢٧ نسخة وسفر التثنية الذي وجدت منه ٢٥ نسخة، ثم سفر أشعيا الذي وجدت منه ١٨ نسخة.

أما الكتابات التي لا تدخل في قانون العهد القديم فهي نوعان، نوع يسمى «أبوكريفا» مثل سفر توبيت وسفر حكمة بن سيرا والجزء المكتوب باليونانية من رسالة إرميا، وهذا النوع وإن لم يدخل في قانون النص العبري المازوري إلا أنه موجود في النص اليوناني السبعيني. والنوع الآخر أسفار مكتوبة بين القرن الثاني السابق للميلاد ونهاية القرن الميلادي الأول، رفض الأقباط اعتبارها بين كتبهم المقدسة وأصبحت تعرف باسم «سوديجراف». إلا أن الترجمة اليونانية لهذه الكتب حفظها المسيحيون — أحياناً بالسريانية أو الأرمنية أو الحبشية — الذين اعتبروها كتباً مقدسة. وقد تم العثور على بعض هذه الكتب في مخطوطات قمران — مثل عهد الأساط الاثني عشر وسفر إينوخ — مما يبين أن جماعة العيسويين كانت تدخلها ضمن مكتبتها.

وجدت كذلك كتابات تفسيرية تشرح الكتب المقدسة بطريقة الجماعة، بالمجاز وليس على أساس حرفية النص كما كان الكهنة يفعلون. وجد عدد من الكتب يحتوي على تفسير لأسفار العهد القديم، يختلف أحياناً عن التفسيرات التي نجدها في كتب التلمود. فمثلاً في كتاب تفسير سفر التكوين، وهو أول كتب العهد القديم، نجد أن القصة التي جاءت في التوراة بشأن زواج فرعون من سارة، قد جاء تفسيرها على أن الملك المصري

هو الذي خطف سارة فأصابه المرض حتى اضطر إلى أرجاعها لزوجها إبراهيم: فالقصة تقول: «عندما سمع حاركتوش (الأمير المصري) كلام لوط (ابن أخي إبراهيم)، ذهب إلى الملك وقال له: كل هذه الكوارث وهذا الكرب، الذي أصاب سيدي الملك، كان بسبب سارة زوجة إبراهيم. اترك سارة ترجع إلى زوجها، وسوف تختفي هذه الكوارث والقروح عنك».

والى جانب الكتب الدينية فقد عثر في قمران على كتابات تختص بجماعة العيسويين نفسها، مثل «كتاب التلاميذ» و«مخطوطة دمشق» و«مزامير الشكر» و«مخطوطة الحرب».

منذ أن سمح قورش الفارسي لليهود ببناء معبد القدس، وعودة الكهنة من بابل خلال القرن الخامس قبل الميلاد، كانوا يستخدمون في عبادتهم التوراة، وهي الكتب الخمسة الأولى من العهد القديم والتي تحتوى على تعاليم موسى. إلا أنه ظهرت بينهم كتابات أخرى عديدة مثل تلك التي تحكي تاريخ بني إسرائيل بعد موسى، إلى جانب الكتب المنسوبة إلى مجموعة من الأنبياء ظهرت بين القرن العاشر والقرن السادس قبل الميلاد، وكتابات الحكمة والمزامير.

وبينما كانت جماعة العيسويين تهتم بجميع هذه الأسفار، وتفسر التوراة على أساس من تعاليم الأنبياء وأشعار المزامير، فإن كهنة المعبد كانوا يحصرون اهتمامهم بالأسفار الخمسة الأولى. وعندما اختفت طائفة الكهنة بعد أن دمر الرومان معبد القدس عام ٧٠ ميلادية، قام الفقهاء من أحبار اليهود ببناء الديانة اليهودية حول التعاليم التلمودية التي قالوا بها لتفسير التوراة، حيث اعتقدوا بوجود توراة شفوية، غير التوراة المكتوبة، وصلتهم نقلًا عن موسى، وفسروا النصوص المكتوبة على أساسها.

وعندما ظهرت الديانة المسيحية، التي اعتمدت في محاجاتها لليهود على ما جاء بكتابات الأنبياء والمزامير، ظهر خلاف بينهم حول الأسفار التي يمكن اعتبارها من بين الكتابات المقدسة. واجتمع عدد من الأحبار عند نهاية القرن الميلادي الأول بمدينة صغيرة اسمها يمنية بالقرب من يافا، وقاموا بمراجعة جميع الكتابات الموجودة لديهم وتقرير ما يمكن أن يدخل منها في ما أصبح يعرف باسم «القانون» — أي التي يمكن اعتبارها جزءاً من العهد القديم — واستبعدوا الكتابات الأخرى. وعلى هذا الأساس فإن النص العبري الذي تم العثور عليه في نهاية القرن العاشر والذي أصبح أساساً للترجمات الحديثة، يعتمد على هذا القانون الذي تم اختياره وتجميعه عند نهاية القرن



الأول للميلاد.

إلا أن الملك بطليموس الثاني — الذي أنشأ مكتبة الاسكندرية — كان قد استحضر مجموعة من كتبة القدس إلى الاسكندرية خلال القرن الثالث قبل الميلاد، وجلبوا معهم كتبهم وتمت ترجمتها إلى اللغة اليونانية، وهي الترجمة التي تعرف باسم النص السبعيني. ولأن الكنيسة المسيحية استخدمت اللغة اليونانية منذ نشأتها، فقد أصبح هذا النص السبعيني لكتب العهد القديم، هو المستخدم لدى جميع الكنائس المسيحية حتى القرون الوسطى. إلا أنه بعد ترجمة النص العبري إلى اللاتينية واللغات الأخرى في القرن السادس عشر، تبين وجود عدة فوارق بينه وبين النص السبعيني، مثل وجود أجزاء ناقصة أو زائدة، وكذلك وجود بعض الاختلافات في الكلام نفسه وفي أسماء الاعلام والتواريخ كذلك. كما أن هناك أسفاراً في المجموعة السبعينية اليونانية لكتب العهد القديم، ليست موجودة في القانون العبري المازوري، أصبحت الآن تعتبر من الكتب الدينية المشكوك في صحتها والتي يطلق عليها اسم «أبوكريفا». وظل الخلاف قائماً بين دارسي التوراة، فبينما يصبر بعضهم على صحة أحد النصوص ويذكر الآخر، يحاول آخرون التوفيق بينهما. ولهذا فعندما تم العثور على مكتبة قمران في أعقاب الحرب العالمية الثانية، توقع الباحثون أن تكون هذه هي فرصتهم لحسم الخلاف. وأهمية الكتب التي عثر عليها في قمران أنها ترجع، على الأقل، إلى القرن الثاني قبل الميلاد، أي حوالي زمن الترجمة السبعينية اليونانية، وقبل أن يختار أحبار اليهود الكتب التي تدخل القانون، ويقررون اعدام ما عداها.

وكان سفر أشعيا هو أهم ما ترجم من مخطوطات قمران ونشر عام ١٩٥٢، ولكنه لم يظهر سوى اختلافات بسيطة عن النص العبري المازوري، يمكن اعتبارها أخطاء إملائية أو اختلافات في طريقة تركيب الجمل. إلا أن الوضع تغير بعد ذلك عندما نُشر فرائك موركروس — أحد الخبراء المسؤولين عن ترجمة النصوص — جزءاً من سفر صموئيل جاء من الكهف ٤، وتبين أن هناك اختلافاً جوهرياً بينه وبين نظيره في النص المازوري، بل أن به فقرة غير موجودة إطلاقاً في النص المازوري. لكن عندما قام بمقارنة هذا النص مع نظيره في الترجمة السبعينية اليونانية، وجده يتفق اتفاقاً كاملاً معه. إلا أن فرائك روس عندما قام بترجمة جزء آخر من نفس المخطوط، لاحظ وجود اختلاف فيه — ليس فقط مع النص المازوري — وإنما مع النص السبعيني كذلك، وإن اتفق مع النص السامري. فهناك جماعة صغيرة من السامريين تعيش في منطقة نابلس، لديها كتابها

المقدس الذي يحتوي على الأسفار الخمسة الأولى فقط من كتب العهد القديم، وتعتقد الجماعة بأن أصله يعود إلى أيام النبي موسى. وهناك اختلافات عديدة بين ماورد في الأسفار السامرية وما جاء في كل من النص العبري المازوري واليوناني السبعيني. ومن بين نقاط الخلاف ذات الدلالة الهامة ما يتعلق منها بالمدة التي قضها بنو إسرائيل في مصر. فبينما يقول النص العبري بأن بقاءهم في مصر كان لمدة ٤٣٠ سنة، فإن النص السامري (ويتفق معه في هذا النص اليوناني) يجعل هذه المدة تشمل بقاء بني إسرائيل في كنعان وفي مصر، أي الفترة منذ مجيء إبراهيم إلى كنعان إلى خروج موسى إلى سيناء.

إلا أنه تم العثور على رقعة صغيرة في الكهف رقم ٤ بقمران مكتوبة بالعبرية تحتوي على جزء من سفر الخروج، وجد أنها تتفق مع القراءة السامرية في بعض الأجزاء التي تختلف فيها عن النص العبري. وهذا يدل على أن الأسفار السامرية ترجع إلى نص قديم كان موجوداً منذ نشأة هذه الجماعة في القرن الخامس قبل الميلاد، لم يحدث به تغيير.

وهكذا فنحن نجد بين الكتابات التي عثر عليها في كهوف قمران من العهد القديم، ما يتفق منها مع النص العبري المازوري وما يتفق مع النص اليوناني السبعيني وما يتفق مع النص السامري، إلى جانب كتابات أخرى تحتوي على مزيج من هذه النصوص. كل هذا يدل على أنه كان هناك — على الأقل — أربعة كتابات مختلفة لذات الأسفار التي تدخل ضمن مجموعة العهد القديم، مما دفع بعدد كبير من الباحثين المسيحيين إلى المطالبة بعدم الاقتصاد على النص المازوري عند القيام بترجمات جديدة، وإنما باختيار الأصل والأقرب إلى الصحة من بين النصوص الموجودة.

ونشب الصراع خفياً بين لجنة المخطوطات وبين سلطات الآثار الإسرائيلية منذ سيطرتها على متحف القدس في ١٩٦٧، إلا أن الأمور استمرت على ما كانت عليه لأكثر من عشرين عاماً حتى بدأ الصراع المكشوف الذي أدى إلى استبعاد السيطرة الكاثوليكية وإحلال سلطة الآثار الإسرائيلية مكانها عام ١٩٩١.

ففي عام ١٩٩١ ظهر في لندن كتاب بعنوان «خداة مخطوطات البحر الميت»، للكاتبين مايكل بيجت وريتشارد لي، اتهما فيه الفاتيكان صراحة بالتدخل في عملية ترجمة ونشر مخطوطات قمران، ومحاولة إخفاء معلومات وردت بها مخالفة للتعاليم الكاثوليكية. واعتمد المؤلفان في ادلتهم على التأخير الذي زاد على أربعين عاماً في نشر

مخطوطات كهف قمران رقم ٤. فمن بين خمسمائة نص عثر عليها في هذا الكهف لم ينشر إلا حوالي المائة. كما أن لجنة المخطوطات لم تسمح لأحد بالاطلاع على ماتحت يدها منها. وقال المؤلفان بأن الإيكول بيبليك — المسيطرة على أعمال اللجنة — تخضع في عملها لبابا الفاتيكان مباشرة، وأن هذا الولاء يهدد بضياح أي نص قد يتعارض صراحة مع مصلحة الفاتيكان.

ثم بدأت حملة إعلامية كبرى، خاصة في الصحف الأمريكية مثل نيويورك تايمز والواشنطن بوست، تهاجم مجموعة الباحثين المسؤولة عن ترجمة ونشر المخطوطات، وتتهمهم بالاشتراك في مؤامرة يحكيها الفاتيكان لمنع نشر بعض ما ورد بنصوص قمران. كما انتشرت عدة شائعات تقول بوجود مؤامرة لإخفاء بعض مخطوطات قمران لأن محتوياتها سيكون لها تأثير سلبي على بعض المعتقدات اليهودية والمسيحية، ولم تكن لجنة المخطوطات تضم بين أعضائها أيًا من اليهود أو المسلمين أو المسيحيين التابعين للكنائس الشرقية.

ومع مرور الزمن مات غالبية أعضاء اللجنة الثمانية الأوائل (دي فوجون الليجرو وباتريك سكيهان) وأصبح جون استروجنيل رئيساً للجماعة على أثر وفاة بيبير بيتوا عام ١٩٨٧. واستروجنيل أحد الباحثين الغربيين النابغين في دراسة اللغات السامية، انجليزي الأصل ولكنه عمل استاذاً لدراسات العهد القديم بجامعة هارفارد الأمريكية. وكانت العادة عند فقدان أحد أعضاء اللجنة أن يحل مكانه شخص يتم تعيينه، حتى يظل مجموعهم ثمانية. وكان استروجنيل أول من غير هذا النظام عندما سمح بضم عدد من الباحثين اليهود إلى اللجنة التي زاد عددها إلى ٢٠ عضواً بعد ذلك. إلا أن ذلك لم يكن كافياً في نظر الآثار الإسرائيلية التي صارت لها السيطرة على متحف القدس وكل ما فيه من مخطوطات.

ومن العبث محاولة الفصل بين رغبة هيئة الآثار الإسرائيلية في التخلص من جون استروجنيل كرئيس للجنة المخطوطات والاحداث التي تمت بعد ذلك. فقد بدأت حملة منظمة من الدعاية والإعلام تزعمها ثلاثة من الباحثين اليهود، هم روبرت أيزنمان، أستاذ الدراسات الشرقية بجامعة ولاية كاليفورنيا، وجيزا فيرميز، أستاذ دراسات العهد القديم بجامعة أكسفورد، وهيرشل شانكس، رئيس تحرير مجلة بيبليكال آركيولوجي بواشنطن، تهتم استروجنيل بالتأمر لإخفاء أسرار المخطوطات وتطالب بالسماح للجميع بالاطلاع عليها. ثم قام (أمير دوروي) مدير هيئة الآثار الإسرائيلية عام

١٩٩٠ بتعيين (إيمانويل توف) الأستاذ بالجامعة العبرية بالقدس مديراً للجنة المخطوطات إلى جانب جون استروجنيل المدير الأصلي. وبالطبع فإن هذا التصرف لم يرض استروجنيل، الذي يبدو أنه استغز في حديث نشر في جريدة (ها أريقتس) اعتبرته السلطات الإسرائيلية «معادياً للسامية». فقد نشرت الجريدة على لسان استروجنيل إنه قال عن اليهودية إنها «ديانة مرعبة» وأنها «هرقاطة» للديانة الصحيحة التي هي المسيحية.

ولا أحد يدري على وجه الدقة ما إذا كان جون استروجنيل قال حقاً هذا الكلام، ولا في أية مناسبة جرى الحديث. كل ما نعرفه أن هذا كان آخر حديث تنشره الصحافة.. سواء في إسرائيل أو في أي مكان آخر.. على لسان استروجنيل إذ اختفى بعد ذلك من القدس وظهر في مستشفى بالقرب من جامعة هارفرد، غير مسموح ببقائه. وقيل إن أحد أبنائه حصل على تقرير طبي بإصابة والده بمرض نفسي خطير، استطاع عن طريقه الحصول على أمر من المحكمة بفرض العلاج القسري عليه. كما قامت جامعة هارفرد في نفس الوقت بطرده من عمله كأستاذ بها. وكان هذا هو آخر ما سمعناه عن رئيس لجنة إعداد مخطوطات قمران للنشر، الذي عينته السلطات الأردنية عضواً بها عام ١٩٥٤، وأمضى ٣٥ عاماً من حياته يعمل بها.

وقام أمير دروري باستصدار قرار يفصل استروجنيل من رئاسة اللجنة وتثبيت إيمانويل توف في منصبه عام ١٩٩١. ثم أضافت السلطات الإسرائيلية عدداً آخر من الباحثين الإسرائيليين إلى لجنة المخطوطات حتى أصبح مجموعهم خمسين عضواً غالبيتهم العظمى من الإسرائيليين.

وفي خريف عام ١٩٩١ أعلنت مكتبة هانتينجتون بكاليفورنيا، أن لديها صوراً فوتوغرافية لجميع مخطوطات قمران، وسوف تسمح لكل من يرغب من الباحثين بالإطلاع عليها. وقالت جامعة أكسفورد نفس الشيء. ولا ندري كيف ولا متى حصلت هذه الهبات على هذه الصور، وكل ما أتبع هو أن السلطات الإسرائيلية كانت أرسلت هذه النسخ المصورة لحفظها مع عدم السماح بالإطلاع عليها إلا بتصريح منها.

وقام إيزنمان في الولايات المتحدة بنشر ترجمة هذه الصور كما قام فيرميز في بريطانيا بنشر الصور، وأعلن الجميع أن المشكلة قد انتهت وأن كل المخطوطات قد تم نشرها. وبعد تمثيلية غير محبوبة تظاهرت فيها سلطات الآثار الإسرائيلية بعدم موافقتها على النشر وعزمها على اللجوء إلى القضاء لإيقافه، سرعان ما أعلنت عدم

اعتراضها على هذا النشر. والغريب في الأمر أن نفس الأصوات التي كانت تطالب بالسماح للباحثين بالإطلاع على المخطوطات، المحفوظة بمتحف روكفيلر بالقدس، هي التي أعلنت الآن رضاهما على ما تم، والاكتفاء بما نشرته مكتبة هانتينجتون وجامعة أكسفورد.

ما هو الدليل على أن ما تم نشره قد أتى كله من قمران، وما هو الدليل أن ما نشر هو كل ما كان موجوداً في المتحف؟ فحتى الآن لم تصدر الهيئة المكلفة رسمياً بأعداد المخطوطات للنشر بياناً بمجمل محتويات الكهف رقم ٤ ولا أية تفاصيل أخرى تؤكد أو تنفي صحة ما تم نشره في بريطانيا والولايات المتحدة.

ولا تزال مخطوطات البحر الميت تثير خلاقات حادة بين الباحثين، رغم مرور ٤٩ عاماً على اكتشافها. فقد صدر مؤخراً كتاب بعنوان «من كتب مخطوطات البحر الميت؟» يعارض فيه البروفسور نورمان جلوب — من جامعة شيكاغو — الفكرة السائدة عن أصل مخطوطات منطقة قمران، والتي تنسبها إلى جماعة العيسويين المنشقة عن كهنة المعبد. وبدلاً من ذلك فإن الأستاذ نورمان يصر على أن مخطوطات قمران مامي إلا مكتبة كهنة معبد القدس، قاموا بإخفائها عندما أدركوا أن هجوم الجيش الروماني على المعبد قد أصبح وشيكاً. وليس هذا الكتاب هو أول محاولة لانكار نسبية مكتبة قمران إلى جماعة العيسويين وإرجاعه إلى خصومها من الكهنة تارة وجماعة (الماساد) وجماعة (حماس) اليهودية المتطرفة تارة أخرى. فقد تم نشر عدد من الكتب والمقالات، في الولايات المتحدة خاصة، منذ أن خضعت المخطوطات لسلطة الاحتلال الإسرائيلية في القدس عام ١٩٦٧، تحاول إخفاء الدلالة الحقيقية لمخطوطات قمران وتغيير المفهوم الذي ذاع عنها بعد نشر ترجمة المجموعة الأولى من النصوص. ولا شك في أن هذه المحاولات ترجع إلى اعتبارات سياسية في أصلها، وإن اتخذت طابع النقاش الأكاديمي، ذلك أن هذه المكتبة العبرية التي عثر عليها عشية تأسيس دولة إسرائيل الحديثة، تحتوي على كتابات تصف كهنة دولة يهودا — والذين كانوا هم أيضاً حكامها — بأنهم كانوا يمثلون الشيطان على الأرض وأعداء للرب الذي سيعاقبهم في آخر الأيام.

## ضرورة الكف عن التهديد بالأسلحة الذرية

د. محمد عبد اللطيف مطلب

بعد انهيار الأنظمة الاشتراكية في شرق أوروبا ووسطها، واختفاء خطر الصدام المسلح بين الشرق والغرب، ذهب بعض العاملين في حركة السلم الى الاعتقاد بزوال خطر الأسلحة الذرية (النووية) رغم وجود ٤٨٠٠٠ رأس نووي على أرضنا قابل للإنفجار. وهذه تتجاوز في قوة تدميرها ما دمرته قنبلة هيروشيما بستة ملايين مرة. وفي الأشهر الأخيرة تزايد النقاش حول الأسلحة النووية في الأوساط السياسية والشعبية، وساهم في ذلك سلسلة تجارب الأسلحة النووية التي أجرتها الصين وفرنسا، مع ماتبع ذلك من احتجاج ضد ما يصاحب تلك التفجيرات من تأثير على البيئة التي تحصل فيها تلك التفجيرات. وكرّد فعل على تلك التفجيرات نشأت الأفكار التي ذهبت الى وجوب تشكيل مناطق خالية من السلاح الذري؛ وقد تحقق ذلك فعلاً بالاتفاق على جعل قارة أفريقيا بأكملها خالية من السلاح الذري، وتطبيق نفس الفكرة على البلدان الواقعة على المحيط الهادي.

تنطوي «اتفاقية عدم انتشار حيازة الأسلحة الذرية» على بعض النقاط العربية التي لا يمكن السكوت عنها؛ أهمها:

— عدم تمسك الدول الذرية بالتزامها بنزع السلاح الذري كلياً، كما تنصّ عليه الاتفاقية.  
— اتصاف تلك الاتفاقية بالتحيز الى جهة معينة: فهي تسمح للدول الذرية بالابقاء على ما تحوز من أسلحة ذرية مدة طويلة لم تحددها؛ كما تسمح لمجموعة أخرى من الدول لأن

تحوز على التكنولوجيا التي تمكّنها من صنع الأسلحة الذرية (كاليابان والمانيا والارجنتين والبرازيل). أما الدول غير الذرية فما عليها تبعاً لذلك إلا أن تخضع للدول الذرية!

— النزاع حول الدول الذرية غير الرسمية (اسرائيل، الباكستان، الهند)... لهذا فهذه الاتفاقية بوضعها الراهن عاجزة عن منع توسيع حيازة الأسلحة الذرية لدول أخرى غير معترف بحيازتها لتلك الأسلحة.

وهناك دلائل عديدة تشير إلى أن حيازة الأسلحة الذرية من جانب إحدى الدول تشجعها على ممارسة سياسة القوة تجاه خصومها ومن الأمثلة الملموسة على ذلك: سياسة حكومة اسرائيل تجاه العرب داخل حدودها، وتجاه الدول العربية المحيطة بها. — استراتيجية حلف شمال الأطلسي (الناتو) الجديدة تسمح باستخدام الأسلحة الذرية (ومنها ما يسمى بالأسلحة النووية الصغرى mini nukes) ضد العالم الثالث، وتمنع في نفس الوقت نشر الأسلحة الذرية في تلك الدول.

— السماح لدول أوروبا الغربية لأن تحوز على «دعامة ذرية أوروبية».

— التسلح الذري «النوعي» يستمر حتى في حالة نزع السلاح «الكمي».

— لقد طورت روسيا جيلاً جديداً من أحدث الصواريخ بعيدة المدى.

— الولايات المتحدة الأمريكية تطور أسلحة ذرية صغيرة يسيرة الاستعمال وتستمر في

تطوير أسلحة بعيدة المدى يحملها الهواء.

— بريطانيا تبدأ بتشغيل غواصات ذرية جديدة.

— فرنسا تمنح تعهداً بتطوير صواريخ جديد.

كل هذا يدل على أن الأسلحة الذرية جزء من الذخيرة العسكرية لدى الدول الكبرى. ومن المعروف أن من يمتلك تكنولوجيا ذرية مدنية، يستطيع مبدئياً تطوير القنابل الذرية. أحد الواجبات الكبرى الملقة على حركة السلام هو الحفاظ على العالم خالياً من الأسلحة الذرية. ومما يشجعنا على المضي في هذا الطريق هو أن امكانيات التخلص من تلك الأسلحة أصبحت أقوى:

— فالأكثريّة الساحقة من دول الجنوب والكثير من الدول الصغرى أصبحت تطالب بالتخلص من الأسلحة الذرية. وفي هيئة الأمم المتحدة تؤيد الاكثريّة هذا المطلب بشكل واضح.

— الاتفاقيات الجديدة حول تشكيل مناطق خالية من الأسلحة الذرية (افريقيا، المحيط الهادي) تبين الطريق للوصول إلى ذلك الهدف.

— هناك اتفاق عالمي بين المنظمات الشعبية (اللاحكومية)، وعددها يربو على ٢٠٠ منظمة (منها اتحاد العلماء العالمي، واتحاد الأطباء لدرء الحرب النووية...) من أجل أن تجد أفكار السلم الانسانية امكانية لها للتحقق عملياً، والتخلص من الأسلحة النووية والغاءها كسلاح.

لكل ذلك يجب التوجه إلى الجماهير لكي تتبنى هذه الأفكار باقتناع راسخ. وبدون ذلك لا يمكن تحقيق تلك الأفكار التي تجعل مصلحة البشرية (بقاءها وسعادتها وتطورها بسلام) فوق أية مصلحة أخرى.

## إصدارات وردت

- جمعة كنجي : ذلك المسافر ، قصص ، دار بترا ، دمشق .  
جواد الزلفي : عناق الأعشاب ، مجموعة شعرية ، دار آداب ، هولندا .  
سالمه صالحي : شجرة المفجرة ، قصص ، دار المدى ، دمشق .  
سلام عبود : أمير الأقحوان ، رواية ، مركز الحرف العربي ، السويد .  
صلاح الحمداني : أقصى النهارات ، مجموعة شعرية ، دار المدى .  
زهير شلبية : غائب طعمة فرمان ، دراسة مقارنة في الرواية ، دار الكنوز الأدبية ، بيروت .  
عبد اللطيف اطميش : جمرة على حافة القلب ، مجموعة شعرية ، دار سعاد الصباح ، القاهرة .  
ياسين النصير : المساحة المختفية ، دراسات في الحكاية الشعبية العربية ، المركز الثقافي العربي ، بيروت .



## «تأملات إسلامية حول المرأة»

---

عرض / إبراهيم معروف

لفترة طويلة، تكرر لدينا، في مجالات التفكير الاجتماعي والابداعي، إنطباع أو افتراض لم يسعنا مناقشته مع أنفسنا بشكل جدي، ذلكم الافتراض هو: هل أن مسألة تحرير المرأة أمر مقترن بالطرف العلماني من المفكرين ومعتلي الحركات الاجتماعية دون سواهم؟ وبتحديد أدق، كنا سلّمنا تقريباً، أن مصطلح التقدمية، كشعار، ارتبط بالعلمانيين من المفكرين دون رجال الدين.

بين يديّ كتاب فريد يتصدى لهذا الافتراض، كتاب لرجل دين ومفكر شمولي البحث والاطلاع، يأخذ بالتشريع ويتفاعل بوعي مع متطلبات العصر ومشاكله الحديثة، كتاب لرجل يأخذ بالجديد برفق وتامل ليعيد قراءة القديم دون التلاعب بجوهره أو المناقفة بالمضمون، كتاب يسترسل بهدوء وثقة ليناقد ويشير فينا فضول التساقلات التي ما انفكت تستجلي الموقف الانساني الصحيح لطبيعة «حركية المرأة» وموقعها من المجتمع كما يفهمها الاسلام، كتاب لا يقدم نظرة الاسلام للمرأة فحسب، بل يقدم أيضاً فكر صاحبه السيد محمد حسين فضل الله بكتابه «تأملات إسلامية حول المرأة».

الكتاب قديم وحديث؛ قديم إذ أن بين يديّ طبعته الخامسة، فيما قدمت «دار الملاك» طبعته الاولى عام ١٩٩٢. وهو جدير لمعاصرة موضوعاته لجمهور واسع من المسلمين، والشرقيين في اوروبا والمجتمع الغربي، ممن بدأت مسألة عمل المرأة ومسؤولياتها تشكل قضية حساسة في مجالات الخدمات الاجتماعية وسوق العمالة في الغرب، كما هو

مفيد للمجتمع الغربي لتشكيل صورة واضحة وصحيحة وسط تشويهات، مقصودة وغير مقصودة، من تيارات أصولية وغير أصولية.

وقد أثار الكتاب، حين صدوره، بأسلوب تناوله وزاوية نظراته ومنطلقاته للمرأة، جدلاً واهتماماً تقييماً. فكتبت عنه أبرز الصحف البيروتية حينما قدمته دار النشر لأول مرة بـ ١٦٥ صفحة، لكنه اليوم يضم ملاحق هي مقابلات وكتابات نقدية تشكل مع أصل الكتاب وحدة متكاملة للموضوع واعتراكاً من النقاد بقوة الكتاب، الذي وإن كان بالاساس أحاديث متنوعة إلا أن قوة الترابط بين موضوعاته، وشمولية المسألة المطروحة بين دفتيه تجعله بحق كتاباً لا غنى عنه لفهم جوهر نظرة الاسلام الى موضوع المرأة، ليس موجهاً للمرأة خاصة بل للكيان الاسري الصغير والمجتمع الكبير، وهو بالتالي يرقى الى أن يكون مرشداً وحافزاً معرفياً لتنظيم وتأطير الواجبات والحقوق سواء للرجل أو للمرأة على السواء.

هناك عدة قيم في الكتاب تحفز على قراءته ومناقشته ايضاً، فهناك القيمة المعرفية من خلال رؤية الكاتب في تفسيره للشرع والعقيدة بروح عملية وجدلية محببة تستند الى أحكام القرآن الكريم. ولذا قد نستدرك لنقول: ألا يفهم المسلمون شريعتهم؟! ونجيب بنعم، ولكن لماذا يحدث اللغط في أحيان كثيرة؟ وهناك، ايضاً، قيمة تحريرية في الكتاب تضع المرأة في دائرة الضوء مطالبة إياها بممارسة حقها وواجباتها وانفعالاتها وانسانيتها وعواطفها بالانسجام مع العقيدة، وبفهم متطلبات الواقع والحضارة، دون الاخلال بمعادلة الانسجام بين الترابط العائلي والالتزامات العقائدية، من جهة، والتحرر، من جهة أخرى.

هكذا يستهل السيد فضل الله الباب الأول ببحث شخصية المرأة ودورها الفاعل، سواء في نشاطها الديني أو في علاقتها بالواقع العملي والانفتاح الثقافي، مؤسساً بذلك مدخلاً أولياً لسبر غور شخصية المرأة وعقلها وإيمانها، فيتساءل: «هل السبيل الى اكتشاف شخصية المرأة... يتمثل في النصوص الدينية أو في دراسة عناصر شخصية المرأة الذاتية من خلال حركة وجودها في الواقع الحي، وفي مستوى انفتاحها على الافاق العلمية... ثم يستطرد بمقارنات تتوزع بين الفكر والممارسة، ليتوصل الى اقتناع «بان الأمر يتطلب استغراقاً في الواقع الانساني للمرأة كما هو للرجل، قبل عملية الدخول الى النصوص...». وهو «لا يرى من الضروري أن يكون وعي الرجل للمسألة الثقافية والاجتماعية والسياسية أكثر من وعي المرأة» جيتما يعيشان في ظروف ثقافية

واجتماعية وسياسية متشابهة.

وهو ذات الاستنتاج الذي تصورنا أن العلمانية تنفرد بالاجابة عليه إذ هو يدلنا بالقرائن من خلال نماذج تاريخية كشخصية مريم ومواجهتها لقومها، أو ملكة سبا وتشاورها مع شعبها، أو شخصية خديجة الكبرى وقاطعة الزهراء وزينب .

يتصدى السيد فضل الله، في قراءته للنصوص القرآنية، للإجابة عن المسألة الاساسية في التمايز بين الرجل والمرأة كما يُساء فهمها، فيرى أن القرآن يفهم خصوصية المرأة وانسانيتها من خلال تتبعه للمنهج الانساني للتشريع في تعامله مع قضية الفروق الفردية والفريزية والمهمانية. وهو هنا لا يسلك منهجاً توفيقياً، بل يرفض التوفيق «كطريقة للتوافق مع فكرة عصرنة الاسلام» مؤكداً «أن المسألة، عندنا، هي الانطلاق من حقائق الاسلام لاثبات مستوى الحقيقة من خلال عناصر الوضوح الكامنة في ظواهر النصوص القرآنية».

في مجال تحرير المرأة يفرد السيد فضل الله، فصلاً مهماً طارحاً فكرة ذات طابع تحريضي ضد تكريس المفهوم للخطأ للتقليد الاجتماعي الذي يقيد المرأة في دائرة الخدمة «التي تضطهد انسانيتها وتعاملها كما لو كانت مجرد شيء من أشياء الرجل التي صنعت للاستمتاع من دون أن يكون لها دور فاعل في الحياة». وهو يضع دور الأبوة بموازاة دور الامومة. فالطرقان يمارسان ادوارهما الحياتية، وان بدا دور الرجل خارجياً ودورها متصلاً بالجانب الجسدي العضوي من وجودهما.

تأسيساً على ذلك، ينتقل الى مناقشة مفهوم العفة، والحرية المطلقة، والاختلاط والحجاب الذي تكتسب مناقشته أهمية كبيرة نظراً لارتباطه بواقعا المعاصر واختلاف مديات النظر الى معناه ووظيفته، بما لا يؤدي الى الغاء احساسها الانساني بانوثتها ضمن دائرة التعبير المتاحة لها.

في احاديث أخرى يضمها الكتاب، وتشكل ثورة على تخلف المرأة كجزء من تخلف المجتمع، يقول: «ان الرجل والمرأة ضحيتان لمزيد من الاوضاع الاسلامية الداخلية على مستوى السلطة...».

يثير في أبواب اخرى مديات انطلاق انوثة المرأة ضمن حركة الواقع المتاحة لها مؤكداً «أن الاسلام شجع المرأة على أن تستثير انوثتها في الحياة الزوجية، تماماً كما أراد للرجل أن يعيش ذكوريته في هذه الدائرة الخاصة» لكنه لا يفسح المجال للمرأة في تحريك انوثتها كعنصر من عناصر حركتها داخل العلاقات العامة سواء عند الخروج أو العمل أو

الاختلاط، بما يفهم منه ان الاسلام لايشجع المرأة في الانطلاق للمجتمع من مواقع الاثارة وتأكيد طبيعة الانوثة.

واستطراداً لهذه الصورة يطرح السيد فضل الله في موضع آخر مسألة «الصدقة بين الجنسين» و«الحب بين الرجل والمرأة» والخطوبة كعلاقات لا يرفضها الاسلام وصولاً الى الزواج كرباط مقدس، رافضاً مفهوم المهر من زاوية اعتباره ثمناً للمرأة، مشدداً على اهمية الصفات الدينية والخلقية كرادع في السلوك.

في مجال العلاقة بين الزوجين يرفض باصرار مبدأ الغاء طرف لطرف آخر مستخلصاً: «ان لكل من الزوجين خصائص وجودية إنسانية تختلف عن خصائص الطرف الآخر» مذكراً بضرورة إذكاء مشاعر الرحمة بدلاً من القسوة كما يدل على ذلك النص القرآني الذي أورده.

على أننا في قراءتنا الكتاب، يجب أن نتوخى الحذر وتجنب الانفعال. فالطرح جريء وتحريضي. والمواضيع حساسة وربما أسيء فهمها أو أخذت بشكل مجتزأ دون ادراك المواءمة في نظرة الكاتب الواقعية والمنسجمة مع العقيدة. لذا فمن المتوقع أن يأخذ المهوور والمستعبد تلك النصوص التي تتفق ووضعه على أنها حجة للانقلاب على السائد ورفض للمعتاد دون ادراك القيمة التشريعية في ذلك.

ولذا فان عملية خلق حوار وإع وتربوي بين أفراد الأسرة ضمن منظومة الافكار والقناعات التي يطرحها السيد فضل الله، هي ما يجب اتباعه في التعاطي مع الموضوعات المطروحة في الكتاب، وربما ستشكل تلك الموضوعات سياقاً ثقافياً للجيل الجديد الذي تربى وسط تصارع ثقافي متنوع في الغرب ويات بعيداً عن أحد جذور مكوناته الثقافية الأولى، إضافة الى النتيجة السلوكية التي تجعل من موضوعاته مادة حوارية بناءة بين أفراد الأسرة؛ وهذا ما يدعو اليه الكتاب ومانرجوه نحن من بناء أسرة عصرية مرتبطة بالجذور.

### **تأملات اسلامية حول المرأة، السيد محمد حسين فضل الله**

دار الملاك للطباعة والنشر والتوزيع — بيروت. الطبعة الخامسة ١٩٩٢-١٩٩٦.

## صوت لحقوق الكريبات

كمال محمود

في اربيل صدرت مؤخراً الفصلية الثقافية دنك (صوت) للدفاع عن حقوق المرأة ونشر ابداعها، صاحبة الامتياز بخشان زنكنه ورئيسة التحرير بهار علي بالاشتراك مع الكاتب الصحفي هادي محمود، مع لجنة استشارية من المثقفات والمثقفين، تطرقت افتتاحية العدد الأول الى جهود المثقفين والمعينين بتحرير المرأة من تسلط الرجل والحرمان من مشاركتها في تقرير شؤون المجتمع. وأكدت أن الدورية مفتوحة لمختلف الآراء حول هذه القضية مستقلة عن الاطر الحزبية وعن منظمات المرأة جميعاً.

في مقالته «لنكن صادقين على الاقل مع انفسنا»، يشير جمال عيڤول الى معاناة الكرد عبر التاريخ مؤكداً أن المرأة تعاني، بالإضافة الى المشاكل العامة عدداً من المشاكل الخاصة الناجمة عن العادات والتقاليد البالية. ومطالب بضمان الامن والسلام للنساء قبل كل شيء، واتاحة المجال لمساهمتهن الفعالة في مختلف المجالات.

وتتناول بخشان زنكنه، في تقريرها الضاف، تطور قضية المرأة في الربع الأخير من القرن العشرين فاستعرضت المؤتمرات العالمية للنساء من مؤتمر عام ١٩٧٥ الذي ارسى اساساً للتعاون بين منظمات النساء والامم المتحدة واعلن الاعوام ١٩٨٥-٧٦ عقداً للعمل من أجل «المساواة والتقدم والسلام». وصودق عام ١٩٧٩ على ميثاق ازالة التمييز ضد المرأة. لكنه لم يطبق حتى الآن. ثم تحدثت عن المؤتمر العالمي في بكين ونتائجه مؤكدة ان البشرية لا تستطيع التصدي لمهام القرن القادم بدون اشراك المرأة

مع الرجل على قدم المساواة، وأن مؤتمر بكين كان منعطفاً تاريخياً في نضال المرأة. ثم قالت «وفي كردستان نحتاج الى جهد كبير لنقطع طريقاً وعراً طويلاً لبلوغ اهداف ذلك المؤتمر». ولوحظ أن الكاتبة اغفلت مساهمة وفد المرأة الكردية ومندوبات بقية المعارضة العراقية، خاصة في جلسات المنظمات غير الحكومية.

وتناولت شمام شوقي «تأثير الخوف على نفسية المرأة» بالتركيز على مظاهر الخوف الاجتماعي الناجم عن النظام الابوي في العائلة، والخوف الاقتصادي والخوف السياسي. واستشهدت بأمثلة من حياة النساء، ثم اقترحت حلولاً لمشاكل المرأة لتخليصها من الخوف.

وكتب ناصر حسامي عن اوضاع المرأة في التشريع الإيراني، حيث يحدد القانون المدني سن الزواج بـ ١٥ سنة للذكور و ٩ سنوات للإناث وما ينجم عن ذلك من «مشاكل لا يتقبلها العقل» مشيراً الى أن هذا القانون خرق المواثيق والعهود التي ابرمتها ايران قبل أكثر من ٤٠ سنة والتي يعترف بها «القانون الاساسي للجمهورية الاسلامية» في مادته ٧٧.

في مقاله «جسد الأنثى... مستعمرة اجتماعية» شبهت دلسوز محمد وضع المرأة بالمستعمرات من حيث صور السيطرة والاحتلال والاضطهاد والقسوة والاستغلال الاقتصادي والسياسي والتخلف الاجتماعي والثقافي، وأن المرأة تعاني «من النظام الكولونيالي داخل المجتمع الكردي حيث تعتبر المرأة بضاعة يملكها المجتمع ويتصرف بها الرجال.. وأن هذه الحالة تبلورت حتى في الاحزاب والمنظمات واجهزة السلطة الإدارية حيث تتجلى تبعية المرأة للرجل في جميع المجالات. وتؤكد بان الاسلام لم يحرم المرأة من التعليم كما يزعم اشباه الملالي في القرى. ثم تتطرق الى قتل المرأة «غسلاً للعار» وتسأل: لماذا تقتل المرأة وحدها؟ وتذكر وقائع واحداثاً مؤلمة في هذا الشأن. ومع ذلك فهي (دلسوز محمد) متفائلة في تقدم المرأة على طريق المساواة والحرية...

«التمايز بين المرأة والرجل اساس القسوة والاضطهاد ضد المرأة» عنوان المقال الذي كتبه بهار حيث تقول بأن المجتمعات البشرية تمارس بأسرها القسوة والاضطهاد ضد المرأة وتعدد انواع القسوة التي تعاني منها المرأة وتشير إلى بداياتها التاريخية وتأثيرها على نفسية المرأة وأفكارها ومواقفها.. وتعلل أسبابها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في الظروف التي يسود فيها الرجل وتبين ما تعاني المرأة الكردية من التعذيب الجسدي والقتل وتعرضها لأنواع الاعتداءات، حتى الجنسية، وحرمانها حتى من

حقوقها الشخصية وخاصة في قانون الأحوال الشخصية والعادات والتقاليد الاجتماعية. وتتوصل الى بعض الحلول تعتبرها معقولة لازالة الغبن عن المرأة ومساواتها مع الرجل في ميادين الحياة المختلفة.

وفي المقال الذي كتبه هادي محمود بعنوان «مساهمة المرأة في النشاط السياسي واتخاذ القرار» يقول «ينبغي أن تشمل مساواة المرأة مع الرجل المجال السياسي ومراكز اتخاذ القرارات، ويدرك بأن مجرد اتخاذ مثل هذه الضوابط لا يعني تحقيق المساواة بسبب تراكم العوامل التاريخية والعادات والتقاليد التي لها طابع رجعي والتي فرضت نفسها في سايكولوجية المجتمع — وبنقاش بعض الحجج الواهية حول تخلف عقلية المرأة وضرورة تبعيتها للرجل. ثم يتطرق الى نظرة الاسلام الى نشاط المرأة في الميدان السياسي ويشير إلى أن معظم الفقهاء لا يسمحون للمرأة بالمساهمة في القيادة السياسية.. مما نرى انعكاسه في ضعف تواجد المرأة في قيادة الأحزاب السياسية.. ثم يقترح وضع برنامج مكثف وعملي لتخطي السلبات ومظاهر تخلف المرأة ومن أجل تحقيق مساواتها مع الرجل.

وكتبت أميرة محمد حول «تاريخ الحركة النسائية» واعتبرت «استغلال واضطهاد المرأة اقدم واوسع استغلال في تاريخ الانسانية..» وإن رفع الظلم والقسوة عنها رهن بتحرر الانسانية من القيود والسلاسل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية.. ثم تشير إلى تعاظم دور المرأة منذ زمن الحرب العالمية الأولى بسبب نقص الرجال وتحدث عن تطور الحركة النسائية في معظم القارات وتورد أرقاماً عن ازدياد مساهمة المرأة في مجال الانتاج والادارة وغيرها.

وتطرقت الدكتورة شكرية رسول في موضوعها «صراع المرأة الكردية.. بين الشعراء وصوتها الأصيل» الى معاناة المرأة وتحملها انواع الظلم التي يخجل التاريخ من سردها.. أما في المجتمعات الحديثة، فانها فقدت ليس فقط استقلالها الاقتصادي بل وسحقت لديها حرية الحب أيضاً، وتعد نماذج من الاستغلال والاضطهاد الاجتماعي والسياسي والاقتصادي.. ثم تشير الى انعكاسات صور المرأة لدى الشعراء في المجال الكلاسيكي والرومانسي والواقعي وتذكر نماذج من شعرهم لاسناد أقوالها.. وتصل في الختام الى الاستنتاج ان المرأة الكردية لم يكن لها أي دور قديماً.. إلا انها استطاعت ان تجد لها موطئ قدم في ميادين الحياة المختلفة.. وتدعم أقوالها بصوت المرأة المكافحة ذاتها وتذكر نماذج من نتاج النساء في مختلف الميادين.

ويقول شورش في مقاله «العلاقة بين المرأة والرجل صراع غير متوازن» ان الازمة الاقتصادية التي نجمت عن الحصار الاقتصادي وتدمير البنية التحتية والفراغ الاداري بعد انتفاضة ١٩٩١ في كردستان اثرت على الوضع الاجتماعي... ويشير الى ازدياد ظاهرة الطلاق. وينتقد نظام سيطرة الرجل في العائلة والمجتمع وكذلك في العلاقات الاجتماعية القديمة وقانون الأحوال الشخصية ويناقش مفرداته ويعتبره في صالح الرجل وضد حقوق المرأة.. لذلك نجد المرأة محرومة من حقوقها الانسانية ويتردي وضعها الاقتصادي والاجتماعي والثقافي.. الخ.. ويرى في ازدياد وعي المرأة تجاه مشاكلها ومسبباتها قوة تدفعها الى المشاركة الفعالة في النضال لايجاد الحلول لها.. وترجم ب. ثارام مقالة لكلارا زتكين بعنوان «مساهمة المرأة في النضال من أجل انتصار الاشتراكية واجب ضروري».

وهناك أخيراً مقال كتبه ثاري بابان بعنوان «المرأة والفن التشكيلي» يتطرق فيه الى مساهمة المرأة الكردية في ميادين الفن عموماً والفن التشكيلي بصورة خاصة. وقد انجزت اعمالاً فنية وشاركت في المعارض والنشاطات الفنية المختلفة.

## إصدارات وردتني

الاغتراب الأدبي : فصلية ، لندن ، العدد ٣٤ ، بمساهمات لامييل حبيبي ، حنضل الشيخ خزعل ، زهور ونيسي ، مظفر النواب ، حسن سليمان ، سميرة المانع ، وسام هاشم ، عصام الباشا ، عبد الإله عبد القادر ، لميعة عباس عمارة ، خلدون الشمعة ، هاجر القمحطاني ، كريم عيد ، فاطمة عبد ، يوسف العلني ، كريم جواد ، سلام عبود ، جمال مصطفى ، قصي الشيخ جعفر ، جيمس جويس .

نافكوت : فصلية ، العدد ١ ، بمساهمات لامجند ناصر ، طارق الطيب ، صلاح عبد اللطيف (رئيس التحرير) ، قاسم حداد ، جمال جمعة ، عبد الله الريامي ، جمال مصطفى ، عبد الكريم راهي ، عبد العزيز بومسؤولي ، ادمون عمران ، خوان غويتسلو ، مصطفى عبد الله ، محمد المسلاتي ، لؤي حمزة عباس ، سلام عبود ، غادة السمان ، كارلوس فوينتس ، هيفاء زنكنة ، محمود شريح .



# آدب و فن



## الدراما معرفة منهجية ووعي خلاق

د. نور الدين فارس

«الفن هو الفن لأنه ليس الحياة» - كوتيه

- ١ -

لكي يتفادى الانسان احتمالات الزلل والخطأ، التي يمكن أن تهدد مشاريعه وانجازاته، انكب على التأمل والتفكير والتجريب بغية الاستعداد من خلال التخطيط والبرمجة لتنفيذ تلك المشاريع بدراية ومهارة دون فشل أو خيبة. وكلما كان وعيه منظماً ومبرمجاً بإدراك وعمق، كانت هفواته أقل، وصار في إمكانه تلافي النقص وتجاوز الخطأ. لهذا ظل الانسان ينقب، يتخيل، يدرس ويجرب باحثاً عن أفضل المناهج والتقنيات المبرمجة لتطوير انجازاته في شتى المجالات، العلمية والفكرية والفنية. ولعل الاغريق من أوائل الامم التي أولت اهتماماً جاداً لمنهجية المعرفة وبرمجة التقنية، خاصة ما تعلق بالابداع الفني، انطلاقاً من منظورهم الى الفن كصناعة رفيعة، لاسيما بعد ظهور المدرسة النيرة التي ابتدأت بسقراط وانتهت بارسطو. وتعتبر مبادرة الاغريق هذه من أعظم انجازاتهم العقلية، إذ طالما اعتبروا الفنان كالصانع الواعي من حيث المهارة، ولا بد أن يتوفر على نوع من التخصص في القدرة والتقنية ليستوعب مستلزمات عمله المؤثر في من يحتاج اليه، خاصة وثمة شيء في كل تجربة فنية يمكن أن يسمى — وفقاً لجانب من معنى الكلمة، الشكل. وإذا توخينا الدقة قلنا: أنه شيء له طابع الإيقاع، البنية، والنظام،

كما أن هذا الشكل سبق وأن تم تصوره قبل فرضه على المادة<sup>(١)</sup> وهذا يقتضي بالضرورة أن يحتوي الفنان بوعي اسباب تخصصه عبر المران ومراجعة المقاييس والاصول التي هي محصلة خبرات وتجارب ناضجة ورائدة في مجال الابداع والتقييم. فالتقنية المنهجية الواعية الى جانب الموهبة يمكن أن توفر امكانيات قيمة لتطوير العمل الفني وتقدمه...

مع تطور وعي الانسان واتساع مداركه في العصور الحديثة، أخذ يؤمن أن المعرفة النابعة من الشك والتجريب والنقد والمساءلة ثم الاستقرار هي التي تكفل له النجاح في نشاطاته، وأن معظم انجازاته واكتشافاته المرموقة ارتهنت جدلياً بانعتاقه أولاً من أسر «تابوهات» واوثنان عهد القهر والظلام وما ارتبط بها من عبودية مطلقة لأوهام ومسلّمات واحكام مسبقة لا تناقش ولا تُرد أو تُغيّر، ثم انعطافه بشدة — ثانياً — نحو اعادة تقييم المفاهيم والرؤى والقيم المرفقة باعباء الماضي الجامد والمتخلف، السائدة في حياته ومحاولة تغييرها وتجديدها بالاتساق مع منطق الحاضر، وتهيتها مجدداً لمتطلبات المستقبل ووفق تقنيات منهجية علمية مخصصة نوعياً، ترتكز ألياتها على التحليل والتجريب وإعمال العقل.

لم تقتصر البرمجة والتقنية على العلوم والاخلاق والطبيعة، انما امتدت الى الفنون ايضاً وخاصة الدراما، التي تعتبر أم الفنون، لتوفرها على الشعر والموسيقى والتشكيل والغناء والنثر. فهي بسبب ثراء نظريات مذاهبها الفنية وتنوع آفاق اساليبها الابداعية وطبيعة تعقيدات اصولها المعمارية، تطلبت منظومة مفاهيم ومبادئ فكرية وادوات اجرائية خاصة ومتميزة — تقنية منهجية نوعية — ولهذا حظيت باهتمامات واسعة من قبل المفكرين والمبدعين. وكان طبيعياً أن تتأثر تقنياتها بأرثهم واجتهاداتهم، التي هي انعكاس للانعطافات الحضارية التاريخية الكبيرة وما جاءت به من اكتشافات وتغيرات علمية وثقافية عميقة وشاملة..

ان هذا التأثير طال حيثيات الفروع والتفاصيل في هذه التقنية الا انه ظل محدوداً، بهذا المقدار أو ذاك، بالنسبة الى الاسس والاصول المبدئية الملازمة لخصوصية الدراما النوعية وطبيعتها الذاتية.

تتموضع أليات هذه التقنية في محورين اساسيين: اولهما المحور الفكري، الذي يركز على المبدأ، الموقف الدرامي. الذي يكشف عن صراع — تضاد — أي تناقض الافعال والآراء والاهداف، هذا المبدأ، من حيث الجوهر، هو تمثّل لروح التجاوز والمعبر

عن قلق وجود، قلق مصير، يقوم على الشك، التساؤل، النقد، والتمرد. وتشخيص هذا كله من خلال ارادة الانسان وحده، في تقرير مصيره ومستقبله، باعتباره مركز الفعل الدرامي وسيد - وبغض النظر عن كل ما به من قيود واوهام ورواسب موروثه مطلقة.. تسعى هذه الارادة، الى قهر العقبات وتجاوز الممنوعات لبلوغ أقصى ما يمكن من الحرية<sup>(٣)</sup> والمعرفة اعتماداً على الجدل الواعي في محاكمة سلبيات القديم وضعياته الراكدة التي تعيق التغيير، وتكبح التجديد في الحاضر والمستقبل؛ وهذا لا يتحقق دون نضال الشخصيات وكفاحها. ورغم الصراع بينهم إلا أنهم يبقون في وحدة دائمة، حتى يتبلور التغيير. وكلما كانت هذه الوحدة متماسكة كان الصراع قوياً وأكثر وضوحاً وتبريراً<sup>(٤)</sup>. ومن غير الممكن تصور المبدأ الدرامي أو تمثله دون فكرة مهمة تتضمنه، تغذيه وتؤججه أيضاً بدوافعها السببية المحكمة والمقرونة بنتائج مبررة ومتقنة، من بداية الدراما، حتى نهايتها. فضلاً عن هذا، فالفكرة هي العقل المدبر والفعال في معمار الدراما، لأنها توحد وتوازن وتوجه معظم الأدوات والعناصر الأساسية في تنسيق وتركيب البناء الدرامي. وبدون رصيد من الافكار، كما يرى بيرناردشو، لا يستطيع العقل أن يعمل ولا المسرحيات أن توجد. وبنفس المنظور يؤكد المخرج السوفييتي الشهير - مايرخولد -: الفكر يأتي أولاً، والمسرحية المعتبرة تتميز عن غيرها، بالدرجة الاولى بعمق افكارها<sup>(٥)</sup>. ولهذا يستغرب ديماس الابن من انعدام الفكرة في الدراما. لذا راح يسأل المؤلف: كيف يمكن أن تتذكر الطريق التي سوف تسلكها، ما لم تعرف اين أنت ذاهب. ان الفكرة هي التي سوف تدلك على هذا الطريق<sup>(٥)</sup>. والفكرة بالنسبة الى المبدأ الدرامي ليست غاية اجتماعية - أخلاقية تعبر عن المغزى وتوحي بالقصد الاسمي الذي من أجله ابدعت الدراما فحسب، انما هي كذلك ضرورة تقنية فنية ملحة، باعتبارها المصدر الاساسي الذي يرفد - ميكانيزمات المبدأ، الموقف، الدرامي من خلال الفعل الذي يحمل بذرة نقيضه في ذاته، ومنه ينطلق نضال الاهداف المتعاكسة والقرارات المتناحرة باتجاه التغيير...

اما ثانيهما فهو المحور الاجرائي - التنفيذ الذي المتمثل في توفير وتحضير المستلزمات الفنية الضرورية، من ادوات وأطر وسبل لتنفيذ المحور الاول - الفكري، المعبر عن روح الدراما وجوهرها، ومنحه الشكل الفني المتميز والمرموق. وعلى رأس هذه المستلزمات المقارنة بين الوضعيات وانتقاء أكثرها توتراً واصطداماً، لاسيما تلك التي تحمل في ذاتها بدايات الفعل سواء كان خارجياً أو داخلياً. فهو وحدة كاملة بذاتها،

حركة مكونة من فعل وفعل نقيض، رد فعل وقرار حول تضالهما المتضادم، كما هو كشف واضح للقرود بقناعاته. واهدافه<sup>(٦)</sup>.

اما الوضعية الاصطدامية فتتجلى كاختلاف حيوي في حالة معاكسة تجاه شيء آخر. لذا فهي مؤهلة لارساء دعائم الموضوع الدرامي الذي يلائم طبيعة الفكرة ويرسم معالم المادة الاساسية التي تنسج النص الدرامي وتوحي بمضمونه في آن واحد.

ان عملية تحضير عناصر الموضوع: الوضعية، المشاكل، الوقائع، الشخصيات، الحكاية والاغاني... الخ. لاتخلو من تداخل وتعقيدات بسبب تراكم الاحداث وازدحام التفاصيل وتعدد الشخصيات وتوفر أكثر من خط واحد للموضوع، فتتضخم المادة الدرامية التي كاي مادة فنية أخرى، تخضع للانتقاء والعزل للحفاظ على طبيعة الجنس الدرامي. ولايرتبط العزل والانتقاء بموهبة المؤلف فحسب، انما بوعيه الدرامي والمامه بطبيعة الموضوع وما يريد ان يطرحه من دلالة...<sup>(٧)</sup>. ومنظوره الى الكون والمجتمع والفرد.

ان معايير التقنية المنهجية ومقاييسها النوعية المستوحاة من نظرية المعرفة الدرامية ليست قضائية، الزامية مطلقة، كما يعتقد من يجهلها، انما هي منظومة حيوية فنية مرنة تخضع لأعمال العقل والاجتهاد وتستفيد من مستجدات العصر، الفكرية والجمالية. وهذا جعلها، منذ عصورها المبكرة، مثار اهتمام ويحث ومجادلة على المستويين الفكري والفني بين الفلاسفة والمفكرين والادباء والفنانين، ابتداءً من ارسطو حتى هيغل، لوكاتش وبريخت. ومازال تطورها مفتوحاً على العصور المقبلة وما تجيء به من تحول وتجديد في التفكير والابداع. وهذا بالذات ما وفر امكانيات هائلة امام الدراما العالمية لترسي ركائز نظريتها المعرفية وتقنياتها الفنية وتحث خطاها بنجاح في مدارج التطور والتقدم.

لئن حققت الدراما العالمية أفضل انجازاتها الفنية نتيجة لارتباطها الايجابي بنظرية المعرفة الدرامية واستلهاها تقنيات ومناهج تلك المعرفة في التقييم والابداع، فهل تتوفر الدراما العربية على علاقة ما بنظرية المعرفة الدرامية وماهي مصادرها؟ وهل تعتمد اصولاً تقنية منهجية — مرجعية معينة في انجازها وتقييم معطياتها..؟

لكي تتوفر أجوبة موضوعية وافية عن هذه الاسئلة يتعين أن نتابع بعض نماذجها التطبيقية المتميزة في أكثر من قطر عربي بغية التنقيب عن مصادر الهامها وتأمل اصول معمارها واستقرار خصوصية آليات تقنياتها، ومن ثم الكشف عن مستويات معايير قيمها الابداعية فنياً وفكرياً على الصعيدين المحلي والعالمي. ولعل من أهم هذه النماذج هي الأعمال التالية:

مسرحية السلطان الحائر لتوفيق الحكيم، تستقي ميكانيزمات دوافعها ومنطلقاتها من فكرة صراع السيف والقانون من أجل سيادة القانون والعدل، التي هي بمثابة القاعدة النظرية التي تتأسس عليها المسرحية المذكورة. الفكرة ليست جديدة ولكنها حيوية بسبب فاعليتها الدائمة وتأثيرها المتواصل في كافة الأزمنة، وخاصة في البلدان النامية. ولكي يتم تجسيد كامل لهذه الفكرة في صور موضوعية عبر العناصر المحسوسة - مرئية وخفية - كالشخصيات والاحداث والاصطدامات لبلوغ الهدف المطلوب استلهم الحكيم وضعية متميزة من تاريخ حكم المماليك في مصر<sup>(٨)</sup> وهي في غاية الاصطدام والتوتر، تم تشكيلها من معادلات متباينة واتجاهات متنافرة يمكن أن تفجر جملة من المشاكل وردود الافعال والمواقف المتناقضة والصراعات الحادة لانجاز الموضوع المناسب الذي يستوعب المبدأ الدرامي من جهة ويشخص الفكرة ويجسدها من جهة ثانية.

تُوجّه تهمة صاعقة الى السلطان - الذي هو من المماليك - من قبل أحد السماسرة في سوق العبيد، مفادها ان سلطان البلاد، الذي نُصّب حديثاً، مازال عبداً مملوكاً لسلفه السلطان الراحل، الذي عاجله الموت قبل أن يعثق وريثه السلطان الحالي.. تتأكد التهمة وتثبت بعد محاكمة السماسر علناً في ساحة المدينة وبحضور السلطان نفسه.. آنذاك يقضي قاضي القضاة بتعطيل السلطان وايقاف صلاحياته لغاية بيعه وانعتاقه لان العبد لا يؤلى على أمر الامة شرعاً.

هذه الرضعية المتنازعة بحدّة أوجدت انقسامات خطيرة داخل النظام نفسه: فئة السيف: السلطة التنفيذية، الوزير، صاحب الشرطة.. والجلاد يتمسكون بالحفاظ على السلطان - رغم عبوديته - ويرفضون بيعه لحماية مراكزهم ونفوذهم ثم فئة القانون: السلطة القضائية (قاضي القضاة واتباعه من مشرعين وقضاة) تطالب بتطبيق القانون

نصاً وروحاً، وفق مبادئ الشريعة وأصولها المقدسة.. أما الفئة الثالثة — عامة الناس — كالسمسار صاحب الحانة، عاهرة، مؤذن، أسكافي وغيرهم من المواطنين فقد جرى تجريدهم من أية وجهة نظر اجتماعية أو فكرية، ودون أي دور متميز في هذه الأزمة رغم كونها تشكل الطرف الأكبر في ما يتعلق بمصير النظام.. لم تعهد لهذه الشخصيات مهمات فاعلة انما وظفوا كأدوات سرديّة إخبارية تملأ فراغات الموضوع وتساعد على ترتيب أحداثه. لوعولجت مشكلة عبودية السلطان من خلال رؤية درامية نقدية جدلية ضمن آليات تقنية — المحور الأول — لتبلور المبدأ — الموقف الدرامي المطلوب والذي يقود عملية التخطيط فيزيغ القديم ويأتي بالجديد ليتم التغيير، لكن شيئاً كهذا لم يتحقق، لأن فتوى البيع مذيلة بشرط استثنائي مريب في صالح الحاكم — السلطان والنظام بهدف حمايته واستقراره بصورة مبطنة.. موضوعة بيع السلطان ربما كانت مقبولة، لكن شرط اقتران هذا البيع بالتنازل عن المبيوع وتوقيع حجة عتقه فور الشراء — كما ورد في تذييل الفتوى — فهو فخ محكم نصبه القاضي بمكر وانتهازية لا يناقض الشرع والقانون فحسب، انما يتنافر مع أبسط مفاهيم البيع والشراء القائمة على حرية التملك وضمان حقوق البائع والمشتري دون تهديد أو إكراه من فجر المقايضة حتى رأسمالية اليوم. ولعل العاهرة التي تورطت بشراء العبد — السلطان، كانت واعية لما يرمي اليه قاضي القضاة حين خاطبت بلباقة: أهذا هو شرطك؟ لكي اشترى يجب أن أعق، لكي املك يجب ألا املك. اترى هذا معقولاً<sup>(٩)</sup>.

عبودية السلطان أوجدت امكانيات شرعية وعرفية للإطاحة به، بل افرزت دوافع انقجار هبة شعبية مؤهلة لأن تعصف حتى بنظام المماليك بأسره في مصر.. لولا تردد الحكيم نفسه، بسبب نزعة التبعية وانعدام قناعته بالتغيير وما يترتب عليه من نتائج فكرية واجتماعية.. لهذا ترك القاضي يدافع عن القانون شكلياً، كما سمح له عملياً ان يتلاعب بالالفاظ وبإدارة جدل صوري مثالي يخلط المفاهيم لتبرير تحرير السلطان وإعادة الى سدة الحكم، والحفاظ على نظامه المملوكي القائم في آن واحد.. وهذا ما تم فعلاً في نهاية المسرحية.. مهدت وضعية السلطان الحائر للفعل الذي يحمل في ذاته بذرة نقيضه، فلاحت ومضات المبدأ — الموقف الدرامي المناسب، بيد أن هذا الفعل أخذ يتكسر ويتراجع داخلها وذهنياً نتيجة الانصراف التام نحو البحث عن المثال المستحيل والمطلق الذي ينشده الحكيم، المتمثل في سلطان (من قصيلة المماليك المعروفة بالبطش والارهاب والاعتقالات) يحترم القانون ويطبقه بنزاهة وانصاف وعدل مطلق

على نفسه وعلى رعاياه بالتساوي. وحين خذلته الوقائع التجأ الى التحايل على منطق الاشياء وطبيعتها، فابتدع عدلاً موهوماً مرتبهاً بشروط غير طبيعية ولا منطقية، كما هو الحال بالنسبة الى تذييل الفتوى، الذي جرد المشتري (الغانية) من حريته واردة اختياره وبذلك ينفي مبدأ العدل والحرية الذي تناضل من أجله المسرحية. هذه المغالطة الفكرية، التي ظهرت في أوج تازم الوضعية، لم تشوش الفكرة فقط، بل أبطلت جدليتها وحولتها الى مساجلة لفظية يتناظر فيها السيف والقانون بمنطق شكلي ويتحايل بادوات ومقاييس ابهامية مجردة أعمت الفعل، وخلخت المجاهبات فشتتت الفكرة وضاع الهدف بين مدارات تجريدية وانعطافات وهمية لا قرار لها. بدأ الصراع بين الغانية والقاضي قوياً للحظات ثم راح ينحدر وينطفئ لأنه أضحي مفتعلاً بعد ان فقد تبريره وتماسكه، فانعدمت لحظة التخطي وعادت الاشياء الى سابق عهدها، والا ما الذي تغير بعد كل تلك المفارقات والمفاجآت الحوارية العامة.. الغانية اشترت السلطان، وفي الحال أذعنت الى توقيع حجة عتقه وتحريره فوراً ويحد السيف. والسلطان المملوك الذي بيع وأعتق في ذات الوقت عاد الى عرشه منتصراً مجزاً، يحف به الوزير وقاضي القضاة والجلاد وصاحب الشرطة، أما الزعم بانتصار القانون وانهازم السيف كما جاء في نهاية المسرحية فهذا ما لم يتحقق الا على مستوى المنطق الصوري المثالي المحصور في ذهن الحكيم وحده والذي يعنى بانسجام الفكر مع نفسه وبغض النظر عن مستوى تجسيده على صعيد الوقائع الموضوعية. وهذا ما لا يتناقض مع نوايا واهداف حكام السيف الذين يتبارون كحملة للقانون والعدل والحرية جهراً ويرتكبون افطع جرائم الغدر والارهاب والاغتيال خفية...

إذا انتقلنا الى مسرحية «الملك هو الملك» لسعد الله ونوس، فسوف نلتقي بحفل تنكري يضم اربعة اصناف: فريق السلطة: الملك وحاشيته، وفريق التاجر المفلس، ابو عزة، وعائلته مع تابعه عرقوب. يشغل هذان الفريقان معظم ساحة الحفل، أما الفريقان الثالث عبيد وزاهد، والرابع الشيخ طه وشاه بندر التجار. فهما مشيان من حيث الفاعلية، وعلى اطراف حلبة التنكر...

لماذا هذا الحفل وما الذي يتوخاه..؟ وما هي قيمته الفكرية والفنية على مستوى الانجاز والابداع..؟

لعل المؤشرات الاولى المقدمة لمعطيات العرض تنبئ ان الحفل أقيم ليتمثل مقولة سياسية متداولة رغم قدمها، مفادها ان سلطة القوة ثابتة وأبدية، اما الاشخاص، الحكام،



فهم المتغيرون وحدهم ولا فروق أساسية بين أختيارهم وأشرارهم، أو شرفائهم وأرأذلهم، فالجميع أدوات عمياء محكومون لمشينة — ماكنة سلطة القوة، وفرض قوانين وأليات هيبتها وجبروتها بكل الوسائل، الشرعية وغير الشرعية. فالملك هو الملك ورغم نسبية هذه المقولة واستثنائيتها، فإن الحفل راح يبرهن بكل امكانياته على صواب المقولة المذكورة، كقاعدة ذهنية راسخة عامة ومطلقة دون التمعن بمعطيات العصر وتطوراته — من خلال موضوع النص ووفق وجهة نظر المؤلف وقناعاته الفكرية والفنية.

من يتأمل الوسائل والأساليب التي شيدت بناء المسرحية وكونت مؤشرات ابعادها الفكرية والفنية فسوف يلاحظ منذ البداية لافتة تقول «الملك هو الملك» — انها لعبة تشخيصية لتحليل بنية السلطة في انظمة التنكر والملكية فنتوقع مشاكل ساخنة مع بؤر توتر ومجابهات حادة، بين فئات تتباين اجتماعياً وذهنياً، ومن غير الممكن أن يتم لقاءها، ولو من أجل اللعب، دون مواقف وآراء متناقضة ومتضادة، لاسيما وهو لعب سياسي اجتماعي، بين الحاكم والمحكوم. ويكفي هذا المؤشر لنهوض درامي معتبر.. كما أن تحذير الجلال، ممثل الملك بقوله: «المسموح على قدر الممنوع وفي التوازن السلامة والامان وإن التخييل مسموح إلا إذا انقلب احدهما الى واقع أو فعل»<sup>(١٠)</sup>، فيمكن ان يقوم بتعبئة لمشكلة كبيرة يتمخض عنها فعل يحمل نقيضه فيكشف الشخصيات بوضوح ويبين اهدافها ومواقفها أولاً، ثم يقود صراعاً مبرراً وقوياً حتى لحظة التغيير ثانياً. فالتحذير يغذي النهوض المنتظر باعتبار الكبح والمنع يحملان الخرق والتخطي والمجابهة. إلا أن اذعان عرووب، تابع التاجر المفلس، وتخاذله السريع أمام التحذير بقوله: «لا.. لا.. لا هي احلام فردية لا تتحد ولا تفعل»<sup>(١١)</sup> وصمت الفريق الثوري عبيد وزاهد وانزواء فريق الشيخ طه وشاه بندر للتجار، هذه المواقف المجردة من أي رفض أو مجابهة أحبطت معظم التوقعات الدرامية المنتظرة، وأشاعت على مستوى المعالجة ممارسة وضعية خارجية لوضعية محدودة — ساكنة، غير مؤهلة إن لم تكن عقيمة لتوليد الفعل ونقيضه في مدار الصراع والتغيير. عليه بات كل فريق منطوياً على ذاته — لا يتحد ولا يفعل معزولاً يسرد همومه ومعاناته مستسلماً لاحكام حظه العاثر. كما أراد الجلال.

إذا كانت ثمة لعبة تنكرية فعلاً، فهي ما دار في البلاط الملكي، وفي اللوحات الاخيرة من المسرحية، حين استيقظ ابو عزة من سكره الشديد ليجد نفسه متربّعاً على عرش

البلاد، التاج على رأسه والصولجان في يمينه، بعد أن تواطأ الملك مع عرقوب سرأ على نقله إلى البلاط وهو في أقصى درجات السكر. وفي الحال راح الملك — اللعبة — أبو عزة يقضي في شؤون الرعية بقرارات رعناء واعتباطية، إذ بدلا من أن يحاسب التجار الذين يحتكرون قوت الناس — ولهم ضلع في افلاسه — ويمارسون الغش والخداع في البيع والشراء، راح يساومهم ويعقد الصفقات معهم، وحين حضرت زوجته وابنته تتظلمان اليه، بسبب جوعهما، تنكر لهما وطردهما.. كل هذه الحماقات والسفاهات كانت تجلب الضحك والغبطة إلى الملك الأصلي، الذي راح يتابعها من إحدى الزوايا الخفية في البلاط بلذة ونشوة، وحين أخذ أبو عزة يكتسب ثقة الجلال ومقدم الأمن وود الملكة الأصلية، انتفض الملك الحقيقي صارخاً: قولوا كانت لعبة.. الملك هو الملك.. أنا هو.. اللعب ممنوع والخيال والحلم ممنوع<sup>(١٢)</sup>. وقبل أن يتلاشى صدى صرخته تبخر أبو عزة من البلاط. وبذلك تنتهي اللعبة برمتها. أما الآخرون، مثل عبيد وزاهد، فلم يكن لهما حضور فعال ومتميز في اللعبة. فهما يتهامسان عن نضال ثوري واحتجاج جماهيري دون أية فعالية ملموسة بهذا الشأن، كما يتحدثان عن طبع وتوزيع منشائر تحريرية لم تطبع ولم توزع إلا على لسانيهما، كذلك حديث اللقاءات الجماهيرية التي لا وجود لها، لأن كل هذه البطولات لا تتحد ولا تفعل. فهي مجرد ترديدات شفوية أو شروحات وصفية من هذه اللوحة أو تلك الفاصلة، دون أن تملك أي تأثير جاد لا على اللعبة ولا على لاعبيها. وهذا منطبق على الشيخ طه وشاه بندر التجار أيضاً. إن محاولة المؤلف انتقاء موضوع ملائم يحتوي أطروحته — الملك هو الملك — للكشف عنها والبرهنة عليها في آن واحد، كانت مرتبكة وغير مضمونة لأن الأطروحة ذاتها — كمقولة عامة — لم تكن كفكرة مدروسة ذات دلالة مهمة وموضوعية يمكن أن تتبادل الفاعلية والتأثير مع الأدوات والنماذج التي تتمثلها وتؤكدھا.. هذه المقولة تصلح لزمن الإباطرة والقيصرية ومحاكم التفتيش في عصور الاستبداد والانحطاط والظلام، وانتهت بزوالهم بعد أن انقلبت العديد من الأنظمة الملكية إلى جمهوريات ديمقراطية انتخابية وما تبقى منها أصبحت ملكيات دستورية برلمانية تعددية في بلدان العالم المتقدم.

وإذا جاز إسقاط هذه المقولة على البلدان النامية فبسبب ظروف أملتها مصالح وأطماع قوى امبريالية وتقضي بالضرورة إلى تسليط طراز خاص من الحكام — ملوك، أمراء.. شيوخ، وحتى رؤساء جمهوريات (يحصلون على نسبة ٩٩٪ من أصوات الناخبين) يخدمون أطماع ومصالح تلك القوى رغم إرادة شعوب بلدانهم وبذلك

يحافظون على عروشهم حتى الموت. هذه الظروف ليست قدراً أبدياً مطلقاً كما تعالجها المسرحية من خلال مقولتها، انما هي حالة غير طبيعية، مرهونة بنضال وكفاح هذه البلدان من أجل تصفية نفوذ القوى الكبرى واقتلاع جذور الاستبداد والدكتاتورية. ان تبشير هذا الكفاح والنضال أخذت تلوح في آفاق هذه البلدان، اذ ثمة معارك باسلة وشهداء وسجناء الرأي في العديد من هذه البلدان، بل ان بعضها حققت انتصارات باهرة على زمر التسلط الاحادية والشيوقراطية والعشائرية، فمقولة الملك هو الملك ليست قاعدة مطلقة — كما وظفها المؤلف، فاجدت تناقضاً عميقاً بين خصوصية الحركة والتغيير الملازمة موضوعياً — لبعض مكونات الموضوع وبين مضمون المقولة الثابت والمطلق.

ان افعال التنكر المعروفة خاصة في كتاب الف ليلة وليلة الذي استقى المؤلف منه لعبته — لا يمكن ان تتم دون تازم واصطدام ومجابهة، نتيجة لجهل الناس هوية المبتكر، اضافة الى ان التنكر غالباً ما يتوجه الى الاوساط الفقيرة المضطربة الى التحايل او الابتزاز لاجل لقمتها، وهذا ما يجعل التنكر مصحوباً باخطاء ومفاجآت غير متوقعة وتغيرات لم تكن محسوبة، ولكي تكون وضعية التنكر منسجمة مع المقولة عمد المؤلف الى تجريدها حتى من آلياتها الطبيعية والحيوية لكي تتطابق مع دلالة الثابت والمطلق المقصودة، وهذا ما حصل للقراء الذين أخذوا يتمثلون المقولة بسلوكهم. فهم كما أخبر عنهم متباينون اجتماعياً وذهنياً ومصلحياً، وهم في هذه الحالة غير صالحين لتمثل المقولة ولا للبرهنة عليها مالم يجردوا تماماً من جدلية تباينهم. وهذا ما تم فعلاً، وهكذا حافظ المستضعفون منهم على رؤسهم وانكسارهم من البداية الى النهاية، ورغم امكانياتهم على الرفض والاحتجاج لم يحاول احدهم المجابهة ولو مرة واحدة مع نظام متسلط وفاسد يذلهم ويقهرهم. حتى اللعب الذي اختير كشكل لمعالجة البناء لم يسلم من التعطيل والتجريد والتجميد. فاللعب بكافة ألوانه واشكاله جدلي لانه يقوم على التنافس والمجابهة والصراع ومن ثم التغيير، نصراً او هزيمة. لكن اللعب الذي تمثل اللعبة — المسرحية — تجرد مسبقاً حتى من نية المجابهة والمناقشة ليكون صورة طبق الاصل من دلالة المقولة المطروحة. ولهذا اضحى مشلولاً، لا يتحد ولا يفعل. وترك اللاعبين يائسين مقهورين ومهزومين. عدا الملك السفیه والفاسد. هكذا هبطت الوضعية بعد تفرغها من شحنتها الدرامية وبات حضور المبدأ — الموقف الدرامي مستحيلاً لاضمحلال الفعل واتعدام نقيضه، فاجهض التغيير وعمد الثابت، ولذلك هيمن المبدأ —

الموقف — الروائي لكثرة ما توفر في اللعبة من آليات وادوات سردية اخبارية وصفية مترجمة الى حوار او عن طريق الشروح والملاحظات. كلها تتجزأ الى لوحات وفواصل لترتيب البدايه والنهاية.

وحين نستقرئ مسرحية الجراد لمحي الدين زنكنة — من العراق — فسوف نجدنا تركز على دلالة مهمة توحى بخطر جسيم، مصيري، كما لو أن غزواً خارجياً يكاد أن يطبق على مدينة ما.. أو وطن من الأوطان. تنشطر ميكانيزمات الوضعية الى جبهتين متناحرتين بضرارة، الاولى وهمية يرمز لها المؤلف بالجراد ويصر على الإيحاء بحضورها الإيهامي في كافة المعارك من بداية المسرحية حتى نهايتها، ومن خلال الوصف التقريرى الخارجى والملاحظات والمقدمات والشروحات سواء من قبل المؤلف نفسه او بواسطة احدى الشخصيات:

الزوج: وقد حطت جرادة على وجهه يضربها بعنف، تأتي أخرى، يقاوم بضرارة، يضرب بشدة، الجراد يهجم، يحيط بكل واحد باعداد متفاوتة الكل يقاوم<sup>(١٣)</sup>.

وقد تقوم الشخصية نفسها بهذا الوصف والشرح:

السائق: الجراد.. الجراد.. جراد كثيف.. جراد هائل. هبط كقطعة ليل سوداء.. جثم أمامي كحائط الصلب حاولت اقتحامه<sup>(١٤)</sup>..

ان معالجة تعثر الجراد — إيهامياً — مباشرة. وأغفال محاولة معالجته مجازياً كما فعل ارستوفان في «الضفادع والزنايير» وسارتر في «الذباب»، جعلت امكانيات هذا التمثل في الفاعلية والتأثير ضئيلة، وهذا ما حمل المؤلف على الاحتماء بالوصف والسرد والاخبار لتلافي النقص والهبوط، تبع ذلك سيطرة اللحظات الماضية على مساحات واسعة من الجبهة، اما محاولة تصميم حركة الفعل، في الحاضر والآن، فهي ضيقة وتكاد أن تقتصر على بضع شخصيات حائرة في مجابهة وهمية لعدو غير منظور..

لو جسدت دلالة الغزو من خلال وضعية مدروسة درامياً وبمنهجية واعية من حيث مشاكلها، وقائعها وشخصياتها لتوفرت على منطلقات اصطدامية وافعال متناقضة في غاية التناحر والمجابهة العدوانية ولتأصلت لبلوغ اعلى المواقف الدرامية.

اما الجبهة الثانية فتتشكل من المواطنين وهم صنفان الاول اعلامى اخبارى فردي يشغل اللوحات الثلاث الأولى، يظهر ويختفي دون نسق او تصميم.. أوكلت اليه مهمة نقل الاخبار، حول حركة الجراد، ومعاركه وضحاياه وانتصاراته. واشد المتحركين من هذا الصنف هم الطبيب، السائق، المزارع، بائع متجول، وكيل متجر، بائع صحف..

مرمضة وأطفال مدرسة. جميع أفعال هؤلاء محكية وردودهم مروية ماضية وفق توجيهات المؤلف وشروحاته، لأنهم بلا مواجهة فعلية.. أما الصنف الثاني، فيتألف من أم وابنها وبناتها ويتميز بالفاعلية والتماسك ضمن مسار مرسوم بتصميم دقيق عبر اللوحات الثلاث الأخيرة. ورغم كون وضعية هذه العائلة محدودة نسبياً، إلا أنها لا تخلو من اصطدامات موضوعية، إضافة إلى مجابهة الجراد الایهامية، تمثلت في مجابهات خامية بين أفراد العائلة ذاتها. فتوفرت مواقف درامية مهمة. فالشخصيات أخذت تتناحر بعضها ضد البعض الآخر وتتحد متماسكة في آن ولحد نحو حسم هذا التناحر فتوفر صراع واضح ومبرر.. الأم تمنع ابنها وبناتها من الخروج من البيت بعد أن أقفلت الباب بأحكام خوفاً عليهما من الجراد والموت كما أنها لا تسمح لأي كان بدخوله لنفس السبب، يحاول الفتى والفتاة الانطلاق إلى الشارع لمكافحة الجراد ومساعدة ضحاياها، إلا أن الأم تمنعهما بشدة، وإذا التمسّت جارتهم كسرة من الخبز لطفلها الجائع، رفضت للاحتفاظ بالخبز لابنها وبناتها — وحين يصل خطيب البنت، الذي استحال إلى جرادة بعد أن باع نفسه للجراد ليصطف مع العدو ضد الوطن، يحاول الابن والبنت طرده بقسوة لكن الأم تنحاز إلى الخطيب وتدافع عنه، دلالة على ضعفها واستسلامها. وفي خضم التناحر الشديد بين أفراد العائلة ذاتها — حول المجابهة والاستسلام — تختفي البنت وتنهار الأم وقبل أن تستجيب إلى الخطيب لتتقلب إلى جرادة مثله يقتلها الابن ثم يختطف الطفل الجائع ابن جارتهم وينطلق إلى الشارع، وبالفاز خاطفة تأجلت دوامة الموت المروية بلا نهاية..

لاشك ثمة أهمية واضحة لجبهة الجراد في الإيهام بوضعية الغزو الطافحة بالمشاكل والاضطرابات العنيفة، إلا أن غيابها موضوعياً رغم المحاولات الحثيثة للإيهام بها جعل المواجهة أحادية معتمدة على توجيهات المؤلف وملاحظاته وشروحاته لتغطية الأفعال المخبرية برود وصفية ومروية وبذلك تهيات نسبة عالية من السرد والاختبار على حساب الموقف الدرامي الذي أخذ يتراجع ويتضاءل لغلبة الرواية على الفعل وهيمنة التقرير على الجدل. كما أن شمولية دلالة الغزو وانفتاحها على أبواب عديدة دون تخصيص، بالنسبة للمؤلف، أوجدت صعوبات عسيرة في عملية انتقاء آليات الموضوع. فازدحمت الأدوات وتراكمت المواد دون فرز وتمييز بين المهم والأهم، واختزال الفائض والاحتفاظ بالضروري والأساس، ثم بلورته وتعميمه بشكل أعمق وأصدق من خلال التجربة الفنية، لتشديد البناء الدرامي الذي يقوم، من حيث الجوهر، على التكتيف

والتركيز. والدراما بطبيعتها الفنية والفكرية لا يمكن أن تكون مستودعاً لكل مصائب الأمة في حفل لا يتجاوز الساعتين، كحد أقصى. هكذا كانت أكادس المشاكل المتلاحقة والمتشابكة في موضوع المسرحية، وإن اتفقت مع سعة الدلالة وانفتاحها، إلا أنها كانت السبب في ارتباك الأحداث واضطراب الشخصيات وابتعادها عن المسار الدرامي والهدف الفني والفكري في التخطي والتغيير..

- ٣ -

بعد رحلة التنقيب بين فضاءات بعض العيّنات الدرامية السالفة يمكن تأشير أهم السمات العامة التي تميز آليات بنائها ورؤى أبعادها الدرامية التي تضافرت من أجل تقنياتها وإنجاز صياغتها فنياً وفكرياً. ولعل أوضح هذه السمات تتمثل في الآتي من آراء وملاحظات:

عرفت الدراما العربية تطورات كبيرة، من أواخر الستينيات حتى الآن، على مستوى التمثيل والإخراج، إضافة إلى تصاعد الوعي الدرامي نتيجة الزيادة الملحوظة في افتتاح معاهد التمثيل وإنشاء دور العروض المسرحية في العديد من البلدان العربية، إلى جانب انتشار البحوث والدراسات النظرية والصحافة الفنية. بيد أن المتتبع الواعي لشؤون الدراما العربية يجدها تعيش متاعب مضنية، فما زالت أسيرة لم تتحرر، كما هيّة، من ارتجال الوصفيات المحددة — الساكنة. ولم تتخلص من هيمنة الجملة الخبرية، السرد، التقرير، الوصف الخارجي، التعلق بلحظات الماضي.. الخ. ولهذا ظلت رهينة لحظات الحكاية المروية الوعظية، فتضائل الفعل وانعدم نقيضه فتواري المبدأ الدرامي، وتعلّلت نتائجه، لأن الدراما أصبحت قريبة جداً، وعلى حساب خصوصيتها النوعية، من الرواية أو القصة، مبدأها السرد المترجم إلى حوار ساكن متبادل بين شخصياتها، ضمن وصفيات تقليدية مستقرة لا تتبدل، انطلاقاً من ذهنيات مشوشة إزاء دور الإنسان الواعي، والموقف من متطلبات العصر الفكرية والاجتماعية والفنية..

إذا تجاوزنا مظاهر الأشياء إلى جذورها وأصولها فسوف تجابهنا أسئلة عديدة: كيف ولماذا ظلت الدراما العربية رغم مضي ما يقارب القرن والنصف على ميلادها بفضل مارون النقاش، تجترق ألها الشككية التقليدية ومضامينها المنقولة والمحافظة، ماهي أسباب تخبطها وارتباكها في بلورة منظورها وصوغ معايير تقنياتها وإبداعها..؟ أحقاً هي

عاجزة ومتخلفة معرفياً وفكرياً عن مواكبة التطورات الكبيرة التي انجزتها الدراما العالمية... أين يكمن سر هذا العجز والتخلف ولماذا؟

لعل معظم الردود والإيضاحات بشأن هذه الاستفسارات تندرج في صميم أزمة الثقافة السائدة في البلدان العربية، لاسيما وأن الدراما جزء حيوي من هذه الثقافة. إن لم تكن أحد أركانها الأساسية. ورغم اهتمامنا بالعديد من مظاهر الحضارة وما تتوفر عليه من علوم ومعارف وفنون (جامعات مكتبات، استيراد مختبرات). إلا أن ثقافتنا السائدة ظلت متأرجحة من بداية عصر النهضة العربية في القرن التاسع عشر حتى اليوم، بين مبدأ الاتباع والنقل وبين مبدأ الإبداع والعقل، وهي — أساساً — وبتأثير سلطة القوة أميل إلى المبدأ الأول، فقد تعلم الكثيرون القراءة والكتابة وتعرفوا على منجزات حضارية واستخدموها في منافعهم فاصبحوا متحضرين بأزيائهم وبيوتهم ومركباتهم وماكلهم ومشاربهم. أما روحياتهم ونزعاتهم الكامنة في أعماقهم فقد ظلت عصبية الرأي عشائرية الولاء، اتباعية الإدراك مشدودة بقوة إلى ما ورث من أعراف ومسلمات من غياهب عصور القهر والانحطاط لأن ما تعلموه لم يُعنَ بالوعي العلمي والثقافة الموضوعية، بل انصرف إلى الوصف الشكلي والتقريبي من خلال الاهتمام بمظاهر الأشياء دون جواهرها بقية الحفاظ على ماهو سائد ومستقر. ومن هنا تبدأ معضلة التناقض المبدئي مابين نظرية المعرفة الدرامية القائمة على الشك والنقد والمساءلة والجدل والتخطي والإبداع والتغيير وبين مفهوم الثقافة السائدة، الراسخ على اليقين المطلق المؤسس على النقل والتقليد والمحافظ على القديم المتبع، والرافض بشدة لأي مسعى للنقد والتحليل باتجاه البحث عن الجديد. ومما يغذي هذا التناقض ويكرسه هو أن معظم أنظمة الحكم القائمة رغم تظاهرها بالحضارة والتقدم فهي (من وراء الكواليس) تدعم الثقافة التقليدية السائدة ولا تتجاوب مع منتقديها من مفكرين ومبدعين ومتتورين إن لم تقمعهم، لأنها تستمد من اتباعية موروثة هذه الثقافة مشروعية استبدادها وهيمنتها. هكذا لم تعد احباطات الدراما العربية متأتية من محرمات الثقافة السائدة فحسب، إنما من ممنوعات سلطة القوة عندنا أيضاً. فهي تسخر الثقافة بأشكالها، وبضمنها المسرح، في خدمة مصالحها والحفاظ على هيبة نظامها الفردي الشمولي. ولهذا فمن غير الممكن أن تتعايش مع الدراما الفنية، المؤسسة تقنياً وفكرياً على مبادئ وأصول التحليل، الجدل، التخطي، التغيير، التجديد، وإذا اضطرت بعض هذه الأنظمة إلى قبول الدراما كواجهة إعلامية لمجاراة العصر — شكلياً — فهي ترتحن

ذلك القبول بتصفية أو تعطيل تقنياتها المبدئية فكرياً وفنياً لأنها لا تتوخى من الدراما أكثر من حكاية حوارية فوتوغرافية تقليدية سواء أكانت تاريخية، أسطورية، أو واقعية تتغنى بمآثر القديم وتمجد مكتسبات سلطة الحاضر.. وبذلك تتفادى زلازل التخطي وتتجنب عواصف التغيير..

لقد افرز حصار الثقافة الاتباعية المطلقة وضغوط سلطة القوة الاحادية، البطيركية، اتجاهات عديدة في مسار الدراما العربية على مستوى نظريتها المعرضية وآليات تقنياتها المنهجية. فثمة اتجاه راح يتملص بمكر ودهاء من ضغوط وحصار الثقافة السائدة والسلطة القائمة في آن واحد، وبدوافع تجارية غير معلنة، ابتكر حجة استياء الناس من المسرحيات الفكرية المركبة.. والمسرحيات الدعائية والاعلامية المتوترة، والبديل هو الرجوع الى المواضيع الشعبية التقليدية الموروثة، من شقاوة ومفارقات عائلية قبلية وما تعلق بها من أرث ووسطو، وحب وثأر، بأطر فكاهية خفيفة مباشرة لا تناقض الاعراف والتقاليد ولا تزعج السلطة القائمة. وهذا كل ما يتطلبه الناس من المسرح على شتى مستوياتهم..

وراح اتجاه آخر يدعو الى الانفلاق على الذات والانعزال عن كل ما هو غريب، فهو اتباعي ينفي نظرية المعرفة الدرامية العالمية وما يتعلق بها من آليات تقنية منهجية، باعتبارها معرفة غازية، تهدد الثقافة السائدة وما تشتمل عليه من قيم ومفاهيم موروثة مقدسة. ولهذا فهو يدعو بالحاح الى الرجوع نحو التراث والتنقيب فيه عن اصل عربي للمسرح يكفل تقنية محلية نابعة من تربة الوطن وتقاليد العريقة... فالتأصيل وحده يقهر الغزو الثقافي، ويغني عن التقنيات الوافدة، ويثري الثقافة السائدة أيضاً. منذ الستينات يتناظر أشتياح واتباع هذا الاتجاه في المحافل والمؤتمرات المسرحية الحكومية، ويحرون الاف الصفحات تحت واجهات طائفية وعصبية. تنظيراً وتجريباً حول الغزو الثقافي المسرحي والتأصيل...! ولحد الساعة لم تتبلور عند واحد منهم أية رؤية درامية مؤصلة ولا محسنة على المستويين الفني والفكري، لا في المغرب العربي ولا في مشرقه..

أما الاتجاه الحديث، رغم ما يعانيه من اعاقة، فهو موضوعي الرؤية علمي الذهنية، يلتزم بانجازات الفكر الحديث ومعطياته التحليلية النقدية والجدلية، ويؤمن بنظرية المعرفة الدرامية ويحترم منجزات وآليات تقنياتها المنهجية باعتبارها موروثة حضارياً انسانياً مشتركاً، ساهمت في تطورها وتقدمها شعوب مختلفة فهي ملك الجميع وبوسع



أي فنان واع ومتحضر ان يستوعبها ويستلهم منها الآليات والأطر الملائمة لأفكاره ومواضيعه المحلية والوطنية. ويبقى حظ هذا الاتجاه مرهوناً بمستقبل الثقافة الموضوعية والديمقراطية في البلدان العربية..

وبين الاتجاه الاتباعي التأسيلي والحدائي يتوسط اتجاه توفيقى وسطي فهو لا يرفض نظرية المعرفة الدرامية العالمية، بل يستفيد من بعض آليات تقنياتها لتوصيل أفكاره وآرائه الخاصة من خلال الدراما، ولكنه يتحفظ بشدة أزاء آلية الجدل — المبدأ — الموقف الدرامي، في تلك التقنية للحفاظ على معتقداته الفكرية والكونية الراسخة من التجديد...

الدراما، كأي فن آخر، عمل واع لا يمكن ان ينشأ بصورة عفوية مرتجلة دون منظومة معرفية وقاعدة نظرية — فهو من أشد الفنون حاجة إليها وحرصاً عليها كي تحفظ طبيعتها النوعية وخصوصيتها الفنية، لاسيما وهي تركيب معقد لمجموعة فنون تداخلت وانصهرت في مرجل فني ليعاد خلقها مجدداً كنوع فني متميز...

إن عالم الدراما بأسراره وعجائبه، عالم معقد ومدهش ورائع. هذا العالم لا يقوم بلا مهندس موهوب مثقف واع درامياً، قوي الحدس، حاد الذكاء، ماهر الاستقراء والاستدلال، واسع الاطلاع، جدلي الفكر، عميق النظر، ثري الخبرة والتجربة الدرامية والحياتية، يستشف المجهول، يحيط بهوموم الناس، ويعاني عذاباتهم، يقدس الحياة والحرية والانسان، دون تعصب او انحياز لدوافع طائفية او عرقية، منفتح الروح والعقل يوفن بالتقدم والتغيير، يحترم الرأي الآخر. عند ذلك يستطيع هذا المهندس ان يستوعب روحية الدراما ونظرية معرفتها ويدرك بوعي خلاق نوااميسها النوعية الكونية التي هي المنبع والوحي لكل انواع التقنيات الرائعة والغائقة.

## الهوامش

(١) مبادئ الفن. د. ج. كولنجورد. ترجمة: احمد حمدي محمود. ص. ٢٤

(٢) مدخل الى المسألة — التراجيديا — الدكتور انطون معلول. ص. ٢٤.

(٣) نظرية الدراما — سينيشتا بانولفا، ص. ١١٠.

(٤) المبدأ في الدراما. أريك بينيتي. ترجمة: جبرا ابراهيم جبرا. ص. ١٥٢.

(٥) المسرحية بين النظرية والتطبيق. محمد عثير. ص. ١٦٥.

- (٦) علم الجمال. هيفل، ج١ - ص ٢١٠.
- (٧) من فنون الأدب / المسرحية. الدكتور عبد القادر القط، ص ١٢.
- (٨) المماليك عبيد اترك: جراكسة ومغول جندهم الايوبيون في الجيش واستولى بعضهم على الحكم في مصر ١٢٥٣-١٥١٧ وبسطوا نفوذهم على سورية. قفسى العثمانيون على دولتهم الا ان اعيانهم ظلوا مصدر فتن واضطرابات. حتى تخلص منهم محمد علي باشا في مذبحة القلعة المشهورة في القاهرة ١٨١١ تميز عهدهم بالفوضى والارهاب والعنف والاغتيالات - المنجد في اللغة والاعلام ص ٥٤٦ دار الشرق - بيروت.
- (٩) السلطان الجائر - توفيق الحكيم، الفصل الثاني، ص ١٢٠.
- (١٠) الملك هو الملك سعد الله ونوس ص. ٧.
- (١١) الملك هو الملك سعد الله ونوس ص. ٨.
- (١٢) الملك هو الملك - سعد الله ونوس ص. ١٠٩.
- (١٣) مسرحية الجواد - محي الدين زنكة، اللوح الثالث ٦٨.
- (١٤) تناس المصدر. ص ٤٨

وهران - الجزائر

١٩٩٦/٥/٢٧

## إصدارات وردت

سنابل : شهرية للأطفال ، النرويج ، العدد ٣ ، (يحررها صافيلو) .  
 عشائر : العدد ١٨ ، أستراليا ، بمساهمات لحسين الشويلي ، طالب العبودي ، عدنان البرزنجي ، عبد الغني الخليلي ، مازن يوسف تلو ، مريم جوزيف ، ابراهيم أحمد ، حسن ناصر حسين ، أن فيريرون ، مشرق الغانم ، ناجي حسين ، جمال كاظم ، فاهم ادم ، كاظم طوفان ، هادي العلوي ، انعام الصفار ، عبد الوهاب طالباني ، علاء مهدي .  
 الوركاء : العدد ١١ ، بمساهمات لفاتن الزبيدي ، كاظم حبيب ، كاظم الحلاق ، بزار الاريلي ، ه.ك. اندرسن ، عبد الوهاب البياتي ، فاضل العزاوي ، يحيى السماوي ، فاضل السلطاني ، توفيق عبد العظيم ، هادي المهدي ، صباح المتدلاوي .

## بدايات القصة والرواية في العراق

د. علي ابراهيم

هل للرواية والقصة جذور في التراث العربي؟ في الإجابة على السؤال انقسم الكتاب الى فريقين: - الأول يرى ان الرواية والقصة منقطعتا الجذور عن التراث العربي وقد وصلنا عن طريق الترجمة أو الاتصال المباشر. ويرى الفريق الثاني ان القصة والرواية المعاصرتين، هما امتداد للبدايات القديمة المتمثلة بالحديث النبوي وقصص القرآن والمقامات وباقي القصص الشعبية وغير ذلك من الاساطير على مر العصور. يقول جورج لوكاتش ان الرواية بالمفهوم الغربي ظهرت في القرن الثامن عشر مرتبطة بالتنوير الصناعي والاجتماعي الذي حاولت الرواية عكس سماته، فانبتت تقنيات حديثة متأثرة بالمدارس الفكرية والاجتماعية والسياسية، وظهرت المدارس الادبية ابتداء من الرومانسية والواقعية والتسجيلية والواقعية الاشتراكية وانتهاء بالموجات الجديدة.

الرواية العربية بدأت في القرن التاسع عشر متأثرة بالرواية الغربية. ومن خلال دراسة ابرز اعلام القصة والرواية العربية امثال نجيب محفوظ، حنا ميناء، الطاهر وطار، غائب طعمة فرمان والآخرين، نجد أنهم كتبوا رواياتهم متأثرين بالادب الغربي، علماً أنهم درسوا الادب العربي القديم الذي يعتبر جزءاً أساسياً من ثقافتهم. لقد اختاروا مضامين محلية وكتبوا اعمالهم على غرار الرواية (أو القصة) الأوروبية. أما المحاولات الاولى التي حاولت أن تختط لها طريقاً مستقلاً مستندة على القصص

العربي القديم فلم تستطع أن تخلق عملاً روائياً كبيراً يوازي الأعمال العالمية، واصحاب هذا الاتجاه يعتبرون سليم البستاني ومحمد المويلحي في روايتيهما «الهيام في جنان الشام» و«حديث عيسى بن هشام» أول من حاولا كتابة الرواية بمعزل عن التأثير الغربي. ثم جاءت بعد ذلك الرواية التاريخية التي تناولت قصص العرب ورجالهم المشهورين وكان رائدها جرجي زيدان. ويمكن القول ان «القصص» و«الروايات» التي حاولت أن تكون امتداداً لتراث القص العربي، هي عبارة عن مقامات متجددة أو حكايات تختلف عن القصة والرواية الحديثتين من حيث التكنيك الفني.

وهناك فريق ثالث حاول أن يوفق بين الاتجاهين السابقين فهو لا يعتقد ان القصة العربية في شكلها الحالي هي نتيجة للتأثر الأوح بالقصة الغربية، ويرى أن القصة في جذورها الأولى، وفي الشكل الذي ندعوه بالقص الساذج، تلتقي في كثير من السمات مع القصة الغربية عندما نعرف ان قصص «الديكامرون» أو «المائة قصة» لجيوفاني بوكاتشيو في القرن الرابع عشر، مبنية في شكلها ومضمونها حسب البنية المعروفة في الألف ليلة وليلة فلا يحق للباحث الموضوعي ان ينكر أهمية هذا الأثر الذي اطلع عليه عمالقة الأدب العالمي، ولا يمكن ان نقلل من شأنه ازاء ما ذكر من بدايات القصص العالمية ولكن يبدو ان هناك انقطاعاً في التسلسل التدريجي لتطور القص العربي ارتباطاً بانقطاع التطور الاجتماعي والحضاري خلال الفترات المظلمة التي مرت بالعالم العربي. ان التاريخ العربي لا يخلو من القص فهو مرتبط بنشوء الأمم، وأن جذوره تمتد الى آلاف السنين في ادب قدماء المصريين والاقاصيص الهندية على السنة الحيوان وفي الادب الاغريقي. وأول الوان القصة ظهرت في العراق قبل ما يقارب الخمسين قرناً ممثلة بالاساطير السومرية وعلى رأسها ملحمة كلكامش.

ما تقدم يؤكد أن القصة والرواية بشكلهما الفني الحديث ظهرت في الأدب العربي نتيجة لتأثرهما بالقصة والرواية الغربيتين، ولذا اجمع النقاد على اعتبار أن رواية «زينب» لمحمد حسنين هيكل هي أول رواية ظهرت في الأدب العربي الحديث، ويعتبر بعض النقاد ان الكتاب الذين يؤرخون بدء الرواية العربية بظهور «زينب»، انما يرجعون ظهور الرواية العربية الى تأثيرات غربية صرفة، وهم من ناحية يتجاهلون آثاراً روائية او محاولات كثيرة سبقت ظهور هذه الرواية. غير أن جورج سالم أحد الذين ذهبوا هذا المذهب يعتقد ان الأعمال التي ظهرت في القرن التاسع عشر سميت رواية تجاوزاً لأنها في حقيقة الأمر نوع من القصص يشكل مرحلة انتقالية ويمكن اعتباره انهاء للفن

القصصي القديم وإعلاننا عن موته وإرهاصاً لفن الرواية الحديثة.

\*\*\*

في دراسة عبد الإله أحمد القيمة «نشأة القصة العراقية وتطورها في العراق» يقول «إن الأدب العراقي الحديث، إنما هو في حقيقته شعر وقصة، لا شعر ونثر، وهو بذلك يؤكد على ضعف النتاج الأدبي العراقي في مجال المقالة والمسرحية والنقد. وسنحاول متابعة بدايات القصة منذ نشأتها الأولى في القرن التاسع عشر، ففي تلك الفترة كتب أبو الثناء الألويسي مقامته الموسومة «سجع القمرية في ربيع القمرية» التي اعتبرها عباس الخراوي أول قصة حياتية من نوعها تهدف إلى الإصلاح كما فعل الغربيون، فكان باني القصة في العراق، لأنه بذل جهداً واضحاً من أجل تطوير المقامات، معتمداً مضامين نفسية واجتماعية متجاوزاً الموضوعات الخيالية. لكنه لم يستطع أن يفرق بين القصة والرواية والمقامة، ففي تعريفه للمقامة يقول «إن القصة رواية جعلها في عداد المقامات، ورغم هذا التركيز على دور أبي الثناء الألويسي في تطوير المقامة، إلا أن ما قدمه من نتاجات لم يبتعد كثيراً عن الموروث من الأدب العربي، لكن هذه المقامة ليست أول محاولة في القصة العراقية الحديثة. كان د. يوسف عز الدين يعتبر أبا الثناء الألويسي رائداً للقصة وسار الدارسون على هذا الاستنتاج، إلا أنه وجد فيه طابع الاستعجال فعدل عنه واعتبر أن ما نشر في «صدى بابل» مترجماً يشكل البدايات الطبيعية للأدب القصصي بضروره المختلفة. وهنا نتفق على أن مقامات أبي الثناء الألويسي ليست رائدة القصة ولا مؤرخة لها، إلا أنها خطوة باتجاه تجاوز أسلوب المقامات.

أما في القرن العشرين فإن النشاط الفكري والثقافي في العراق ظهرت بوادره وتنامت بعد إعلان الدستور العثماني لعام ١٩٠٨ وشمل المجالات الأدبية ومن ضمنها القصة. وهنا لا بد من الإشارة إلى أننا اذ نركز على الجانب الفني، لا ننكر دور الجانب الفكري إذ أن القصة في العراق ولدت وهي تحمل رسالة اجتماعية - سياسية. وإن جميع رواد القصة كانت لهم ميولهم، بل إن بعضهم قادة تجمعات وأحزاب سياسية، فكانت نتاجاتهم وعاء لنقل أفكارهم بغض النظر عن ضعف وسائلهم وأساليبهم الأدبية. فكان القاص يمارس دور الناقد والمفكر والواعظ الاجتماعي في آن واحد. والقصة العراقية الحديثة ارتبطت بالجديد فكرياً وفنياً بسبب تأثرها بالقصة الغربية كما أسلفنا.

ومن الصعب تناول نشأة الرواية بمعزل عن القصة بسبب تداخل الفنين ولأن أغلب الرواد كتبوا القصة والرواية وبعضهم لم يكن يفرق بين القصة والمسرحية والرواية. وبعد الاحتلال البريطاني نشطت حركة التمثيل للتعبير عن سخط العراق وتبرمه بهذا الاحتلال فكثرت ما يسمى بـ «الروايات المسرحية» التي حملت في طياتها الفكر العربي والتراث الاسلامي لاثارة الحماسة في النفوس وتملاها بالامل.

لقد تأثرت بداية الرواية العراقية بالقصة التركية الحديثة والرواية المصرية وادب جبران خليل جبران وتأثرت بشكل كبير بالرواية الغربية المترجمة. ولأول مرة ورد مصطلح «رواية» في المجلة التي اصدرها المعلم داود صليوا عام ١٩٠٩ والتي عرقها بـ «مجلة فكاهية ذات روايات غرامية ادبية ووقائع تاريخية» واطلق اسم رواية على قصة «رواية بعض الظن اثم» ويبدو انها مترجمة لان جميع الاسماء التي وردت فيها اجنبية وتدور حوادثها في برلين. ونشرت جريدة «صدى بابل» عام ١٩٠٩ في عددها الاول رواية «العدل اساس الملك» وهي مترجمة ايضاً. وهناك محاولات جرت في العهد العثماني من قبل الجاليات التبشيرية في الرواية والمسرحية. وكتب سليمان الدخيل قصة «ناظم باشا» وسمها رواية ادبية تاريخية اجتماعية سياسية. وقد كتبت بأسلوب ساذج.

ان د. يوسف عز الدين يعتبر كل هذه المحاولات البدائية أشبه بمقالات وان سميت روايات إلا أنه يعتبرها المرحلة الاولى بينما قصص الرؤيا هي الخطوة الثانية في تطوير الادب القصصي وهنا يختلف مع عبد الإله احمد الذي يعتبر قصص الرؤيا هي المرحلة الاولى في القصة العراقية. وهي حكايات يدعي كاتبها انه رآها في منامه. كتبت هذه القصص بين ١٩٠٩-١٩٢١ وكانت اولها «رؤيا العربية» ونشرت دون اسم كاتبها، وآخرها «وقفة على دنيال» وحديث مع فينوس» نشرت باسم مستعار هو (عراقي امين) ويظن انه عطاء أمين. ومن سمات هذه القصص استخدام الاحلام للدلالة على الواقع الاجتماعي المعاش للتخلص من الرقابة الاجتماعية والرسمية، اعتماد أسلوب السجع، الاستفادة من الشعر العربي لدعم موضوع القصة، الوعظ المباشر، تدخل الكاتب وخاصة في النهايات والاستفادة من حكايات الف ليلة وليلة.

ولم يخرج كتاب قصص الرؤيا عن هذه الأطر عدا عطاء امين في قصتيه «لوحه من الواح الدهر» أو فصل من رواية الحياة» و«عاقبة الحياة». وقد اعتبرها عبد الإله احمد اول محاولة جادة في القصة العراقية. لكننا لاحظنا أن كثيراً من سمات قصص الرؤيا

المذكورة تنطبق عليها، رغم أن موضوعيهما تجاوزا إطار قصص الرؤيا وتناولوا أحداثاً واقعية، ويبدو أن عطاء أمين كان متأثراً بالمسرح الذي ظهر في العراق قبل القصة القصيرة والرواية فنراه يستخدم الحوار بكثرة.

ويعتبر عبد الإله لحد الباحثين الذين أرخوا للقصة العراقية قد وقعوا في خطأ إذ اعتبروا أن القصة العراقية بدأت بعد الحرب العالمية الأولى بمحاولات محمود أحمد السيد، لأن محاولات عطاء أمين هي البداية الحقيقية للقصة العراقية، لكنه يؤكد في موضع آخر من دراسته أن القصة والرواية فعلاً بدأت بعد الحرب العالمية الأولى. ونلاحظ أن عطاء أمين الذي يستشهد به الكاتب كتب انضج قصتين له عام ١٩٢٠.

كما أن عبد الإله أحمد لا يعتبر سليمان فيضي رائداً للقصة القصيرة بل للقصة الطويلة أو الرواية، وفي الواقع أن عمله الوحيد «الرواية الإيقاظية» الصادر عام ١٩١٩ هو تطوير لقصص الرؤيا. فقد اعتمد الحلم أيضاً لكنه لم يشر إليه سوى في المقدمة واعتبرها البعض أول رواية عراقية على الرغم من أنها تقتصر لمقومات القصة، وعدها بعض الباحثين من المسرح.

بعد «رواية» سليمان فيضي بثلاث سنوات نشر محمود أحمد السيد روايته الأولى «في سبيل الزواج» عام ١٩٢١ والثانية «مصير الضعفاء» عام ١٩٢٢، والثالثة «النكبات» وتذكر فيما بعد لهذه الأعمال واعتبرها روايات «غرامية فاسدة وسخيفة».

وظهرت «روايات» أخرى نذكر منها «عجائب الزمان» لأكوب كبرائيل، «تحت ظل المشانق» لعبد الرزاق الحسيني عام ١٩٢٤. «في الفرات الأوسط» لمحمد حسن القطيفي عام ١٩٣١، «العفة أوفريد وجميلة» لمحمد بحر العلوم البصرة ١٩٣١، «رنة الكأس» لعلي الشبيبي و«البنادق المسروقة» لصبري عبد الله عام ١٩٣٩، وكلها بدايات ساذجة تفتقر إلى المقومات القصصية الفنية.

ومن خلال الجرد الذي أجريناه للنتاجات الأدبية وكتابها معتمدين على «معجم المؤلفين العراقيين في القرنين التاسع عشر والعشرين ١٨٠٠-١٩٦٩» لكوركيس عواد و«الادباء العراقيون المعاصرون ونتاجاتهم» لسعدون الرئيس و«فهرست المجاميع القصصية والروايات» و«فهرست القصص والروايات المنشورة في الصحف والمجلات العراقية» الملحقين بدراسة عبد الإله أحمد (المصدر الذي ذكرناه) ظهر لنا عشرة كتاب وهم حسب الترتيب الزمني لظهور نتاجاتهم: محمود أحمد السيد، جعفر الخليلي، عوني بكر صدقي، عباس حلمي الطلي، يوسف هرمز، خليل عزمي، أكوب

كبرائيل، يوسف حناني اسحق، جودي عيسى قلاب، محمد بسيم الذويب و ٢٨ كاتباً ممن نشروا قصصاً في مجلات تلك الفترة وثمانية أعمال نشرت بدون ذكر اسم كاتبها. ومن هذه الأعمال روايات نشرت على شكل مسلسلات. وبرز من القصاصيين فيما بعد انور شاؤول، شالوم درويش، وسليم بطي. ولاحظنا أن اغزهم انتاجاً هو محمود احمد السيد الذي صدرت له خمسة كتب قصصية، بينما لم يكتب الآخرون سوى كتاب واحد لكل منهم ثم اختفوا عن الساحة الأدبية نهائياً، فلم يواصل سوى محمود احمد السيد حتى وفاته في الثلاثينات، وجعفر الخليلي الى الخمسينات وانور شاؤول وشالوم درويش حتى الاربعينات. وفي الثلاثينات ظهرت أسماء أخرى ساهمت في إرساء أسس هذا الفن وتوسيعه وهم: ذر النون ايوب، عبد الحق فاضل، عبد المجيد لطفي، خالد الدرة، ابراهيم حقي محمد. ويمكن اعتبار هؤلاء جميعاً رواداً للقصة العراقية وفي مقدمتهم محمود احمد السيد الرائد الأول لأنه أول من حاول كتابة القصة الفنية في العراق. وهو أول ممثل لنهج التفكير الواقعي الاجتماعي. تمثل هذا النهج بروايته المهمة «جلال خالده». وهي من الناحية الفنية قمة ما وصل اليه في مرحلته الثانية، رغم انه لم يسمها رواية بل «قصة عراقية موجزة» وقال عنها انها «لايجازها لاتماثل القصص التحليلية الكبيرة». فانت تراها أشبه بالمذكرات أو الحديث. وفي مكان آخر يؤكد «وتصح هذه القصة الموجزة التي أشبه شيء بالحديث (نوفل) لأن تكون أساساً لقصة مطولة وافية (رومان) قد اكتبها في المستقبل». ويظهر من هذا أن محمود احمد السيد كان عليمًا بأصول الفن الروائي إلا أن أدواته الفنية كانت قاصرة، فحاول أن يغطي على هذا النقص بهذه التعليقات.

وفي الأربعينات حصل ركود في النتاج الأدبي وسببه ليس فقط الحرب العالمية واضطرار بعض الصحف إلى التوقف أو اصدار نصف العدد المطلوب بسبب شحة الورق كما ذكر البعض، بل كذلك أن هذه الفترة كانت عاصفة بالاحداث، انتفاضة نيسان ١٩٤١، وثب كانون ١٩٤٨، اضرابات متكررة، اعتقالات واعدامات واغلاق صحف، كل هذه الاحداث لم تدع مجالاً لاستيعاب هذه الاحداث واخراجها بعمل قصصي أو روائي. ان تلك التجارب اختزنت في الذاكرة ولم تتفجر إلا في الخمسينات التي تميزت بغزارة النتاجات ونوعيتها وتكاد أن تكون البداية الحقيقية للقصة الحديثة. فقد ظهر في هذه الفترة ادمون صبري، غائب طعمة فرمان، مهدي عيسى الصكر، محمود الظاهر، عبد الرزاق الشيخ علي، حازم مراد، نزار عباس، حربية محمد، جبرا ابراهيم جبرا، بالإضافة



الى آخرين واصلوا الانتاج نذكر منهم جعفر الخليلي (من العشرينات)، عبد المجيد لطفي، عبد الحق فاضل، ذو النون ايوب، خالد الدر، ابراهيم حقي (من الثلاثينات) عبد الملك نوري، شاكر خصبك، عبد الله نيازي، صفاء خلوصي، حسام الدين نابق (من الاربعينات).

وبودي الإشارة الى نشاط القاصة العراقية التي غابت في البدايات لاسباب تتعلق بالتخلف الاجتماعي والامية، إلا أننا وجدنا لها حضوراً منذ الخمسينات متمثلة بحرية محمد، وفيما بعد ظهرت اسماء اخرى سجلت تواجداً على الساحة الادبية مثل بثينة الناصري، ديزي الامير، سالمه صالح، لطيفة الدليمي، سهيلة داود سلمان، بلقيس نعمه العزيز، سهيلة الحسيني، ميسلون هادي وسواهن.

حوار مع القاص والروائي العراقي شاكِر النجار

## رواية «الواج» فضاءات الكتابة البصرية

أجرت الحوار سعاد جروس \*

اهتمامك بالغ بمسألة اللغة، والمطلع على اعمالك يلاحظ تطورك باتجاه لغة  
تشكيلية بصرية بكلمات أكثر منها لغة أدب فقط، خالية من الألاعيب اللغوية.  
كيف وصلت إلى هذه المرحلة وما هو مفهوم اللغة لديك؟

اللغة عندي حياة، بكل ما تعنيه الكلمة، ليست أداة تواصل فقط، بل هي أيضاً فكر  
وفلسفة وفن، وهي لعب ومرح وحرية مطلقة، أمارسها في مغامرة الكتابة، أخلق بها،  
وأبدع عالمي الذي أريده. أنها تفذيني بهاجس الخلق، أي ترتفع بي من منزلة الإنسان  
العادي، ذي الحاجات اليومية والمشاعر المألوفة، إلى منزلة الإنسان الخالق، الصفة التي  
نشترك بها مع الخالق الأكبر، نحن أبناءه. كل كلمة أو جملة لها مذاقها الخاص، وجودها  
المتفرد في بناء النص، قصة «أو رواية»، لذلك اختار مفرداتي بدقة، المقدرات الدالة على  
اللون والطعم والفكرة، أو المميّزة بوقعها الموسيقي. وهذا الاختيار غير المجاني، للكلمة  
أو الجملة، والاختيار الصائب في موقع وجودها، ربما هو الذي يجعل منها لغة تشكيل لها  
القدرة على الاسماع والابصار واشباع الحواس اجمع. واللغة التشكيلية قريبة من هذا  
المفهوم، لغة اللون، والمفردات والخطوط والفضاءات.. الخ. تتضافر كلها لابتداع المعنى  
وتوصيل الرسالة إلى الآخر، المتلقي.

\* صحافية سورية

هل تعتقد فيما لو نقلت روايتك «الواح» الى لغة أخرى ستبقى كما هي أم ان كثيراً من الأشياء المتعلقة باللغة خاصة ستسقط من النص؟

لا اعتقد أن ذلك سيؤثر سلباً على الرواية، فهي ليست رواية شعرية، مثقلة بالانشاء العربي التقليدي، بالعكس، جعلها تتناغم تماماً مع الفكرة أو الموضوع الذي تروم معالجته، ربما تمتلك شيئاً من محلية المكان والشخصيات والاحداث، لكنها تتصافر كلها لرسم لوحة عابقة بالالوان والرؤى والاحلام والانكسارات لمرحلة مهمة من تاريخ البلد، المسمى العراق، وأظن أن القارئ المغاير لنا حضارياً سيجد متعة فيما يقرأ، لأنه يطلّ على مشهد لم يأت في نشرات الاخبار أو التحقيقات الاعلامية أو تقارير الدبلوماسيين، النفقات الداخلية لشعب هبطت به الاحداث، المعروفة، الى جحيم الكارثة. المادة المطروحة، فنياً، على الصفحات، لن يجدها في مكان آخر على الاطلاق. الورد الذابلة بفعل دخان المعارك، الكابوس في رأس بائع شاي، عشتر، ربة الخصب وهي تتمختر في شوارع بغداد القديمة، سقوط بطل بالاحمال من قمة جبل، جثة رجل ملقاة على الطريق، تمثال لرجل مشوه في غرفة، وهكذا. بنية قائمة على حبكة التفاصيل الصغيرة، والحركات الموسيقية المختلفة الرنين، والتي تكوّن، بالنهاية، سمفونية رائعة.

بعض الالواح انتت متطابقة مع بعض اللوحات للفنانين معروفين، الحلم مع نذير نبعة، الرجل الطاغية مع يوسف عبدلكي، سقوط البطل مع خزيمه طواني. ويلاحظ تأثر الواضع بالفن التشكيلي من خلال صياغات اللون للحالة، أو لرائحته، والتكوين التشكيلي فيها، وكما هو معتاد أن نرى الفن التشكيلي يستقي من الأدب لا العكس. برأيك ما خصوصية التعامل الأدبي مع التشكيلي في صياغة الرؤية الفنية؟

كثبت رواية الواح بعد أن قرأت كثيراً من الكتب، بينها كتب عن الحالة اليومية للشعب في ظل الحرب كتبها مراسلو CNN، وقرأت كتباً عن أصول القبائل العراقية والطوائف والاديان وطقوسها، كما استفدت من القصص التاريخية المتداولة في المكان، وخلال سنتين من عيشي في جو كتابة الرواية وظفت كل ماتقع عليه يدي لكي استخدمه في النص، وكان من بين ذلك لوجات نذير نبعة، بعد ان احسست أن فيها تقاطعاً مع حالة الحلم، التي عاشها بطل الرواية، ونساء نذير نبعة في لوحاته يبرزن من عالم سحري وحلمي، فيه سلام ومحبة وخدر، وهو ماكان يتوق اليه بطل الرواية في الحياة الجحيمية

التي عاشها. أما الرجل الطاغية ومواصفاته لدي فقد تشابهت بالصدفة مع نموذج يوسف عبد لكي، وربما جاءت الصدفة بسبب تقاطع ضرورتين، كما يقال فلسفياً، أي أننا، كفنانيين أو كتاب، نطمح الى الانتقام من ذلك النموذج بتأطيره ونزع صفة القداسة عنه والسخرية منه أيضاً، وليس من الغريب رؤيته في الاعمال التشكيلية والمسرحية والشعرية وباقي الفنون. يمكن القول أيضاً ان الفنون اجمع، راحت تعيش امتزاجاً وتداخلاً وتبادل ادوار، اخرجها من خصوصيتها الصلبة، الخاضعة لقوانين ثابتة. وبما انني املاك ذلثة حسية في التعامل مع النص الروائي، واملك هوى فطرياً بالفن التشكيلي، فيمكن تخيل التواصل لاحقاً، وقد بان ذلك في ترقيش الجملة بمفردة لونية وحسية ذات وقع، اختيرت بدقة اختيار الالوان لصياغة جملة لا يعبرها القارئ الا وتعثر بها، وكأنها حبيبة تناديه الى احضانها يشوق التواصل.

**عالجت فكرة الموت او ما بعد الموت كامتداد للحياة الواقعية، والوصول للحديث عن الواقع بتجريد عال لا يد أن نعبر نفق الموت. هل من الممكن الحديث عن معنى هذا الموت، وهل هو ضروري لتكون أكثر شمولية وحكمة في فهم الحياة. . ؟**

الموت لغز، منذ ان وعى الانسان كينونته كانسان اقل ظل الموت عالماً غامضاً، يستعصي على الفهم. في الاديان والفلسفة والطقوس، كان لجانب الحياة ما بعد الموت فسحة واسعة من نشاط الذهن. وقهمته الشعوب بمقاربات متباينة، مضحكة أحياناً وأحياناً مأساوية أو بهيجة. وثمة من افترض أن الموت لا يعدو أن يكون حالة من حالات التحول يعيشها الكائن. انه برزخ للعبور الى مستوى آخر من الوجود. من هنا حولت هذا الاعتقاد الى واقع مفترض، أي تخيلت البطل واحداً من مريدي تلك الفكرة، لتعميق الحس الدرامي في الرواية، ووسيلة لتوحيد اطرافها المتشعبة. أما رمزياً فكان الموت صدمة اخرجت الانسان من فهمه القديم للأشياء الى فهم آخر أكثر اتساعاً، بسبب قوة تلك الصدمة، كما كان محاولة لفتح عالم جديد فوق واقعي يستطيع الانسان ضمن مواصفاته رؤية المستقبل والحاضر والماضي، رؤيتها ببصيرة حادة وفهم. كما يحصل فيه اختلاط الزمان والامكنة والاحداث، لأن الكائن، الروح، الطيف، ذاكرة متأججة فقط علققت في تلافيفها حتى التفاصيل الصغيرة.

تتقاطع مع الديانات البوذية أو الشرقية فيما يتعلق بمسائل الموت أو الحياة والقتال... لماذا نتجه نحو هذه المعتقدات، تحديداً، كأساس ثقافي لأعماله؟

لدي قناعة متأصلة بأن كل ما أنتجته البشرية من أديان وثقافات هو إرث لي، وأمتلك كامل الحق باستخدامه وتوظيفه في الكتابة. كذلك، فإن الاقتراب من فلسفات شرقية مثل تلك، وإعني بالفلسفات وجهات نظر متكاملة عن معنى وجود الإنسان ومبرر وجوده ورؤية الحياة في جريانها اليومي، وعلاقة الإنسان بالاشياء، وهي تفتح نافذة جديدة يطل منها القارئ العربي على انماط أخرى من التفكير والرؤى. والديانات التي ذكرتها تقترب كثيراً من قطاعات من الفكر الإسلامي وبعض من طقوسه، مثل الصوفية والإشراقية والحلولية. ومرجع كل شيء إلى النور الأعظم، بادئ الخلق ومبدعه، وأنا، وإن اقتربت في بعض الصور والشطحات الروحية في كتاباتي من المفاهيم البوذية والشنوية والمائوية، لكنني لا أؤمن بها بالضرورة، إذ تظل نافذة للتأمل واقتضاض أجواء جديدة. أنا أميل إلى الذهنية العلمية في النظر إلى الأشياء، بحكم دراستي للهندسة المدنية، لكنني لا أغفل جانب الحلم والأوعي والحدس والتأملات والحقيقة المتعددة الأوجه والاحتمالات، وفقدان الحدود أحياناً ما بين الواقع والخيال، أو الحقيقة والأوهام المنتجة من قبل العقل البشري.

انحيازك لوصف وتسمية المكان واضح، حتى أنه أتى على حساب الزمن الذي مؤهت ملامحه ضمن ملمح حقيقة زمنية معينة، لتبدو أعمالك مغرقة بالمحلية المكانية. ما أهمية المكان في العمل الأدبي...؟

المكان، أبشية وشوارع ومدارس وانهار وغايات وجبال وشموس وليال وروائح وطعموم ومشاهد بصرية، هو ماء الرحم الذي يسبح فيه الإنسان، ابن المكان، وطفله. من كل ذلك تتشكل لديه أحاسيسه وعواطفه وملامح وجهه وانفعالاته. وليس من السهل انفصال الأحداث التي تجري لشعب ما، أو إنسان ما، عن المكان، عن المكان ذاك. فالجو القصصي أو الروائي حركة مكانية وزمانية يؤطرها التاريخ. وأنا، ككاتب، أرغب بخلق ذلك الجو ثانية، تحويله من وجود واقعي ملموس إلى وجود فني، خالد، أو هكذا أطمح له أن يكون. وما دامت كتاباتي تتجه ذلك الاتجاه، الحسي، التشكيلي، فإنها تعتمد المكان مادة أولية لعملية الخلق. وإذا كنت لا أمتلك مادة أخرى غير المكان المحلي، خاصة وأن

الرواية تتناول أحداثاً محلية، لذلك كان للمكان نكهة حادة في عملي المدعو «الواح». انني لا اكتب عن اشكالية فلسفية لدى الشخص، ولا عن تحولات الذهن، بل عن تحولات مكان، انهياره، ولادته بشكل جديد، هويته في ظل كوارث ومأس، ضلاله والوانه المتناغمة مع ما يحسه انسان ذلك المكان من أمل وياس، مشاعر موت وفرح واحلام وخيالات. والمكان، أخيراً، هوية، الجذور المعبأة برحيق الحياة الوارفة ابداً والتي لا بد لها أن تنمو مهما عصفت بها امواج الخراب.

**هل ترى ان ذكر اسماء الشخصيات لرسم ملامحها الشخصية مهم في**

**العمل الروائي، خاصة وانك تبتعد عن تسميات جميع الشخصيات باسماء**

**علم... وما هي المسميات الممكنة للشخصية؟**

لو رجعنا الى الروايات الكلاسيكية، كما عند دستوفسكي أو نجيب محفوظ، لشاهدنا ان الكاتب يخلق شخصيات روائية، بملامح محددة وافكار تميز بعضها عن البعض، وتنامي الرواية متنام من صراع تلك الشخصيات أو تقاطعها أو تناورها، تتخلق عقدة الرواية أو محركها الذي يقودها الى النهاية. لكن الرواية الحديثة ابتعدت تماماً عن هكذا نمط، لم تعد رواية شخصيات متماسكة، خطية التطور، واضحة الرؤى. نحن نعيش تمزق الشخصية، طفوها في المكان والاحداث، تحولاتها الكونية وخروجها من جلودها المحلية التي توارثتها مئات السنين بسبب العزلة والتخلف. نحن أمام انسان غير متماسك، شاك في قدراته، يعاني من هيمنة المجموع، الانسان المدني، ابن الكرة الأرضية، برمتها، الذي راح يمد ابصاره الى الكون ايضاً، من هنا لم يعد ذكر الاسم مهما لتحديد ملامح. التطور المعاصر يقضي على الخصوصية الفردية، يساوي التعابير وانماط الفكر وحتى الخيالات احياناً. لماذا؟ لاننا نعيش مرحلة قفزة حضارية هي الاولى في تاريخ الجنس البشري. ما يهم هو موقع ذلك الفرد في اجواء عصره، دوره، تمثله لتلك التطورات. ففهم شخص واحد، وان كان غفل الاسم، يضيء تاريخ مكان برمته، لقد اصبح اي شخص شريحة مختبرية تروي الكثير مادامنا نمتلك وسائل الرؤية والكشف.

**كتبت ثلاث مجموعات قصصية وروايتين، مآدور القصة في بناء العمل**

**الروائي...؟**

كان الانتقال من كتابة القصة القصيرة الى الرواية انتقالاً طبيعياً. لم تعد القصة

القصيرة تستوعب ما اطمح الى قوله. ومديات الحرية في الرواية اكبر مما هي عليه في القصة. القصة القصيرة لا تستوعب الفنون الأخرى التي استفيد منها، كالفن التشكيلي واللقطة السينمائية والاساطير والتراث وحكايات المكان الذي كتبت عنه. فالقصة حساسة جداً مثل جوهره، لا يمكن اللعب بها. الاهتمام بالمفردة وموقعها داخل الجملة، الاهتمام بالجملة كحامل للنص الأكبر تعلمته في كتابة القصة القصيرة، وادخلته في الرواية ايضاً، فاللغة في «الواح» تلعب على لغة القصة القصيرة ولغة الرواية، في توازن قلق لا اعتقد ان من السهولة الحفاظ عليه بامتداد مئتي صفحة.

لا نكاد نلمح أي أثر لحلم أو كوميديا أو فرح يريح قارئك، فاجواؤك خانقة.

الا تعتقد ان ذلك عبء على القارئ؟ ان تجعله كثيراً طوال فترة قراءة العمل؟

لا أفكر بمزاج القارئ حين أكتب، أشكل العمل على هوى مزاجي أنا. والنص هو الذي يفترض ملامحه أو يكونها. ولا يخفى ان قراءة نص جميل في لغته وحركته ولعبه تدخل أقصى المسرة في قلب قارئ فضولي، جاد، حساس، حتى وان كانت الكتابة عن أحداث مأساوية أو بشعة. فصياعة البشاعة بأسلوب جميل ممتع، فن رفيع يغازل مطمح الإنسان الى الارتفاع درجة ولو بسيطة عن هيمنة الواقع. الكوميديا تعني اللعب، وفي «الواح» يجد القارئ أقصى مدى للعب، لعب مع الزمن، مع الاحلام، مع صلالة الواقع، مع الاسطورة والوصف والحياة، واخيراً لعب مع الموت نفسه، وهذا امتع لعب يعيشه الانسان فيما لو واثقه الشجاعة على ممارسته.

دمشق ١٩٩٦/٧/٣

## هَمْسٌ مُقْتَضِبٌ

يحيى علوان

- «الأشجار تموت واقفة». لا تحني هامتك. درب نفسك على المشي مرفوع الرأس.
- في كل قصيدة عنقاء. شاعر.
- مَنْ يسبح ضد التيار، يصل النبع الصافي.
- لا تَقُلْ أن الحرية أعلى شيء لديك. فقد يصادرونها ويخلقون الخزانة عليها!
- تدافع عن الكلمة؟ إنقلها الى الهجوم، فذلك أجدى.
- لا تكسر فرع الشجرة الذي تجلس عليه. إلا إذا أريد شنقك عليه.
- من الرقم 0 يمكن صنع سلسلة.
- شجاعة الضعيف، وتواضع القوي، أمران يستحقان التقدير.
- بعض العواقب لا تطيق مقدماتها.
- إِبْنُ جُمَلًا مؤقتة. فقد تحصل هزات أرضية.
- كم من الكلمات الأخيرة تتدافع بالمناكب لاحتلال الموقع الأول؟
- السرقة الشخصية يعاقب عليها القانون. ماذا عن نهب شعب بأسره؟
- مَنْ كان وزيراً للثقافة أيام شكسبير؟



- تعامل مَنْ بحجمك . فإن تعاملت مع الأرقام ، إحدوبَ ظهرك . وإن تعاملت مع العمالة كسرت رقبَتك . لأنك لا ترى موطى قدمك .
  - الشاعر بيبغاء إذ أنه يُردد ما لم يُقل .
  - آه لو نطقت العين ، الأذن!
  - مستقبل الآلات كالح . الانسان الآلي سيكتسحها .
  - كن واقعياً واطلب المستحيل .
  - خير لك أن تنتزع حَقَّك من أن تستجديه .
  - ثمة ملحدون مؤمنون .
  - كل الحقائق التاريخية تشيخ .
  - أضعف حلقة في السلسلة أقواها . فما أن تتكسر ، تنفطر السلسلة كلها .
  - الأمي يُعلمي دوماً .
  - في الهندسة : الخطوط المتوازية تلتقي في اللانهاية . لا تزال تؤمن بذلك حتى اليوم .
  - لا تلامس القمم القيعان إلا وقت الهزات .
  - كيف تُدرّب ذاكرتك كي تتعلم النسيان؟
  - كل ثروة قابلة للتأميم ، إلا ثروة الفكر .
  - الجبان يمتلك شجاعة أن يطأ مقبرة الأبطال بقدميه!
  - كثير من المندحرين يحتفل بهزائمه ، ضيقاً في حفلات المنتصر .
  - روح العصر تصعق حتى الملحدِين .
  - تبيحث عن الحقيقة؟ أي منها؟\*
  - لماذا يتعين على الانسان أن يكون صلباً كالفلواذ؟ أنكر دوماً : يكفيه أن يكون من لحم ودم .
  - حتى المؤخرات ترتدي أقنعة ، لأسباب معلومة!
  - مَنْ يُحمَل الى الهدف ، عليه ألا يعتقد أنه وصلّة .
- \* فلاسفة الصين الأقدمون لم يعرفوا حقيقة واحدة . كانوا متسامحين إزاء حقائق أخرى.

- من الشراشف صنعنا رايات حمراء ، في حين صنع آخرون من الرايات شراشف ناموا عليها .
- لا تسأل الله عن الطريق الى الجنة ، لأنه سيملك على أكثرها مشقة .
- إستغلال الانسان للانسان؟ قضية إنسانية! قواعدياً\*
- كيف تُسميها أوهاما ، إذا كانت قابلة للتحقيق؟
- «الدين أفيون الشعوب ، يارفيق»...
- « موافق! ولكن قل لي بالله عليك أي مُخدر تتعاطاه أنت؟»
- يجدر بالصاعقة أن تحجل من الانتهاء في سلك أخرق . مانع للصواعق .
- لم يستطع أكبر مفسري الأحلام أن يشرح لي معنى الحلم بالحرية .
- أنت تتأتع ، عندما تردّد ما هو مَقيل .
- مأساة ، أن يعتقد الكومبارس ، أنه يلعب الدور الرئيسي .
- إحذر نفسك إن إنسجمت مع سلطة!
- حيث تستوطن قلة الذوق ، هناك شيء من الفظاظة .
- معيار التسامح ، الموقف من الرأي الآخر ، غير المريح ، طبعاً
- أصعب شيء ، أن تتسلق قمة من ١٠ سم .
- الساعة العاطلة تشير ، على الأقل مرتين في اليوم ، الى الوقت الصحيح .
- يمكنه ممارسة النقد الذاتي ، شريطة ألا يشهد عليه أحد .
- طالب بتعويض إذا تبين أن السراب حقيقة!
- ماذا تُسمي أحداً لا يجد إلا نفسه في أقوال الكلاسيكيين؟
- المحرّمات تتوالد ، وإن كانت تدّعي أنها غير قابلة للمساس بها .
- رغم إستقامتك ، عليك أن تحذّر المنعطفات .
- ينخفض سعر الحرية كلما كثر الطلّب عليها!

- أنصَحُ العبادات ، عبادة ربٍّ لا وجود له . فهي خالصةٌ من النفعية والابتزاز .
- موضوعات الصمت لا تنضب .
- ماذا يُضعف مقاومة الشرِّ؟ إعتياده .
- حذار في اختيار أحلامك! فبعضها قد يجد طريقه للتطبيق .
- قَمَّةُ النكتة : مكتئبٌ يستطيعُ إضحاك مكتئبٌ آخر .
- كَثُرَتِ السنوات . لكن همَّها بقي فيما إذا كان حاصِلُ جُمُعِها يكوُنُ عصراً .
- لا تَدْعُ حرية الكلمة تسلب حرية الفكر .
- تبعات الأبداع لا ديمقراطية .
- إصنَعُ أساطيرك بنفسك . فان الآلهة لم تَفْعَلْ غير ذلك .
- ماذا لو أن «القيم الخالدة» حملت تاريخ نهاية مفعولها؟
- يراق الدمُ لأنه سائل .
- تُخطِئُ إن ظننت أن أُميًّا لا يستطيع لارتكاب جريمة؟ من ألفها الى يائها .
- إظهار السريرة والتعريَّ شيان مختلفان تماماً .
- إحذر من يده بندقية ، وإن كانت بلا عتاد . فقد هَشَمَتِ جماجم عديدة .
- مرةً هربت مني فكرة . طاردها . رأيتُ جمعاً من الناس يطاردها أيضاً . أطلقتُ ساقِي للريح كي ألحق بها ، قبل أن يصادرها الرقيب .
- جنون العظْمَة ! مرض الأقزام الطفولي .

الشاعر طارق ياسين:

## عاش ومات في الظل

سلام ابراهيم

تنفرد تجربة طارق ياسين الفنية في اشعاره المكتوبة بالعامية العراقية كونها اتخذت مساراً مختلفاً عما كان سائداً في الستينات حيث انشغل جلُّ شعراء العامية المجددين بالهم السياسي المشوب بحماس ثوري رومانتيكي مستمد من افكار اليسار التي كان لها شعبية واسعة في الشارع العراقي، منطلقين في الفضاء الجديد، الذي فتح بابه الشاعر المبدع مظفر النواب بما أحدثه من ثورة تجديدية إرتقت بالقصيدة القديمة والاشكال الشعرية التراثية، كالموال والدارمي، الى بنية جديدة لها القدرة على استيعاب الهموم المعاصرة، خالقاً تياراً شعرياً جعل الكثير من المواهب الشابة تحاول تقليد القصيدة النوابية الحاملة بالتغيير الثوري والمبررة لقيم النضال والشهادة بأسلوبها المشحون بالعاطفة الرشيقة الناعمة ومتانة بنائها الجديد والمبهر. فكانت ضوءاً شديداً سطوع أعمى مجاليه والاجيال اللاحقة، الا ذوي الموهبة الشعرية الراسخة الذين تمكنوا من ايجاد اصواتهم الخاصة واسلوبهم المتميز، أذكر منهم، على سبيل المثال، علي الشباني، عزيز سماوي، كاظم الركابي، شاكر السماوي. وهؤلاء بدورهم حاوروا المنقذ البعيد الذي يكفه مفتاح الاحلام والثورة. فاكثرت قصائدهم بالمخاطبات الموجهة الى الذات الغائبة والموضوع والروح في تناوب الملامة والتذكير بالامجاد والامثولات لشحن الهمم، مخاطبات تحولت مع يوانر انحسار المد اليساري الى مراث حزينة ابتدأها النواب أيضاً في قصائده المتألقة (ليل البنفسج، روجي) ناعياً الحلم المقتول بشجن محبٍ دنفٍ،

فلامس لوعة أجيال عاشت نالِقَ الحلم وانحساره وبأسلوب جديدي نأى عن المباشرة في قصائده الحماسية مما جعل القصصيتين المذكورتين ترتقيان إلى مصاف الهم الإنساني الشامل، وظلتا متداولتين جيلاً بعد جيل. إن قصائد الخيبة المظفرية، والتي لم تخلُ قصائده السياسية الحماسية من ظلالها، عبرت عن نبض الناس في تلك الأيام ومزاجهم. فنبهت فنياً لموضوع سيصبح لاحقاً محور الجيل المبدع من شعراء المدرسة الحديثة وشغلهم الشاغل. فكتبوا العديد من القصائد المحاورة للحلم البعيد بحماسة منطبعة ورجاء خائب، من أشهرها وخسارة علي الشباني المنشورة في «خطوات على الماء» ١٩٧٠م. وأغاني الدرويش لعزیز سماوي المنشورة في ديوان بنفس الاسم عام ١٩٧٣. وضعت القصائد المذكورة والتيار الذي خلقته الحلم الثوري بمصاف الاحلام العvisة المستحيلة في قراءة دقيقة للواقع فيما خطاب اليسار العراقي غارق بتقاؤل موهوم اورثه مذنبعة وعزلة.

رغم أن طارق ياسين كتب قصائد معبودة تدور في المحور المذكور، بتأثير شرطه الاجتماعي، وعلاقته الصداقية المثينة بشعراء هذا التيار، إلا أنني وجدت في مخطوطة ديوانه مشغولاً بالإنسان كوجود ملتبس، وماهيم غامضة، يكتظ حباً واعتراباً، يبدو أن الشاعر أطال التأمل حتى بلغ كوة الرؤيا، وحكمة الصمت، فلا جدوى من الحلم في زمن الطوفان:

اختيبي بعلمه تفهمك/ واحترق كل الكلام

لم يحفل شاعرنا الى قضاء الصمت الجليل، صمت الامكنة المقدسة المنقلب بالمعاني، صمت ليل التوحد بالمجهول دون تجربة دامية ميدانها الذات الكاشفة. ففي قصيدة من جميل قصائد العامية العراقية المعاصرة حاور فيها بشر المدينة مبشراً برؤيا تتناص مع رؤيا نوح:

فَرِيَتْ المدينة ليليل / فَرِيَتْ المدينة وعِظْتَ عِ البوب/ كَتَلَكُم إِبْجَتِ الرِّيح .. دُهو  
البوب/ أخاف الرِّيح تخلع بوبكم ونظل دُشر .. وادور بينه ادور/ وكل واحد يحط لوحه  
على جتافه سقينة وينتظر طوقان/ وكَتَلَكُم... وكَتَلَكُم... وكَتَلَكُم... / وكلتو هَلُولَد  
حلمان!!!

هذه نبوءة شاعرات منذ ربيع قرن، كاتي به كان يرى ما رايفاه لاحقاً من بحور دم  
وخراب في جرحنا الدامي، العراق.. ماذا يفعل نوح الجديد؟ ماذا يفعل آزاء صمم الذات  
الجماعية ولا مالاتها؟

ولا واحد سمعني اشكلت كلي/ إنشك/ ولحم جفوفي وكعته ابدرا بين المدينة ..  
وانهرى من الدك/ فريت المدينة ليل

ماذا غير الصمت؟ والانطواء على الذات العارفة؟ لقد اشكلت الدنيا على طارق، فلم يتزوج، ولم يكن سوياً في يومه، فقد ذكر اصدقاء له أنه كان ينام أياماً عديدة ناسياً كونه معلم مدرسة. وكان يرفض رفضاً قاطعاً النشر في صحف الاحزاب، وعندما نشر له اصدقاء مقربون قصيدتين قصيرتين «سد مأرب» و «الباب والريح» في صحيفة الحزب الشيوعي العلنية «طريق الشعب» اهتز كيانه ذعراً، وتوارى عن الانظار وكأنه سيفتقل غداً. كان وثاقاً من الضمياح، من الخراب. فوصل إلى ساحة عزلته متخذاً من الصمت والجدران وغياب الآخر، فلا خلاص من أسوار الدنيا. ففي قصيدة تتناص مع قصيدة لكفافي عن رجل ينتبه من شرويد ليجد جذراً صماء بلا نوافذ ولا أبواب بُنيت حوله وهو غافل، فيتعجب كيف لم يسمع ضجة البنائين. لكن انسان طارق ليس ساهياً بل دؤوباً يبحث في السور عن ثقب، منقذ يفضي الى متاهة أسوار.. يبحث دون جدوى. فالحصار مطلق، والوعي به حاد:

عبر اسوار بنيادم / الحد ما ضاع بنيادم / ابين اسوار ما تمتد / لاتحفن مدينة .. ولا  
تعيط بشيء / ولا تحوي .. غير بنيادم / وظل محصور

(اسوار بلا مدينة)

في وحشة دنيا خاوية، قلب طارق ياسين الشأن البشري، من انفراده في متاهة الاسوار، من عزلته المتحققة نصاً وحياء. فتعمقت رؤياه الكاشفة.. الوجود البشري الفارق ببحور الدم، والمتدله بغريزة القتل البدائية، هذه الغريزة المتخذة اشكالاً متناسبة مع تطور الحضارة، الغريزة.. السور بين الشاعر والآخر:

والشمس حايط دم .. يوغف بينك وبينني / ويعلمو بملو سنيي .

لم تستق اشعار طارق ياسين نفساً وتكوينها من التفاصيل اليومية أو الصورة الوصفية الجميلة، بل ان رؤيته تتمحور في اتجاهين: الأول، التفلسف والحكمة مما استدعى ولادة اشكال شعرية لم تعرقها القصيدة العامة العراقية من قبل، فمع انعدام المخاطبات الصارخة سادت الصورة — الفكرة في تأمل وجودي لا يني يثير الاسئلة:  
ين رايح بالمحبة؟ / اشكر رغباتك.. امنين نفوت؟ / والديني شكفها .

فتخلقت قصائد الحكمة المكثفة لخلاصات التجارب التي تذكرنا بحكم موالات الشاعر الكبير /حاج زاير/ لكن هنا ببنية قصيدة معاصرة وبهم انساني جديد وبشكل فني حريدي في القراءة الاولى غامضاً ملتبساً لعمق فحواه. ففي محور البراءة والتلوث نقرأ القصيدة القصيرة:

الغزالة اللي رسمها الظل /ماتشبه هذيع الواكفج ع التل /رجلي بغي رجلها .. وعيتها بعيتي .. وبين ايدي /اوجها الصدك علو التل  
والثاني، قصائد البوح الروحي للأخر بصورها الاقرب الى شطحات المتصوفة، التماهي بالصديق العارف بأشجان الشاعر:

ظلي وظلك ايصرن رقم واحد /وأول شيء يصح كل شيء ويصح لاشي /تشبهني وأشبهك .. صرته احنه اثنين /ومن نتلاكه أنه وياك .. نتضيق سوه ونحتار /تشبهني وأشبهك .. والشبه ثاني وضوح .

اما حينما يستقي قصيدة من التفاصيل اليومية فلا تكون الصورة الوصفية إلا توكيداً للفكرة الفلسفية، فيلتبس مسار اليوم بفحوى الفيلسوف والأسئلة وصولاً الى حكمة الخواء، منتقياً الامكنة والاقوات المناسبة لحالة المتامل المنعزل، في مقهى تطل على ناصية الطريق:

تأمل وجه طفله العصر من جامه مكسورة /أو في الفراش الخالي قبيل النوم /تنتكر تراتح ايدك ع المغدة .. وراسك يفتر دوله /نمت وتخلت نفسك نر ميت طار كل عمره خساره .

وبهذه الطريقة يوظف طارق اليومي للبعد الفلسفي في رؤيا خالقة ابدعت علائق جديدة بين المفردة — الصورة — الفكرة، وبالتالي بنية القصيدة العامية العراقية الحديثة. ومن المؤسف ان تكون هذه القصائد لم ترَ النور رغم مرور احدى وعشرين سنة على وفاة الشاعر.

إن هذا المنحى المنفرد في القصيدة العامية الذي خطه طارق ياسين بتجربته الفنية انعكس على بنية القصيدة ولغتها فاقتربت من الفصحى اقتراباً يبيناً مع استخدام مكثف لمفردات سكان المدن وانفتحت لاحتواء الهموم المستجدة مع تضخم مدن نصف حضارية طُبعتها الهجرات الكثيفة بأخلاق هجيئة:

الساعة وحدهم تفنكر تجلم بوحده  
المني نومك بالتنهني .. واخجل بكد الاحلام

قداحة الحرمان وضغط الغرائز في ليل مدن قاسية، منفلة قامة للشهوات:

ارسم الورق زنجيه نص الليل ، عليها كلايد المرجان

وأختل جره ابطها... وانجوي بخدما .

وانعكست ثقافة الشاعر وسعة اطلاعه وتنوع اهتماماته الادبية على اشعاره، فقصيدته استثمرت انجازات القصيدة العربية الحديثة والقصيدة الاجنبية. نلمس ذلك بوضوح في قصيدة هي الالهة بمخطوطة طارق، ومن قصائد معدودة هي خير ما توصلت اليه القصيدة العامية العراقية التي تعطلت مسيرتها بسبب الصراع السياسي والحروب. فتأخذنا الدقة الحسية في الصورة الشعرية بمغوضها المحبب المتأتي من عمق الحالة الشعورية الى لذات الروح لحظة انبهارها المطلق في الجمال:

طلعت من نهار البارحة متهين / معنى الشمس واليوم وظلال الناس / بين وجوهنا وخط

الشمس نافورة متعطلة / اوجه طفله / مثل مي حوضها الراكد / وشعرها يغوي بالشارع /

مشت خطوه عكس مجرى الهوى .. وداسمت اسامينا / وقد مها ترصع بروحي

«وضوح اول»

القصائد تحتاج الى تأمل ودراسة مختصين بالقصيدة العامية العراقية. واقدم من خلال الصفحات التالية نماذج تنشر لأول مرة مرتبة وفق منهج التقديم، راجياً من المؤسسات العراقية القادرة (دور نشر، مجلات) واصدقاء الشاعر تبني طباعة المخطوطة المتوفرة لدي والمنقولة أصلاً من قصاصاته المبعثرة التي عثر عليها اصداؤه في غرفته بعد وفاته، وسأقدمها عن طريق ث ج لكل من يبادر لتنفيذ هذا المشروع النبيل لمبدع عراقي عاش ومات في الظل.

الدنمارك ٢٩/٤/١٩٩٦



### مشروع قصيدة

تفتكر ترتاح ايدك ع المخدعه، وراسك يفتّر دواره  
تمت وتخيلت نفسك نسر ميت .. طار كل عمره خساره  
وضرب جناحه ابصغره أكبر من مداره  
الساعه وحده .. (تفتكر تحلم بوحده)  
تفتكر تكدر تمد ايدك وهي اسلاك متكهريه وتلمس نهذا  
إملي نومك بالشهي، واخجل بكد الاحلام  
صعد مجد الليل لميونك وطبكها على الايام  
ويوم الاحد ما اجه ابالك نهاره

الاحد مدكّت ساعة وحده

واهجست راسك نكيل عالمخدّه

وحلم وجه عالمخدّه

الروح تحجي، الكلب ساكت

انتبه راسك سفينه... انعطلت بليل المدينه

كبل ما تعطل الموجه وتلف بصدور السفينه

انتبه راسك، مدينه الناس بيها تجي وتروح

وشوارعها المريضة لا تجي ولا تروح بيها

اصرخ بقاره ضيغه حتى لا ينسمع صوتك، وانت تحلم بالكلام

صعد مجد الليل لشفاك وطبكهن ع العبارة

تفتكر تمتلي ايدك يوم الاحد

وانت فارغ مثل ساعات النهار

اتخاف من روحك وتنساها جذب ساعه وحده

اتخاف من ايدك وتثنيا بخدر فوك المخدّه

اتفوج من ظل السكملي

اتغمض عيونك تصوير الغرفه ظلمه

عينك اليسره ضعيفه تقره باليمينه رساله

على كلبك احفظتها من زمان

اتبركس بشوه غميجه وفوج بيها

واچوي احلامك المكسوصه بجكاره  
 اتوخرت جد امك الحيطان . . اللي بجيت مره عليها  
 وزنتك للبيت ما امنت بيها  
 اختبي بعلمه تفهمك  
 تبسط ايدك . . تاخذ وتندم وراها  
 صعد مجد الليل للجملة وطفاها  
 لو كمر روحي ، ما اطوف الدنيه من اولها لآخرها  
 واذب روحي بدجاها  
 لو بيديه احرك اوراقي القديمة والجديدة  
 واشمر همومي بلظاها  
 الشمعه من يگفي ضواها  
 الليل هم يگضي ويها  
 اختبي بنفتوف ضيك ، حتى تتعلم شتو معنى النفاه  
 الليل املس ، والضوء مثل الحجاره  
 الليل املس وانت حلمك خشن يزلك ح المخده  
 الليل املس مثل زیده  
 اختبي بالحظه تفهمك  
 آخر حجابيه تفكر بيها . . نقتال الكلام  
 افرز القي الرمادي الترف من جنح الحمام  
 تفكر بمتلي گلبك ريش ناعم  
 لمن يرد السلام  
 اختبي بعلمه تفهمك  
 واحتقر كل الكلام

(القصيدة غير مؤرخة)

## رؤيا

فریت المدینة بلیل  
 فریت المدینة وخبطت ع البوب

كتلهم اجت الرياح .. دمو البوب  
 أخاف الرياح تخلع بويكم وتظل دشر .. ، والدور بينه تدور  
 وكل واحد يحط لوحه على جتاته سقيته وينتظر طوفان  
 وكتلكم .. وكتلكم .. وكتلكم  
 وكتلو هالولد حلمان!  
 ولا واحد سمعني اشبكت غلبي انشك  
 ولحم جفوني وغمته ابدرايين المدينه .. وانهرى من الدك  
 فريت المدينه بليل  
 شفت الرياح جتي من بعيد توف .. بداية سيل  
 شفت النجم فص محبس باصابعها  
 وظهر جد ها محني على السجادة  
 طوه آخر صلاته .. ووجه السجاده بركن حجره  
 وجته الطفله من فتحة الباب تفوت  
 خضره تصيح كعدوني .  
 وقد مها الحافي يرسم ساجيه ازفيرونه بالكمره .. وروحه المدله تسمعها  
 وجمرات الجكاير فتجت بالظلمه عين الديج .. راد يصيح  
 وتوترت حنجرته  
 وصاحت من بداله الرياح  
 وصياحي اختلط بالرياح  
 ويقيت اصرخ .. اصبح الحد عمود الصبح ما بين ابين الرياح شفت الخيل .. ، يجدع الحصو  
 والجير حافرها  
 ورتوا من شرارتها جكايرهم  
 وركبوا على ظهور الخيل  
 والعشره الزغيره توكم عكاده

- ١٩٧٢ -

اسوار بلا مدينه

بنيتام لكاج بكاع مصفره

يحفنچ سور من جوه ويحفنچ سور من بره  
وشميدور بنيادم وراج ايدور جدا مه عريض السور  
وشميدور يعلى بعينه سطح السور  
وما من حفره إلا وظلها باب السور  
وظل يدور

بنيادم تعب من كثر مفتر صار قراره  
داخ وچلت الكاره  
وفدح لمن لكاله حدر سورچ بره وصلة في  
فرشها ونام فوگاها . . وعليها ارتاح  
وصلة في فرشها السور للغريه  
كشط منها باظافيره وستر وجهه اللي ينضج عرگ  
ينضج حيره بنيادم  
ينضج تعب بنيادم  
بنيادم ايدور على وصله باب كل عمره

يمكن تنفتح بالسور

بنيادم

يمكن كدر ابطگله شبر بالسور

بنيادم

كتب ح الحايظ ايامه ، وعذابه ، وليس هو يدور

بنيادم

بنيادم رجع وپراسه ظل يدور . . شكّل السور  
اخذ يحفره وغابت الشمس ع السور  
وظلعت الشمس ع السور  
حط عينه على التلمه واخذ ينظر  
بنيادم - أخذ ينظر من التلمه الفتحة وبهت بنيادم  
لمح من عدها سور آخر بعد هالسور  
وظل يحفر وظل يثلم  
عبر اسوار بنيادم

الحد ما ضاع بنيادم

ابن اسوار ما تنعد

ترك خلقه ثلم گامت وراه تنسد

وينيادم ابد مارد

واشاف اسوار ما تنعد

ولا تحضن مدينه ولا تحيط بشي

ولا تحوي فرد شي غير بنيادم

وظل محصور

### الطير والصياد

الطير كل للسمه

انتي .. مُلكي .. مُلكي

وگبل ما ينتهي من الياء الاخير

طار راسه بالسمه بصحبه ضيره .

### موقف آخر ..

وين ما تلگي ظلم

ظلم .. مقنع ، صريح

حشي اصابعك باذانك

واغمض عيونك وصيح

متى ما تسكن الريح

تلگه طير مطريس بدمه جريح .

### العطش

الساقيه من تعطل .. البستان يكفر

بالنده والمائي .. وتعيط الزهره

وتركض الاشجار بالشارع عرايا بغير خضره

## وين رايح

وين رايح بالمحبة؟  
بروح ماخضر سمفقه  
والديوجه الغبشت بتالي حنينك  
محد اشكالت عرفها  
وامتله بدمك عرفه  
اشكشر رغباتك منين تفوت؟  
والدنيه اشكصفه

## لا امتثال

كتلي هاك . . هاك الابره هاك الخيط شد جرحك  
وما مديت الك ايدي وگمت اضحك  
وشقت الحيره بعيونك سؤال  
أكبر من الابره والخيط وعقلك ونصحك  
والسكنه عذاب وياك  
واخذت ايدك الاخرى وسكتت وياك  
ومن بين الدمع كتلك  
لا تحتار بالمره  
انه جرحي بضميري ما تلوحه ابره  
ولا يندل عذابه الخيط من بره

## وضوح زول

الى علي الشباني

طلعه من نهار البارحه متيهين  
معنى الشمس واليوم وظلال الناس  
طلعه من نهار الألم... والحايط ألم  
...جزعان من ظله

بين وجوهنا وخط الشمس نافوره متعطله  
او وجه طفله ..

مثل مي حوضها الراكد

وشمرها يضوي بالشارع

مشت خطوه عكس مجرى الهوى ، ودانت اسامينه

وقدمها ترصع بروجي

ونظرتها الذخيره انحنت فوق المي

وتحرك تحت نظرتها وجه المي

.... لكت بالمى اسامينه

علكت في اصابعها جرح صرع الباب

... دكاته تمرينه

يمكن في اصابعها يوعينه

ودمعا البارد ابغذي البنفسج

يشهك .. ويكبر ويصمد ويه امانينه

مشت خطوه وشمرها المضوي بالشارع

ضوه خافت يوغر الفي

وعطف وعيونها التلمع يگف بالشمس نافوره

شفنه بعينها صورتها معكوسه ع الولايه

وضحكاتها كمر .. لو نجمه مولوده بليالي العيد

تأمل وجه طفله العصر من جامه مكسوره

وبين وجوهنا وخط الاق ، نافوره مشتله

طلمنه من هواهم «يا علي» مشيين

صدگ كل هذا التشوفه فراغ .. سنين

خطف بالشارع وجرحفني من عيني

احاجي طفل ضايع يوكف ببالك

عيونه مرابه معكوسه على احوالك

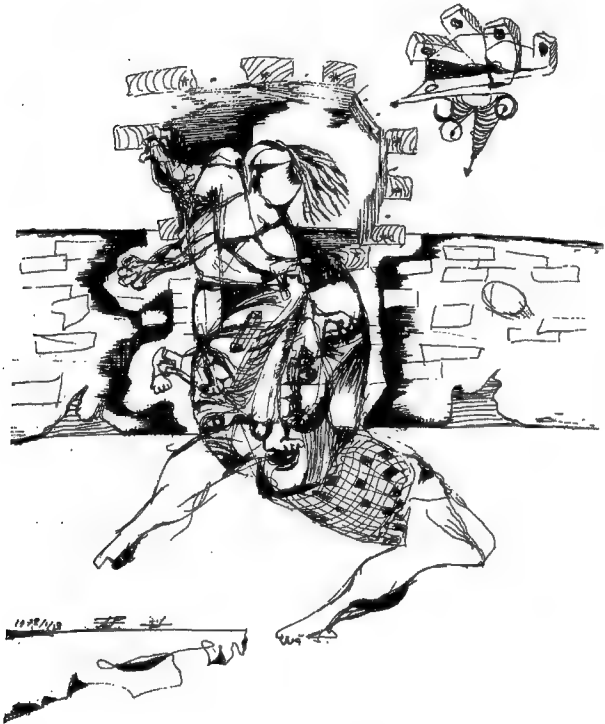
بركه

وعطفك بعينه اللي تدمع يگف نافوره

ضحكتك خبزه مكسوره  
 وجتف يحمل دوار الشارع وظله  
 رسمت الألم بوابه وقتتها  
 اسمعت صوت الخبز بالجسد يتكسر  
 حصانك عثر خلف السور  
 والعشرات تكثروا حدود السور  
 نجمتك بالنهر سالت  
 حركك لعب بالغمرة  
 وغتل بين العشب والطين  
 طلعه من نهار اسودانه مضيعين  
 معنى الشمس والليل وحياة الناس  
 والممشى ألم جزعان من ظله  
 ظل النخلة ثوب اللبسوا الاسمال . . والجده  
 تركت السور يتفتت وراك  
 والشمس حايط دم . . يوكف بينك وبينني  
 ويعلو بعلو سنيي  
 يحز بالاق خط  
 والشمس حايط دم  
 رسمت الدرب بميونك . . شفت باطن مدابتها  
 مدينة الفجر وعيونك توافذها  
 أشوفك منها مستعجل  
 مسحت ايدك رسمت الفجر . . واهراس المدينة بحافر حصانك  
 رسمت التعب بأجدامك  
 مكان الكلب ظل شاهد على المامش  
 نوبه صاعد اوبه الناس  
 نوبه نازل يوحذك  
 والعالم بين واحد  
 نازل وصاعد



طلعت من نهار الاحد اتذب الخطو بالديح  
 واتدوب الخطو بالديح  
 العالم حبيني اشما كنت واسع  
 اقره الناس أملهم .. من كيل ما أحجي وباهم وأمل روحي  
 اقره الملل بالكهوه  
 واحدته صفه ضمان  
 لو غيران لو ربحان  
 لو مجتول لو شاهد  
 ظلي وظلك ايصرن رقم واحد  
 واول شي يصح كلشي ويصح لا شي  
 تشبهي واشبهك .. صرته احنه اثنين  
 من اتضيع تلكاني .. وتلكاني من تضيعني  
 او من تتلاكه انه وياك نتضيع سوه ونختار  
 تشبهي واشبهك والشبه ثاني وضوح  
 إو وضوحك أو وضوحي .. وصخرتك نحت بيها الزمن والتيار  
 أكف بين الصدي والصوت ، حايط سومري مقلش  
 واخط فوكه هوه جروحي  
 گالت نهدي حدر الثوب گالت نهدي بجروحي  
 من دارت النيه براسي والشارع عصر روحي  
 والشارح رحل بالناس .. والشارح رحل بالقي  
 رحل بالآلم الانساني  
 وعقلي براسي بالمكلوب  
 طلعت من نهار الممممه مدخنين  
 چتف يحمل هموم الناس .. عن الناس



تخطيط للشهيد كفاح ابراهيم

## نكوي

مهدي محمد علي

قد يبدو في المرأة  
 شيوخاً مكدودين  
 لكن التجميلة تعني عمراً زهراً مرّاً  
 والتقطيبة تعني طملاً سار على جمر  
 والشيبة في الغرة  
 تعني رجلاً في الستين  
 وغرابة شكل الأنف  
 أنت من راحة لا تؤنس  
 والحنك تشكّل  
 من شدّ الفكّين على أزمات لا تحصى

.....  
 ها أنذا قدام المرأة ،  
 فيا موت تقدّم  
 إن كنت ترى نفسك أجمل مني

بصرة حلب

٢١ تموز ١٩٩٦

## هذه بغداد تلعنك

حامد بيكه س

تلمس السكين  
وتبعثر الريش ،  
الآن يمضي الكدر إليك ..  
لا أحد يرشف جسد النوم  
هواء الوجه يزحف  
تحت خشب يتوازي مع قضبان تنمو - برعب .  
الآن الألم... يتكلس ،  
الطريق يرتفع  
كاشفاً عن سرّ الأصبع  
الذي يطير  
صوب الرأس ..  
أهذه عصا المطر  
توخز ماضي البركة!  
أهذه وسادة البريء أم صمت الطائر!  
العالم فخ الصفعة.  
لذا المدينة تهرب - منك ،

تجر خلفها ركاماً من النهارات المذبوحة .  
كان الوجه يلعن ليالي مكسورة...  
أه... من أين أتى هذا الشعاع  
الى القبر

وجعل من الوردة  
ثدياً للسلاح ،  
والصحراء ثوباً للطعنة ..  
من أين جاء  
هذا الشعاع  
وتراكم هنا كمقبرة مبعثرة!  
لا أسرار للصباح  
العرش خدعة قديمة .

تريد هذا  
بلا جروح  
أو أواسمة  
تريد هذا ، مع الغيمة كلها  
من دون دم  
أو جنث ..  
تسبح بوجه الدم أذن ،  
تزحف على الخشب أنتظاراتك ،  
لا تسمع صخب القاعة ،  
أنت وهن الشارع ، قبضة الذعر ،  
عري الحرب ،  
ترى اللحم معتزجاً بموسيقاك  
تذبح الفراش والوسادة بملايسك ،  
عليك أن تقود لنهاية  
الى المنحدر  
ومن هناك أجلدها بتفسخك

أيها الضحية ..

أو أرُنْ الى القمة :

ما حولك دمار

يتراكم على عكازتك .. :

لحنك تكرر

بعيداً عن الحشد

الفصول تشدك الى عمود العزلة

أيها الوحش ..

كم انسان طوحت به في بئر الموت

يا خراب الرغبة ،

تحاصرك أحلام فجأة

لكن متحالبك ترمم الكارثة ..

عبر حبال تنللي فوق الصدا

أنت تهبط الى القبح ،

أيها المعدن الخبيث

الشريان يجلدك بياض ،

يا كابوس العتف :

هذا سجنك مبعثر فيك

هذا دمك تهرب منه الملائكة

هذا جسلك يتواري في الزيف

هذا رداؤك ملطخ ببقع حمراء ترتعش

وهذه بغداد تلعنك — بصمتها

\*\*\*

السليمانية ١٠/٨/١٩٩٥

## الافتتاح

### كاظم ثامر بشاهري

لم يدم الطرق طويلاً... الماء ثقيل ولزج... اعتكر مزاج الجمع المتنامي... تراصت الاكتاف ودفعت الباب... اختض مرات ثم تهاوى... تصاعدت موجة غبار كلسي، وضربت الانوف دفقة روائح قديمة ملتصقة بالجلدان... فرت مسرعة جردان كبيرة مهدمة الافواه وبنات عرس ولاذت بالزوايا والشقوق... وثمة حشرات طيارة واخرى زاحفة لم تنجدها سرعتها في الهرب فسحقتها اقدام الجمع الذي تسمر امام المشهد مشدوها.

وظل ابو عباس يؤكد لشهور طويلة بعد الحادث انه مرة سمع محمد صالح بجسده الهزيل وشعره الشوكي في «قهوة عبد» المندرسه يدعو الناس وكانت تفوح من شفثيه الكبيرتين رائحة فطائس متعفنة لانه يأكل لحم خنزير - والعياذ بالله - أن يدعو بناتهم - والكلمات تصفر من انفه الرفيع المدبب - سافرات مثل بنات الاجانب فاكشف «الملا ظهد» مقصده واعلن في حينها على الملا ان محمد صالح كافر ومرتد والابتعاد عنه وعدم معاشرته فرض وواجب.

وكان قد سمع من اولاده الذين كانوا يطاردون حمامة حطت على بيته انهم وجدوه خلف ستارة النافذة المفتوحة بعظام وجهه الناتئة تحت جلده المتيبس الجاف - يرسم صوراً لنساء عاريات.

كان يقول هذا كلما استلبكروا محمد صالح ثم يستغفر الله ثلاث مرات ويمضي.

تزامن الحادث مع اكمال الفرق المخصصة لاقامة جدارية ضخمة عند مدخل الحي

الرابض فوق ارض سبخية واطلة دعي اليها اشهر الرسامين لرسم صورة الرئيس ، واستمر العمل ثمانية اشهر متواصلة . وحوت بمساحة واسعة مصقولة بعناية واعمدة عالية تحمل كشافات ضخمة نصبت في اركانها ، تسورها فساتل النخيل وشتلات الورود . وأقيمت في الوسط نافورة تنفث مياهها التي تلوونها المصابيح المعدة لهذا الغرض . وافتتح الطريق المسفلت الذي يربط نثار الحي بجسد المدينة الموهلة عمقا باتجاه النهر . .

وكان الحادث قد غير مسار الجموع المذهبة لمشاهدة حفل الافتتاح ودفعهم باتجاه الزقاق الذي اكتظ امام بيت محمد صالح . أم حسين تكرر بين الفينة والاخرى لف الفوطة حول رأسها فتعحسر اكمام ثوبها الاسود عن ذراعيها فيظهر الوشم الشذري على جلدهما المنكمش .

— اشتغل مرة مع حسين في بيع الخضراوات... ثم ترك الشغل وحين الح عليه حسين بالعودة الى الشغل ، قال : استريح فترة واشتغل بعدها . فعندي ما يكفي لفترة استريح فيها .

قالت ذلك موجّهة كلماتها للجميع ، رد عليها واحد مستفسرا : وماذا بعد؟

— ذهب اليه حسين مرات كثيرة يستحثه على العمل . . كان حسين موجوداً ضمن الجمع الذي اكتظ به الزقاق فقال مؤكداً كلام امه :

— كنت اقول له لنذهب على باب الله ونطلب الرزق . يجيبي وقد تجعدت ملامحه ، وعيناه الغائرتان تزوغان كأنهما تبحثان عن مفر... يقول : سأفتش عن مهن اخرى مع علي بن محمد . .

أقول له : ومن هو علي بن محمد...

كان يجيبي : أي علي بن محمد...

ثم التفت الى اشخاص قريين منه وسألهم :

— اخوان ، تعرفون علي بن محمد؟

اجاب بعضهم : لا...

ثم استدرك قائلا : مرة وجدته ساهما وفرّ حين دخلت عليه . ابتسم قليلاً ودعاني للجلوس . ثم قال : بناء البيوت والفخار الملون ومراكب صيد الاسماك ومقاييع الصيد والفؤوس ذات الرؤوس الصوانية والكتابة ونظام الري والزراعة والمحراث ودولاب الخزف والعربة والنحت واواني الفضة والنحاس والرصاص .

قلت له : ماهذا؟ قال : ردد معي حتى تحفظها... وبقيت اردد معه لساعات حتى



حفظتها عن ظهر قلب... ثم قلت له : لماذا احفظها... قال : تصور هذه الاشياء كأنها غير موجودة إطلاقاً... فكم كان مكتشفها حراً! عندما يكون الانسان حراً يكون مفيداً . . أليس كذلك؟

ثم قال : هل جريت السفر...؟

— السفر ممنوع!

— يمكنك ان تسافر...

— كيف؟

— السفر الذهني... انا دائماً اسافر الى اصقاع بعيدة جداً من هذه الزريبة . (واشار الى غرفته) .

الحقيقة لم افهم ما يريد كنت اشفق عليه واظنه يهذي . ثم وجه كلامه الى جماعة قريبة منه...

— اخوان هل سمعتم سفر ذهني؟

زم البعض شفته متسائلاً والبعض الآخر ابتسم خفية .

كان رجال الشرطة قد وصلوا وفتحوا الباب مرة اخرى بعد ان اعاده الجمع وانسحب الى الخارج يسحقه هول المنظر .

حزمة ضوء باهته تسفح من شبالك الغرفة وتسقط على اشياؤها المتطاولة في اللامبالاة . ولم تكن تلك الاشياء غير بقايا مجلات وكتب حائلة الالوان جف عليها قيء اصفر لثامالات فاتته . . وقناني عرق فارغة واقداح شاي منملقة . والاكثر وضوحاً اعقاب السكاير المارحة في كل الاتجاهات ودولاب ملابس خشبي اعرج ناصب الالوان يقف على ثلاث ارجل ويتكى خاملاً على الجدار يلفظ محتوياته عبر باب المشرع .

وبين الشقوق المتفرعة في جدران الغرفة ، مثل شجرة جرداء ، اعقاب سكاير مطفأة ولوراق مدعوكه ومدفوعة بقوة داخل الشق .

سحب المفوض تلك الاوراق ، تهشمت بين اصابعه وسقطت تراباً . ورقة واحدة كانت اكثر تماسكا وتبدو جديدة بعض الشيء .

فتحها برفق وبسطها امامه ، قرأ في سره : «هو يلج الباب..... وانا اكون/تساؤلات/ جهد كل يوم = سائل لافح /المادة السرية/ سواء وجد او لم يوجد فنحن جديرون بتدبير موتنا /المرأة/ الدين / الموت اكثر امانا/ حين تغير مكانك تبدو مشعاً اكثر /القضبان . . رجال انيقون» .

كانت حروف تلك العبارات مصممه مثل قطع آجرية كبيرة مرصوفة الى بعضها تشكل هرمأً عاليًا، قاعدته الدائرية تركز على رأس رجل غائب الملامح تنكسر عظامه ويغير نصفه في الارض المتشققة تحته .

لف المفوض الورقة بتؤدة ووضعها في جيبه ثم اغلق الباب وامر الجميع بالتفرق وعين على المكان حراسة من شرطيين .

كان الحي قد تجاوز ظهيرة قائظة . . . وما زالت تتصاعد ابخرة حارة من عتبات البيوت والمجلدان المتأكلة .

في هذا الوقت وكالعادة ام حسين تكنس قنطرة الدار وترشها بالماء وتفرش حصيرة من الخوص وتقي عليها .

لولا ام حسين لكان محمد صالح الآن حديدأً وسكرأً ودمأً ودهونأً وسوائل لزجة اخرى في بطن الكائنات الشرهة ولاختفى اثره تماما وتحلل الى مواده الأولية...

حين رأت تلك الأشكال الخارجة من بيت محمد صالح والمرتمة امام باب الدار اقتربت منها فشاهدت خيطأً طويلاً من الكائنات الزاحفة ، كانت بطول الاصبع تتلوى ، كأنها حيات صغيرة ، تواصل حركتها بدون اكتراث لاي شيء كأنها تؤدي عملاً مهماً تتشكل في نجمة سداسية شرق الدار ، خماسية غربها ، في المقدمة أهله ، في المؤخرة سيوفاً . . . بعضها رسمت من نفسها اشجاراً . . اشكال حيوانات .

دب رط منها والتصق بقدميها ، صرخت بفزع مستغيثة بضع مرات .  
تغيرت اتجاهات تنف الجموع الذاهبة باتجاه مدخل المدينة واحتشدوا امام بيت محمد صالح . واذ وصلوا وفتحوا الباب . . . تسمروا مندهشين .

فلم يكن محمد صالح غير هيكل عظمي متناثر على ارضية الغرفة تقضم الجردان وبناء عرس عظامه وتلدس في تجاويفها حشرات الذراع والجعل وغيرها .  
وتأكدوا من شخصه من خلال انيابه المقلوعة ويديه بست اصابع لكل واحدة .  
وظلت حادثة محمد صالح نابضة وقوية في ذهن الحي لشهور طويلة بعد أن جمع عمال البلدية هشيم عظامه في كيس أسود مثل أي قمامة .

رفحاء

١٩٩٢

## احب المبدعين.. ولست منهم

هلال كاظم

ما اثير من نقاش حول «انطولوجيا المثقف» على صفحات ث جـ وما صاحبها من ردود انطوى بعضها على التشنج وبعضها على التسامح واستعمال اللغة المهذبة دارت بين القاص ابراهيم احمد والدكتور عدنان عاكف والمداخلات الاخرى ممن تابعوا الموضوع وأعطوا رأيهم، كلها تعكس متابعة جدية من اصحاب الرأي والابداع والكلمة السياسية وكذلك جدية الموضوع.

لست ممن يدعي جدارة للنقاش مع «العفاريث» ولكن شعرت، كمواطن ينتمي الى العراق، ان ادلو بدلوي.

ومناقشتي المتواضعة لهذه الآراء ليصت دفاعاً أو تأييداً بقدر ما هي محاولة للمشاركة في ترسيخ تقليد جميل نطمح اليه في حياتنا اليومية في جلسات ونقاشات الاوساط السياسية والثقافية العراقية بروح حرة بناءة بجهود جميع قوى الخير لكي يسمو بنا الى الحقيقة، باعتبارنا قوى المستقبل، وذلك للتخلص من ليل العراق البهيم.

ليس لي مأخذ على ابراهيم احمد لانه تجاوز على التابو. فاذا اعطى رأيه بثورة تموز فهو حق له وللآخرين. ومن حقنا الشك، الشك بما يسمى بالحقائق التاريخية. اليس «الشك معيار الحقيقة» حسب تعبير بريخت؟

من جانبي شعرت من مقال ابراهيم احمد بتحامل على السياسة أو السياسيين وازهار البقع السوداء من تاريخ واحد من أهم طلائع الحركة السياسية العراقية وعلى

امتداد أكثر من ستين عاماً، وهو الحزب الشيوعي العراقي، رغم صدق نوايا الاستاذ ابراهيم. واطهار هذا الجانب فقط يثير الاسى (وليس الاسى وحده) في نفوس جمهور كبير ممن ارتبطوا بهذه الحركة بشكل أو بآخر. (مقالة الاستاذ سعدي يوسف في طريق الشعب عدد ١٠ أواسط ايار ١٩٦٦ وتلقي الاضواء على العلاقة بين الحزب والثقافة والاشكاليات العديدة حولها وما هو دور المثقف ودور الحزب). وإذا قيل ان الرواية في روسيا خرجت من معطف غوغول، فان الحركة الثقافية العراقية، على الأقل في النصف الثاني من هذا القرن، قد خرجت من معطف الحزب الشيوعي العراقي وهو ما أكدته عدد غير قليل من المثقفين العراقيين. فلا بد من التواضع وتأكيد هذه الحقيقة وفي «التواضع حكمة». وإذا حصل اخفاق فان الاخفاق ليس اخفاق الحركة السياسية وحدها وانما اخفاق المثقف ايضاً. ويمكن القول ان المثقف عاش في ظل السياسي على مر التاريخ. وإذا كان المطلوب تجاوز النقد الروتيني على حد تعبير ابراهيم فلا أعتقد بعدم وجود ضير في اسهام الكلمة في النقد البناء واضاءة الطريق بالفكرة النيرة التي تتبج للناس واحزابها وبرامجها تجاوز الاخطاء والنكسات، وهي من صلب مهمات المثقفين باعتبارها مهمات وطنية بالدرجة الاولى لكي «لا تظل الدورة الدموية للحزب تكراراً لازمات الماضي» ولكي لا تبقى الجماهير أسيرة برامج سياسية مكررة لعشرات السنين، خاصة وان الحزب قد دعا لمرات عديدة، وبالأخص في السنوات الأخيرة، اصداقاً ومحبيه من المثقفين للمساهمة في رسم سياسته وتطوير برامجه. وهي دعوة صادقة ولا بأس من المشاركة الفعلية حيث ينوي الحزب التهيئة لعقد مؤتمره السادس خريف هذه السنة. «وليس كثيراً على الشيوعيين العراقيين ان يفكروا فمتمدين من الماضي سبعة آلاف سنة» كما وان الشيوعيين العراقيين ليسوا وحدهم من فكّر بأن بداية التاريخ هي ثورة أكتوبر، وليسوا وحدهم من امتلك تاريخ وحضارة.

وليس دفاعاً عن عدنان عاكف ولكن ما طرح في انطولوجيا الموقف وما بعدها من ردود، وهي وجهات نظر قابلة للنقاش والدحض، ولا يوجد فيها من يمتلك صك الغفران، في تقديري، هي ردود من ذات الاسلوب الذي استخدمه الدكتور عاكف ولكن بلفظ سلسلة مهذبة افتقدتها عدنان ويهجوم مكشوف، مباشر لا ينطوي على مجاملة.

ولماذا اعتبرت آراء عدنان وجهات نظر الحزب الشيوعي في حين أن رأي الحزب وسياسته واضحة من خلال بياناته وبرامجه؟ ثم ليست وجهة نظر عدنان وانطلاقاً من مقولة وحدة العمل واختلاف الرأي هي ما نطمح اليه؟ وإذا كانت هذه الآراء نشرت في

«صحافة الشيوعيين»، فهو مادعوننا اليه لاعطاء المجال للرأي والرأي المخالف لا ان تكون هذه الصحافة حكراً على من يدعي تمثيل وجهة نظر الحزب ويقرر سياسته. كما ان الصراع بين المثقف والسياسي لم يحسم من قبل عدنان عاكف لصالح السياسي. ان عودة الى التاريخ القديم والحديث ترينا ان التاريخ كان دائماً لصالح السياسي. ألم يخفق افلاطون في جمهوريته؟ والجولة في روما القديمة كانت لصالح نيرون وليس لفقهاائها. وانتصر النبي محمد في الجزيرة العربية لكونه تعاطى السياسة، وليس لكونه صاحب رسالة فقط، او لكونه امتنن التجارة في الشام مع شريكة حياته لاحقاً (خديجة بنت خويلد) وقامت الدولة الاموية والعباسية لا بجهود الحركات الفكرية التي سادت في تلك العصور وقامت الثورة الفرنسية على اكتاف اليعاقبة كحركة سياسية فكرية تمتلك في أهم اقطابها، روبسبير ودانتون، وانتهت لصالح نابليون كحركة سياسية بشد اوجها عنفاً وشراسة. وقامت الوحدة الإيطالية وتبلورت إيطاليا كامة على يد غاريبالدي وليس على يد مفكري عصر النهضة. وكذلك الحال بالنسبة لألمانيا كامة موحدة على يد بسمارك رغم الفكر العملاق لهيغل وماركس وغيرهما من المبدعين الألمان. واحداث هذا القرن من الثورة البلشفية الى صدام حسين وانتصاره على ميشيل عفلق، احداث التاريخ هذه تغطي الانطباع بأن الصراع هو لصالح السياسي، وقد يكون سبب ذلك هو مكر السياسي وثقافة المثقف.

ان النكسات التي عانيناها في عصرنا الحديث هي انعكاس لقصور المثقف والسياسي معاً (العييب فينا وبجباينا) ولا بأس من قولها بدون حياء، وهو ما يدعوننا الى التأمل والمراجعة بشكل متواصل.

في معرض مناقشة الدكتور حسن الجنابي للجوانب المظلمة لثورة تموز ومنها «قتل جميع افراد العائلة المالكة غدرأ» قد يكون من الضروري التذكير بهذه الأحداث، لما للعنف من نتائج يعرفها الجميع، وفي الوقت ذاته يتكرر طرح السؤال: اية ثورة تمت بدون عنف وبدون دماء؟ من حق الشعوب استخدام الوسائل التي تتاح لها بعد عشرات السنين من العذابات والحرمان كما حدث في انتفاضة شعبنا في آذار ١٩٩١ (رغم بعض الممارسات غير المبررة)؟ وان من حق الشعوب الدفاع عن نفسها ضد قوى عاتية هجمية لو اتاحت لها الظروف ثانية وكسب الجولة ضمن ظروف وعوامل أخرى، فانها لا تتورع عن ارتكاب اقبح الجرائم، والتاريخ ايضا شاهد على ذلك. ان الدفاع عن النفس والصراع العنيف ضد قوى الطغيان حق مشروع، حتى المسيح قد دعا صراحة الى الصراع وعلى غير ما يدعي

دعاة المسكنة والخنوع وذلك في قوله «جئت لألقي ناراً على الأرض». (مانشاهده ونسمعه الآن من غسيل دماغ في بلد الديمقراطية والعالم الحرء روسيا الحديثة، اعلام يصم الأذان ويفقأ العيون عن قتل آل رومانوف (الذين أذاقوا شعوب روسيا لأكثر من ثلاثمائة سنة) شتى صنوف الحرمان، في محاولة لمسح تاريخ مريز عاشته روسيا بداية هذا القرن. لا ادعي تقييم هذه التجربة التي تتطلب عشرات المجلدات من النقد والتحليل و تقصي الحقائق. لست من دعاة العنف لما لاخلال العنف من نتائج مؤلمة، كما وان ثورة ١٤ تموز هي الاخرى ورثت تقاليد تدخل الجيش في السياسة وليست هي من أرسى الحجر الاساس له ففي حركة بكر صدقي عام ١٩٣٦ وحركة مايس ١٩٤١ ودور الضباط في جبهة الاتحاد الوطني عام ١٩٥٧ وغيرها من الاحداث، نرى الجيش في مركز الاحداث والصراعات السياسية منذ ان تم انشاء المؤسسة العسكرية. وهي حالة شهدتها كل بلدان العالم الثالث تقريباً. رغم التطور الرأسمالي الذي شهدته هذه البلدان. والنظرية التي يتبناها حزب صدام هي وريثة الفكر الفاشي في العنف أكثر مما هي امتداد ونتيجة مباشرة لتدخل المؤسسة العسكرية في الحياة السياسية بعد تموز ١٩٥٨. نطمح الى تفاري التشنخ من أصحاب الكلمة والسياسة، فالكلمة الناضجة والمؤثرة هي حصيلة جهد المثقف والسياسي معاً.

موسكو/ تموز ١٩٩٦

### الاخوة المشتركين

يرجى المبادرة إلى تسديد الاشتراك وتجديده (لمن انتهى اشتراكه) لمواصلة إرسال المجلة لكم دعماً للثقافة الجديدة

— الثقافة الجديدة —

## الإشـتـراك النـوي

50 دولاراً أو ما يعادلها

100 دولار للمؤسسات

يدفع مقدماً بشيك مصرفي إلى رقم الحساب 467127-42

**ANI HAMED AYOUB**

**BANQUE LIBANO-FRANCAISE**

**Bar Elias, LEBANON**

أو يدفع إلى رئيس التحرير

يرجى المراسلة بشأن توزيع المجلة وما ليتها على العنوان:

الثقافة الجديدة. سورية. دمشق. ص.ب: ٧١٢٢. تليفاكس: 4449724













فكر علمي  
ثقافة تقديمية



١٩٧٩